إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الحادي عشر

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

إطلالة على التراث

الجزء الحادي عشر

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر .
- ط١. - الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م.
مج ١١ : ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١١)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي - مجموعات . ٢ - الحكايات العربية .
٣ - السعودية - المقالات العربية .
أ ـ العنـــــوان .

رقم الإيداع : ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١١)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

هذا هو الجزء الحادي عشر من كتاب «إطلالة على التراث» وكل إطلالة في هذا الجزء أرت روضاً مخضراً من نصوص وردت في كتب التراث المتعددة، وكل موضوع احتوى على أفكار متجانسة فيما يعالجه، استُقِيت من هنا وهناك، بعضها من كتاب دين، وبعضها من كتاب تاريخ، وبعضها من كتاب أدب، وبعضها من كتب الرحلات؛ فالنص الذي يجد له مكاناً في أحد الموضوعات التي احتواها هذا الجزء، يستقر فيه، مجاوراً لآخر عن يمينه، وثانٍ عن يساره، ومجموع هذه النصوص تمثل فكراً موحداً متجانساً، أو مختلفاً متباعداً، أو متجانساً في بعضه، ومختلفاً في بعضه الآخر.

وهذا الجزء مثل الأجزاء السابقة، في غرضه، وفي هدفه، وفي طريقة المعالجة، وفي المنهج، وفي المنحى والخطة، وليس فيه جديد عنها إلا بعض

النصوص، والزاوية التي دُخل منها لكشف ما تحويه، وتسليط ضوء على الجانب الذي اختير للاستفادة منه، في الموضوع الذي سوف يخدمه.

والمعالجة ليست مقصورة على النصوص، ومراميها، وما تحويه من صور، وما فيها من حقائق، ولا في الخيال الذي قد يحلق فيه الناثر، أو الشاعر، وإنما يتعدى إلى الاستطراد، المقصود أحياناً، أو الذي يتسلل أحياناً دون إنذار، إلى أمور في الحاضر توجب المقارنة، وهذه تؤدي إلى الانديا في أمور مجتمع اليوم، وما فيه من عادات، وإنجازات، واختراعات.

وفي كثير من الحالات لا يُؤتَى إلا بالقليل من النصوص الدالة على الأمر، اكتفاء بها، وأملاً أن القارئ، وقد عرف المرجع، وذاق طعم اللون من التراث، واستفاد منه، أن يستزيد من المراجع التي استقي منها، وأن يذهب إلى المصدر فيأخذ منه، في ضوء ذوقه، وحسب ما يحلو له، لأنه من المتوقع

أن يكون لكل إنسان ذوقه، واختياره القائم على ما تشبع به، وتأثر به في حياته العلمية، والاجتماعية.

والمواضيع المعالجة متشعبة، ومختلفة، وتلمس جوانب متعددة من حياة الناس في الأزمان السابقة؛ وسيجد القارئ اهتماماً بأمور اللغة وأسلوبها، والصور الجميلة، التي تأتي من التعبير الحسن، المنتقَى الألفاظ والكلمات، المختار المعاني والأساليب؛ لأن اللغة أساس فيما نعالجه، وهي الأداة الأولى التي عن طريقها نعرف عمن مضى، ويعرف منا من عاصرنا، أو جاء بعدنا.

والذي يوجب التركيز بين آن وآخر على اللغة العربية الإحساس بأن بروداً قد طرأ على الناس تجاهها، وعزوفاً عن التدقيق في الأصول عند التحدث بها، أو الكتابة بها؛ بل إن هناك من يهزأ بمن يلقي لها بالاً، ويعتني بها، ويعد هذا تأخراً في الوقت الذي صعد فيه الناس إلى القمر، وأنه يُكتَفَى من اللغة بأقل قسط يُفهم، ولا خوف من زحف

اللغات الحية الأخرى على اللغة، وأن البقاء للأصلح؛ وهي كلمة لم يحسب حساب السم الزعاف الذي تنفثه، ولا الخطر المخيف الذي تؤدي إليه؛ لهذا جاء الاعتناء بالتنبيه إلى رعاية اللغة، وحمايتها، وعدم التراخي فيما يهدمها.

ومن الأمور التي كثيراً ما تؤدي إلى الاستطراد بعض النصوص التي يبدو الزيف فيها واضحاً أو مستوراً، ولكن فيها جاذبية في معناها، ولمعان مغرٍ في مبناها، وإغراء خداع في مؤداها؛ وهذا يوجب الوقفة؛ عندما يأتي نص فيه هذه الصفة، فينبه عليه، وتُعطَى الأدلة على ما به من زيف واختلاق. وهذا يصحح كثيراً من المفاهيم التي أصبحت شبه ثابتة في أذهان الناس، فالنصوص فيها من الوضع أحياناً ما يدل على أن وراءها مَنْ زَيَّفها، ليلمس عزة قبيلة، أو عائلة، أو عشيرة، والدول المتطاحنة في ذلك الزمن من أموية، وزبيرية، وعباسية، قيل عنها الكثير مما ليس حقيقة، وإنما أريد بما قيل

النيل من إحداها؛ ثم يأتي أنصار الثانية المُهَاجَمَة فيردون باختلاف نصوص ترجح الكفة التي أريد لها أن تشيل في الجانب الآخر.

وقد يُطعن في رجل، وقد يُذم شاعر، وقد يُنتقد عاملُ حاكم، ولا يراد شخصه فقط، ولكن قبيلته كذلك وعائلته، مثل ما قيل عن ابن أبي بلال، وعن قتيبة بن مسلم، وعن غيرهما. والكتب مليئة بأمثال ذلك، مما يجعل القارئ يسير في طريق شوك، يتوهم في كل نص أن وراءه ملفِّق، صاحب هوى وغرض.

والأعراب لهم نظرة متدنية لأهل الحاضرة، وأهل الحاضرة ينظرون باحتقار إلى أبناء الصحراء، فبعض الأقوال الساذجة، التي يتبين فيها الغباء في أحد الجنسين، تأتي غالباً ممن قعد يصنف القول، وينسبه، ثم يأتي من يرد عليه بما يصم قوم هذا المتجني، وهكذا.

بعض المواضيع التفت فيها للخُلُق، وارتفاعه،

أو تدنيه، وبعضها تطرق للمهن، وما هي عليه، وبعضها لمس بعض العادات، وما فيها مما يلفت النظر، ويعجب.

وبعد:

أرجو أن تزرع كل قصة أتي بها في هذه الكتب وردة في روض القلب، ذي التربة الخصبة، وتنزع منه شوكة، تطوح بها بعيداً، لتنعم القلوب بالورد وتسلم من الشوك؛ وكل معنى مستقًى من هذه النصوص أن يكون بسمة في الصدر، وبهجة للروح؛ فإن كان أمراً ملقى فليضف خيراً، وإن كان نهياً فليزل شراً.

والله المستعان، ومنه التوفيق.

عبدالعزيز الخويطر

الشحاذون[1]

الحديث عن الشحاذين يطول، لأن السؤال، وطلب ما في يد الناس ظاهرة من ظواهر المجتمعات، لا تخلو أمة من السؤّال، يعرفهم كل مجتمع، ويقل عددهم فيه ويزيد، حسب عوامل اجتماعية، وعوامل اقتصادية، وحسب نظرات بعينها تحكم وجود الشحاذين.

وعموماً فإنه يكمن خلف السؤال عوز، تسبب به أمر آخر، قد يكون عاهة ابتلي بها إنسان أقعدته عن الكسب، والجري خلف الرزق، والتنقيب عن أسبابه، وقد يكون حادثة قاصمة للظهر حلت، فجاءت فوق طاقة من حلت به، «قصّفت» عليه في رزقه، وحملته التزاماً، يتعدى قدرته على مقابلة ما تطالبه به المعيشة، فلم يجد باباً يستعين به على ما حل به إلا باب السؤال والاستجداء.

---

(١) بدء الجزء المنشور في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٠٧) في ١٤١٥/١٢/٢١هـ الموافق: ١٩٩٥/٥/٢٠م.

وقد تكون أسباب الاستجداء في قصور ذهن الشخص، وعجزه عن القيام بما يدر عليه ما يقيته، فليس به عاهة جسمية ظاهرة، وما به إلا نقص عقل أو ذهن، لا يكفيه لسد حاجته، إذ لا عمل له يستطيع أن ينتج فيه، فيأخذ مقابل جهده؛ وقليل الثقافة، وناقص المعرفة، في مجتمع مثقف قد يضطر حاله للسؤال، لأن الفرص لا تتاح له، لكثرة المنافسة، التي لا يستطيع مجاراة فرسانها.

والغربة، وأنظمة المجتمعات، قد تكون السبب وراء العوز، المؤدي إلى الاستجداء، ومد يد الطلب إلى الناس، لأن مجالات العمل مسددة، والطرق مقفلة، فحتى تحين الفرصة يكون الجوع عض بنابه، والفقر ضرب أطنابه.

وأسوأ أسباب امتهان الاستجداء هو مرض الاستجداء، ففي بعض المجتمعات هناك أناس جبلوا على حب مد اليد، دون حياء، ولا عزة ولا كرامة، فأجسامهم قوية، وأذهانهم صافية، ويأتون بحيل

للاستجداء، لو استعملوها في كسب الرزق المعتاد لنجحوا نجاحاً منقطع النظير؛ ولكنهم يفضلون مد اليد، ولو لم يفعلوا لمرضوا، أو شقوا ذهنيًّا، ونفسيًّا؛ إنهم يجدون فيه لذة وسعادة، ومتنفسًا لهواية مكبوتة عندهم. وإنهم ليحصلون على أموال طائلة، تمكنهم من بدء عمل شريف، والأخذ بالأسباب بعزة وكرامة، ولكنهم لا يفكرون في هذا، بل يكدّسون الأموال، ولا يصرفون منها إلا القليل، ويعانون البرد، والحر، والأمطار، والتشرد، ويجدون في هذا لذة لا تعدلها لذة؛ وأشقى يوم عندهم أن تمتد إليهم يد السلطة الاجتماعية، فتأخذهم إلى مأوى، يتكفل بإطعامهم وإسكانهم، والسهر على راحتهم، والعناية بصحتهم.

وتزدهر مهنة السُّؤال والاستجداء في بعض المجتمعات، خاصة تلك التي يكثر بين أبنائها الفقر والعوز، فيُفتح مدارس سرية، من عصابات من كبار الشحاذين، يعلمون الأطفال الناشئين من

الصغر، على الاستجداء، ويفتحون لهم الأبواب فيه، ويبصرونهم بالطرق التي تستجلب العطف والرحمة، فيتبع ذلك الدفع المؤكد، والمبلغ المجزي، ولكل سن عندهم ما يناسبها من التصرف، والتظاهر، بحيث لا تخلط طريقة بأخرى، مما يوجب الارتباك أو النقص، ومن يعرف طرقهم، وحيلهم، يعجب من صفاء أذهانهم التي تفتق لهم مثل هذا التحايل والمغالطة، وكيف أنهم لا يصرفونها فيما ينفعهم نفعاً شريفاً كريماً؛ لولا أنه المرض الذي لا يقاوم، والذي يبدأ تدريجاً منذ الصغر، حتى يعمي جميع منافذ الخير للكسب الحلال عندهم، ولا يبقى إلا مسامّ الشر.

وتتضمن الحيل التشويه بصوره المختلفة من إظهار العمى والعوز، وإعابة الأعضاء، أو الإيهام ببترها، وتضميد جروح وهمية، ودماء تنضح خلف الضمائد، وأنّات مفتعلة، وأدعية منمقة، وأقوال مزوقة، ودعاوَى كاذبة. وتتغير النغمة، ويختلف القول،

حسب ما يتبين من ملامح على وجه الضحية، المسلطة عليه سهام الحيل، وبيان الكذب.

ولا يستبعد الإجرام، من وسائل الكسب هذه، إذا ما عرضت نفسها الفرصة، أو لم يُجْدِ الطلب، فالسرقة غير مستبعدة، بل قد تكون هي الأساس، والاستجداء لا يعدو أن يكون وسيلة، وإذا ما أمكن الانفراد بالضحية، فقد يكون الضرب والقتل جاهزاً، لأن الهدف الكسب، ولا يهم ما قد يستلزمه الأمر من وسيلة.

وقد دُوِّن في التراث قصص كثيرة عن الاستجداء، وأنواعه، المعذور صاحبه، والملام مرتكبه، وتفنن الكتاب في تفصيل حوادثه، والزيادة فيها والنقص، حسب ما يقتضيه التشويق، والإمتاع. ومن أبرز الأعمال الأدبية التي لعب الخيال فيها دوراً بارزاً بارعاً، فجاء قطعة فنية رائعة، وأخذ مؤلفه قصب السبق في هذا النوع من التأليف: المقامات التي كتبها الحريري، وسميت باسمه: مقامات الحريري،

فأبان فيها فنوناً من التحايل في الشحاذة، وتصور شخصاً ألبسه صفة لازمته في جميع المقامات، مع اختلاف في وسيلة الطلب، وتفنن في حَلْب كرم من نصبت له الشباك، واقتناص نقود من وضع هدفاً، واختير ضحية.

وقد أبدع الحريري في مقاماته في المنهج، وفي الأسلوب، وفي مستوى اللغة، وفي اتقان الخطة، وبراعة السير في هذا العمل الأدبي الممتع. ولم يبدأ الحريري من فراغ، كما يقولون، وإنما استوحى ما كتب من الواقع، ومما يجيش به مجتمعه، من شحذة وشحاذين؛ إلا أنه اختار أن يكون شحاذ مقاماته أديباً، يبدع في تغطية حقيقته، وينجح في التضليل في قبول الناس للمظهر الذي اختاره، فلا يفطن أحد للتكلف والتعمل الذي أخذ بأسبابه، فأتقن وأبدع.

وأستاذ الحريري، وسابقه إلى هذا النوع من الإنجاز الأدبي، هو بديع الزمان الهمذاني، الذي ألف المقامات المشهورة، والمسماة باسمه، وبينهما

أكثر من قرن، والبديع نهج نهجاً أساسه إظهار الأدب وفضله، وتاريخه ونقده، وأدخل الشحاذة وحيلها وسيلة من وسائل التشويق، وسبباً من أسباب الجذب، وقد نجح في هذا، وأحسن، وأعطى صوراً، مثلما فعل، فيما بعد، الحريري، هي إنعكاس لما يجري في زمنه، وأظهر في هذه المقامات، التي هي في الحقيقة قصص وحوادث، النواحي النفسية التي تعتمل في نفس محترف الشحاذة، وكيف تُسيرِّ المستجدي، وتساعده على ابتداع الحيل، واختراع الطرق غير الحقيقية، التي توصله في النهاية إلى هدفه.

وقد ازدهرت أخبار الشحاذين في زمن العباسيين، وقبلهم في زمن الأمويين، نتيجة الهجرة من الصحراء إلى المدن، مما جعل ابن الصحراء لا يعرف طريقه إلى الكسب إلا في حالات معينة، وبعضها رغم بريق مظهره، فهو لا يخرج عن الاستجداء، مثل الجلوس عند أبواب الخلفاء، وعمالهم، وكبار القوم، ومدح هذا واجتلاب عطفه، أو هجاء هذا، واستنهاض

خوفه وفزعه.

والهجرة أيضاً بين المدن، بعضها بعضاً، وضياع القادمين في مجتمعهم الجديد، كان من أسباب العوز، واللجوء إلى الاستجداء والسؤال. وكثرة الغلمان والجواري والعتق مما جعل كثيرين يصبحون كالسمك الذي نضب عنه الماء، لحقتهم شدة أحوجتهم إلى مد أيديهم إلى الناس. وتساق في هذا المجال قصص مؤلمة، وحوادث مروعة.

وسوف نسوق بعض القصص المختصرة في العدد والمؤدّى، لنعطي فكرة سريعة عن بعض ما دون في كتب التراث عن الشحاذين.

وهناك قصة تمثل ما ذكرناه من هجرة الأعراب إلى المدن، أو لجوئهم إلى الحضر، ولابد من التأني في قبول القصص عن الأعراب، لأنهم مادة دسمة للوضع من قبل الأدباء، الذين يجدون فيهم مشجباً قوياً يتحمل ما يعلق عليه كذباً وباطلاً؛ فهم عرضة لأن يكذب عليهم بأي فكرةٍ غباءٍ تطرأ في ذهن

الكاتب، فيها بريق متعة، أو جاذبية انتشار، لما يحمله الحضر للبدو من عدم المودة، والاعتقاد بأنهم سذج، بيئتهم لا تمدهم بالأفكار العميقة. وهم في الوقت نفسه عند بعض الكتاب، خاصة الذين من أصل عربي، عرضة لأن يلبسوا ثياب الذكاء والفطنة، في قصص تنحل في حقهم، لما يتوقع أن يكونوا عليه من صفاء ذهن، وبعد عن التكلف، وارتفاع عن التظاهر، وحب للصراحة، وعشق للحقيقة.

والقصة الآتية لا تبرأ مما أتهم به الأدباء، من الوضع، ومع هذا فقدتكون حقيقة:

هَلْ مِنْ فَتًى عِنْدَهُ خُفَّانِ يَحْمِلُنِي
عَلَيْهِمَا، إِنَّنِي شَيْخٌ عَلَى سَفَرِ
أَشْكُو إِلَى اللهِ أَهْوَالاً أُمَارِسُهَا
مِنَ الصُّدَاعِ، وَإِنِّي سَيِّءُ البَصَرِ
إِذَا سرَى ٱلقَوْمُ لَمْ أُبْصِرْ طَرِيْقَهُمُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُم ضَوْءٌ مَن القَمَرِ[1]

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٨.

تكاد هذه الأبيات تصرخ بأنها أقرب إلى أسلوب الحريري في المقامات، وأن الصوت الذي سمعناه فيها يستجدي هو أبو زيد السروجي، بحيلهِ، وتأويلاته؛ والأعراب أبعد الناس عن استجداء الحذاء والخف، ولعلهم لا يحتاجونه إلا في الشتاء، عند ما لا تطيق أقدامهم البرد، وكثيراً ما كانوا يلفون الخرق والصوف، يتقون بها صقعة الأرض، وبرودة الحصى والتراب.

وقد أحسن القاص، ومؤلف الشعر، في استعمال كلمة «يحملني عليهما» فهذه الاستعارة بارعة، وحقيقة بالأعراب، ولكن القفز من استجداء الخفين إلى الشكوى من الصداع والعمش، قفزة مفاجئة، ولا تليق بأعرابي، ولا بمستجدٍ، فهذه تحتاج إلى تمهيد؛ وهي بهذه الطريقة توحي كأن الخفين سوف تزيلان الصداع، وتقويان البصر!!

وأقرب للقبول في الصياغة الشعر الآتي، وقد روي عن الأصمعي، وقد تبين للأدباء أن الأصمعي

يهتم برواية الأمور الغريبة، والحوادث العجيبة، وهذا يدل على سعة اطلاع، ومخزون ثر، يختار للناس منه ما يجلب النظر، ويُصغي السمع، ويطرب القلب؛ ولكن ذلك لفت إليه نظر الأدباء اللاحقين، فرأوا فيه مشجباً قوياً، سهل التناول، يعلقون عليه ما يعن لهم من أفكار، تتوفر فيها الشروط التي عرفت عن روايات الأصمعي، واتصفت بها، فصاروا يعلقون عليه أفكارهم المعجبة، وآراءهم المبتدعة، وما يسمعونه ولا يدرون من قائله، أو نسوا القائل.

والقصة الآتية تُروَى عن الأصمعي، وفيها صورة معبرة عن أحد الأساليب التي كان يلجأ إليها المستجدون في ذلك الزمن، أو تخيل أن هذا يحدث، ولا يستبعد أن هنا مشجبان الأصمعي والأعرابي، وهما ركنان أساسان في هذه الرواية:

«قال الأصمعي: وقف أعرابي يسأل، فقال:

ألاَ فَتًى أَرْوَعُ ذَا جَمَالٍ
مِنْ عَرَبِ النَّاسِ أَوِ ٱلْمَوَالِي

يعِيْنُنِــي اليَــوْمَ عَلَــى عِيَــالِــي
قَــدْ كَثَّـرُوا هَمِّـي وَقَـلَّ مَـالِـي
وسَـاقَهُـم جَـدْبٌ وَسُـوءُ حَـالِ
قَــدْ مَللــتُ كَثْـرَةَ السُّــؤَالِ[1]

-[2] وتأتي «الشحاذة» بأسلوب لبق، يخفي بشاعة الاستجداء، ويغلف قبح السؤال، وهذا لا يتم إلا بثوب الشعر، أو أسلوب الأدب، وفي النص التالي مثل لهذا:

قال الشاعر:

وَإِنْ جِئْـتَ الأَمِيـرَ فَقُـلْ سَـلاَمٌ
عَلَيْــكَ وَرَحْمَــةُ اللهِ الــرَّحِيْـمِ
وأَمَّــا بَعْــدُ ذَاكَ فَلِــيْ غَـرِيْـمٌ
مِـنَ الأَعْـرَابِ قُبِّـحَ مِـنْ غَـرِيْـمِ
لَـهُ أَلْـفٌ عَلَـيَّ وَنِصْـفُ أَلْـفٍ
وَنِصْفُ النِّصْفِ فِيْ صَكٍّ قَدِيْمِ

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٦.
(٢) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

دَرَاهِـمُ مَـا انْتَفَعْـتُ بِهَـا وَلٰكِـنْ
وَصَلْتُ بِهَا شُيُوْخَ بَنِيْ تَمِيْمِ[1]

ومقابل هذه اللباقة حدد المبلغ الذي أراده، وفصّل باب احتياجه إليه، وأوحى أنه قصد كريماً، بدالة الكرم الذي أحوجه إلى طلب الرفد، لأنه هو أيضاً تكرم على شيوخ قبيلته، وأنه لم ينفق ما أنفق على نفسه، ولا تمتّع بالمال الذي يطلب الآن سداد دينه فيه. وقد رسم صورة جميلة، وهي في الحقيقة مسرحية، حمّلها طلبه، ويؤمل أن ينال بغيته، بعد هذا الجهد، وعقب هذا الاختيار اللبق في الأسلوب، والصورة الجميلة في المنهج.

والأسلوب الأدبي مقنع، خاصة إذا حمل في داخله ذوقاً في المخاطبة، وحسناً في الاقتراب من الهدف، مغلفاً هذا بأسلوب حضاري، مثل النص التالي، الذي لم يفرض صاحبه على من اتّجه إليهم طلبه، ولم يحدد شخصاً بعينه، يحرجه بسؤاله، وإنما جعل

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٠٤.

الطلب عاماً؛ وهذا يبدو أسلوب موفق، لأنه أقرب للقبول، وأولى بأن يدر الدِّرة، والنص جاء كمايلي:

«وقف سائل من الأعراب على الحسن، فقال:

رحم الله عبداً أعطى من سعة، وآسى من كفاف، وآثر من قلة». (1)

ويستثار التسول أحياناً، ويُحرك الشحاذُ إلى الاستجداء، مثلما فعلت امرأة، رأت طفلاً مليحاً، فقالت:

ما أملح هذا الطفل.

فقال: لأجل هذا أعطني تمرة.

وليس بعيداً عنه ما ورد في النص التالي من التراث:

«قال رجل لابن قثم:

كيف أصبحت؟

قال: إن كان من رأيك أن تسدّ خلتي، وتقضي ديني، وتكسو عورتي، خبرتك؛ وإلا فليس السائل

(1) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٠.

بأعجب من المجيب» . [1]

وهو موقف يستوقف المرء، لأن فيه اختلافاً عن المعتاد، فانتهاز فرصة السؤال لفتح ما سد من مخزون الطلب، جاء في صفة شرط على سؤال محدد، فجاء الجواب ضافيا، ولو استجيب للطلب لكان الأمر مكلفًا حقاً!

ويحتال سائل حيلة مركبة، ورغم انفضاح أمره إلا أنه يصر على إكمال الموقف بالطريق الموهم الذي اختاره في أول الأمر، فلم يخجل عندما كُشف أمره، وجُوبه بحقيقته، وما أبداه من ادعاء، وكذب، ولكنه وجد تسامحًا، أعطاه سؤله القليل، مقابل «النفخ» الكاذب، والقصة كمايلي:

«قال إبراهيم الحربي قال لي علي بن الجهم:

وجه لي المتوكل في حاجة له إلى بغداد، فلما كان يوم جمعة صليت في الصحن، فإذا سائل قد وقف يسأل ، فحدث أحاديث صحاحًا، وأنشد شعراً

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٢.

مستوياً، وتكلم بكلام حسن، فأخذ في قلوب الناس، ثم قال لهم:

يا قوم إني لم أوت من عجز، وإني افتتنت في علوم كثيرة، ولقد خرجت إلى الجعفري، إلى المتوكل، فحملت التراب على رأسي، فخرج يوماً المتوكل على حمار له، يدور في القصر، فطرحت التراب عن رأسي، وأنشدته القصيدة الفلانية (وأنشدها فجود إنشادها)، فأمر لي بعشرة آلاف درهم، فقال له علي بن الجهم: الساعة يفتتح عليك أهل الخلد، فلا يكفيك بيوت الأموال، فلم أعط شيئاً.

فلم يبق أحد إلا لعنني وذمني» فقلت للخادم: عليّ بالسائل.

فأتاني به، فقلت لشيوخ بالقرب مني:

من أنا؟

قالوا: أنت علي بن الجهم.

فقال السائل: ما تنكر من هذا؛ هات عشرة دراهم حتى أخرجك، وأدخل غيرك.

فأعطيته عشرة دراهم، وأخذت عليه ألا يَذْكرني» .[1]

هذا السائل الفصيح، المثقف ثقافة واسعة، الذي قد أخذ بلب السامعين، وأثبت في تصرفه، وفي تحايله، أنه ذكي، وسريع البديهة، وحاضر العقل، أفلم يكن له أن يستفيد من هذه النعم في عمل يدر عليه مالاً شريفاً. إن الموقف لم يهزه فيه خجل عندما انكشف أمره، لأنه وطد نفسه على قل الحياء، وعدم الاهتمام بما يراه فيه الناس، وقد ركز همه على الكسب وحده، وجعله هدفه، ولم يعبأ بغيره، مما يأتي عرضاً.

ومما يؤكد أن لدى المستجدين عقولاً ذكية في بعض الأحيان، وتطل برأسها فجأة، فتدهش من لم يكن يتوقع منها ذلك، القصة التالية، وهي هذه المرة عن أعرابية، وليست عن أعرابي:

«قال الأصمعي:

رأيت أعرابية، ذات جمال رائع، تسأل بمنى.

---

(١) تاريخ بغداد: ١١/ ٣٦٧.

فقلت: يا أمة الله، تسألين، ولك هذا الجمال؟
قالت: قدر الله، فما أصنع؟
قلت: فمن أين معاشكم؟
قالت: هذا الحاج نتقممهم، ونغسل ثيابهم.
فقلت: فإذا ذهب الحاج، فمن أين؟
فنظرت إليّ، وقالت:
يا صلب الجبين! لو كنا إنما نعيش من حيث نعلم لما عشنا». [1]

والحيل في الاستجداء لا تقتصر على الشحاذين المحترفين لهذه المهنة، المنقطعين لها، بل تتعدى إلى كل محتاج انقطعت به السبل، وقد تفتق ذهن أحد هؤلاء بحيلة عندما عضه الدهر بنابه، وأحوجه إلى ركوب الصعب في الحصول على مال؛ ورغم أن حيلته اكتشفت إلا أن حظه كان أقوى من حيلته، فوصل إلى هدفه لما وضع الله في قلب العنصر الأساس في الأمر الرحمة والإعجاب، فجاد بالمراد:

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٥٢.

«قال أبو هفّان: كنت أنزل في جوار المعلّى بن أيوب، وكان ابن أبي طاهر قد نزل عندي، وكنا على ضيقة شديدة، فقلت لابن أبي طاهر:

هل لك في شيء لا بأس به؟ نجيء حتى أسجيك، وأمضي إلى منزل المعلّى، وأعلمه أن رفيقاً لي توفي، وآخذ ثمن الكفن، فنتسع به أياماً إلى أن يصنع الله.

فقال: أَفْعَلُ.

وكان المعلّى قد أقام وكيلاً، يكفّن كل من مات، ولم يخلف ما يكفّن، ثلاثة دنانير.

قال أبو هفان:

فصرت إلى منزل المعلّى، وأعلمتهم ذلك؛ فجاء الوكيل، ليعرف حقيقة الخبر، ولما دخل منزلي، وكشف عن وجه ابن أبي طاهر، استراب به، فنقر أنفه، فضرط.

فالتفت إليّ وقال:

ما هذا؟

فقلت: هذه بقية روحه كرهت نكهته، فخرجت

من استه!

فضحك حتى استلقى، ودفع لي ثلاثة دنانير، وقال: أنتم ظرفاء مُجّان، فاصرفوها فيما تحتاجونه». [1]

وكلمة تأتي في مكانها تؤثر التأثير المؤمل، ويتبين ذلك في القصة الآتية:

«كتب رجل إلى طاهر رقعة يسأله فيها، فوقع له عليها:

«ما شاء الله كان».

فوقع الرجل في أسفلها.

«إن الله شاء المعروف».

فلما قرأها طاهر وصله». [2]

والرجل من ذكائه استقى كلمته من قوله الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. [3]

والعطاء إحسان ومنّ، وهو المعروف الذي قصده الرجل.

---

(١) البصائر: ١/ ٢٧.

(٢) البصائر: ١/ ٢٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

المعايبة والمعايير[1]

الاسم هو العَلَم على الإنْسان، به يعرف، وبه ينادى، وبه يُثاب، وبه يجازى، وبه يقاضِي، وبه يقاضَى؛ إن أراد البيع احتاجه، وإن أرادَ الشراء، وتوثيقه، لابد له من ذكره وبيانه، وإن أراد الزواج جاء الاسم في المقدمة؛ والخاطب يأتي وقِبلته الاسم، لا غنى عنه، فالمرء بدونه ظل، والإنسان من غير اسمٍ عَلَمٍ يدل عليه ضائع.

وجاء الاسم لهذا متسماً بسمات مختلفة، فله سمة في نغمته ووقعه، وله سمة في مدلوله ومعناه، وله سمة في المصدر الذي استُقي منه، وله سمة من الهدف الذي أريد له، وله سمة في مناسبته لما قصد له.

فبعض المجتمعات تعمد للرجل، فتعطيه اسماً خشناً، أو دالاً على خشن، ولهذا استعارت أمم مختلفة، ومتباعدة، اسم الأسد، والنمر، والدب،

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥١٤) في ٢٨/ ١٢/ ١٤١٥هـ الموافق: ٢٧/ ٥/ ١٩٩٥م.

والضبع، والسبع، والوحش، وبعضها اختارت للبنت اسماً ناعمًا، أو جميلاً، فالريم، والزهرة، والوردة، والنسمة، وضوء القمر، وما إليها أسماء لبناتها.

وبعض الأمم أخذت أسماء أفرادها من محيطها، فانعكس هذا على ما فوق الأرض، وما في البحر، فَبَحْرٌ، وجبل، وأسماء الشجر، والأسماك والأمواج، أمور أهدت نفسها لعائلة المولود، سِلالاً من المجموعات للاختيار والانتقاء، واتسمت أسماء هذا المجتمع بهذه السمة.

وأمم عانت الحروب، وقاست ويلاتها، جاءها الوحي للأسماء من مواقعها، وأسماء الأسلحة، والخيل، وأراضي القتال، وكأنها تريد أن ترهب عدوها بالاسم قبل المعركة، فجهاد، وحرب، وسيف، وسهم، وما إلى ذلك أسماء أطرب أصحابها مناداتهم بها، وسرهم أن يمثلوا رغبة مواطنيهم بالتسمي بها.

ويبدو أن التقدم الحضاري في بعض المجتمعات رأى أن الاسم لا يكفي، لأنه لا يمثل إلا الحقيقة، وهم يريدون أن يكون في المناداة بعض التزويق، أو بعض الطعم الخاص الذي يستجيب لشيء تطرب له نفوسهم، فزوق بعضٌ القول، وشوّه قومٌ القول، ووجد هؤلاء متعة، ووجد أولئك مثلها، وكل في فلك يسبحون!

أما الذين زوقوا فهدفوا إلى أن يسروا أصحاب الأسماء، فأعطوهم كنى، أختاروها مما اختاره أصحاب الأسماء، وارتضوه، فإذا ارتضى رجل اسمه علي اسمَ حسن لابنه، نادوه بكنيته: أبا حسن، وإذا سمى علي ابنه حسنا، سموا الابن: أبا علي؛ وعبدالعزيز: أبا سعود، وهكذا كل أب يكنى بابنه، وإذا أرادوا ملاطفته قبل أن يكون له ابن، نادوه بأبيه، وكنوه به، أو بابنته إن كان له إبنة.

والمناداة بالكنية من الكبير للصغير عطف، ومودة، ومن الصغير للكبير احترام، وتقدير، ومن

الأخ لأخيه إزالة للكلفة، ورفع لدرجة الأخاء، وهي من الأمور التي تفتح أبواب القلب، وقد وضعت من قبل بعض الحكماء، ثالثة الأثافي، ومعها البدء بالسلام، والإفساح في المكان، ولاشك أن هذا القول صحيح، ومؤكد بالتجربة، والتجربة متكررة.

أما الذين يشوهون الاسم والمناداة، فيختارون عيباً يكرهه المنادى به، إما يأخذونه من صفة جسمية كالعرج، والعمى، وفقد إحدى العينين، أو إحدى اليدين؛ وقد ينادونه به، أو يصفونه به في غيابه، وبه يميزونه عن آخر يحمل اسمه نفسه، فيزيلون بذلك الحيرة، فأحمد بن علي قد يشارك في اسمه من قبل شخص آخر، فيفرق بين اسميها بأن يضاف إلى أحدهما «الأعرج»، أو «الأعضب، أو الأخنف، أو الاكتع، أو الأحدب».

وقد يقبل إنسان أن ينادى بهذا الاسم المؤلم، استسلامًا وتعوداً، وقد لا يقبله، ويرفضه، في حدود طاقته، وقد تصل هذه الطاقة إلى القتال أو الكيد،

أو مقابلة هذه «المعيارة» كما يعبر عنها أهل نجد، أو «المعايبة» كما يعبر عنها أهل الحجاز، بمعيارة ومعايبة مثلها، يختارها، ويلصقها به، وقد تموت في مهدها، وقد تنتشر إنتشار النار في الهشيم، لأن عند أفراد المجتمع استعدادًا لتلقيها ونشرها، رغبة في إيذاء صاحبها، لأذى سابق منه لهم، كأن يكون سليط اللسان، فإذا نادى شخصاً باسم معايبة، فقد يرد عليه بقوله: يا أبا شفرة، إشارة إلى سلاطة لسانه، وهكذا.

وقد تكون المعايرة أو المعايبة متصلة بالمهنة، وهذه أحياناً تكون مقبولة، بل تكون سارة، ففلان التاجر، وفلان الصايغ، وفلان الصانع، وفلان الخراز، وفلان الطباخ، وفلان الجمال، وفلان السائق، وفلان الثمار، مهن شريفة، لا يستعيب ممتهنها أن ينادَى بها، ولا تكاد تدخل في المعايبة، إلا إذا حملها المنادي نغمة التحقير.

والمعيارة أو المعايبة ليست وقفاً على جيل دون

جيل، أو عمرٍ عن عمر، أو بلد عن بلد؛ فهي عند هؤلاء وهؤلاء، وفي هذه وفي تلك، وكثير منها في نجد يبدأ من الصغر، تولد المعيارة أثناء اللعب في الأسواق والحارات، وتأتي نتيجة استحسان اسم له نغمة جميلة، وموسيقى طربة، يلقي الأطفال يدهم عليها، ويتمسكون بها، ومن كثرة تكرارها، والإقبال عليها، يكاد ينسى الاسم الأصل، لأنه ينزوي في الظل، حيياً خجلاً، بجانب تلك الأَمَةِ التي احتلت القلب، وسيطرت على الذهن، ويكاد لا يكون هناك، في بعض مدن نجد، طفل لم يعلق عليه معيارة، تصمه بأمر من الأمور؛ ويكفي زلة لسان من أحدهم، تقلب فيها حروف الكلمة، يطبق السامعون الصغار أيديهم عليها، ولا يطبقون شفاههم إلا بالنطق بها، وعلكها ومضغها، والتلذذ بذلك. فلو طلب أحدهم من الفريق أن يلعب، وبدلاً من أن يقول: «ألعبوا» قال خطأ: «إبلعوا» يسمى «إبلعوا»، ولو قال: «صلوا»، وأخطأ فقال:

«لصوا» لسمي: «لصوا». وفلان «سارية المسجد» لأن والده يصحبه للصلاة مبكراً، ولا يتركه يذهب ليلعب إلا في وقت متأخر، وفلان «ظلال الحمير» لكثرة البحث عنها أوقات القائلة وركوبها، وفلان «علة الرخوم» لأنه في يوم من الأيام جاء للصغار بكلمة الكبار، ووصْفِهم الزكمة بعلة الرخوم، فنقل قوله من محيط إلى محيط، ورأوا هذا منتقداً، فعلقوه عليه، وقرنوه به، جزاءًا له وعقاباً، وردعاً لأمثاله، لأنهم، دون أن يدروا، لا يريدون أن يخترق حقل صغرهم، بما للكبار، لأن زمن الكبر، والعقل، والرزانة، مقبل، ولكل وقت وقته، ولكل زمن حقه.

وهناك بَلَدان اثنان في نجد، يكاد كل إنسان فيهما له معيارة، حتى لتظن أنه سمي إياها عند ولادته، أو قبل أن يولد، ذكراً كان أو انثى؛ ولثبات المعايير في هذه البلدان افترقت العائلة بعد أجيال عن أصلها، واسمها فيه، إلى الأصل الجديد المبني على المعيارة،

وإني لأعرف شخصاً، جاءه خطاب من أحد المعمرين في عائلته، في بلده الأصل، ووضع الخطاب على مكتبه أسبوعين، وهو يراه، ويتعجب من وجوده على المكتب، ومَنْ صاحبه، ولم يخطر بباله أن الخطاب له، إلا بعد فترة، صحا من نوم عميق ليتذكر أنه المقصود، وأن الاسم الذي على ظرف الخطاب هو اسم عائلته في الأصل، وهكذا طغت الكنية المعيارة على الاسم الحقيقي، وعرف الفرع، وجهل الأصل.

وأكثر ما تكون المعايير في العائلات الكبيرة، التي تتكرر فيها الأسماء المتشابهة، مما يضطر الناس إلى تمييزها بالمعايير، سواء المعايير المزعجة، أو المعايير المعتمدة على المهنة، أو على الملك أو الحارة، فيقال: النجار، أو صاحب البستان الفلاني، أو ساكن الحي الفلاني. ولكن الميل دائمًا إلى المعيارة الجاهزة منذ الصغر.

وبعض الناس تكون له لازمة في حديثه، مثل كلمة «فهمت؟» يرددها عند الخطاب، أو كلمة

«سامع؟»، أو «شايف؟»، أو «وإلا لا؟»، أو «صحيح؟» أو «أنت معي؟»، أو «واخذ بالك؟» أو «هاه؟»، أو «كذا وإلا لا؟». وكل هذه جواهر للباحث عن المعيارة، يلتقطها سهلة، تهدي نفسها إليه، ولعل الذين يكون هذا مصدرهم لها يعذرون في إمساكهم بهذه المعيارة، لشدة إغرائها، وجناية صاحبها على نفسه؛ وهناك لازمة تصلح معيارة لكل إنسان تقريباً اليوم، يلحظها كل من جلس أمام التلفاز، أو استمع للمذياع، وهي كلمة: «في الحقيقة»، أو «الحقيقة»؛ هذه الكلمة تتردد دائماً على اللسان، عند البدء في الجواب على أي سؤال يلقى، ولكن وجودها على ألسنة الكثيرين، رغم أنها تلفت النظر، لا يجعلها تصلح في الحقيقة أن تكون معيارة، لأنك لا تدري لمن تعطيها، ومن هو الحظيظ الذي سيوصم بها، لأن كلاً يدعيها!!

وقد جاء هذا كله في ذهني عندما قرأت نصاً في التراث، سمي فيه شخص بمعيارة، أخذت من

المكان الذي كان يعيش فيه، والنص هكذا:

«خالد عينين، وإنما قيل له خالد عينين، لأنه كان ينزل أرضاً بالبحرين، يقال لها عينين». [1]

ومن الجدير بالذكر أن مدينة الجبيل على ساحل الخليج العربي، كانت تسمى: «أبو عينين»، وكان هو اسمها المعروف عند الناس في زمن آبائنا، وبقي الاسم حياً إلى وقت قريب، ويقال: إنها سميت بذلك لوجود عينين بها، وقد تكون المقصودة في النص.

ومن الكنى الممتدحة، وإن كانت جاءت عن طريق يماثل طريق المعايير، أو المعايبات، إلا أن الاسم صادف أن يكون متصلاً بما يحمد، ومقتبساً مما يشرف صاحبه؛ على أن كثيراً مما يكون سمي به الشخص، مما يوحي بعيب، أو أمر غير محمود، ينسى مع الزمن، فيأتي الأحفاد، فيلمسون له تعليلاً جميلاً، فمن سمي بفم البئر، لشرهِ، أو سعة فمه،

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٩٦.

قد ينسى السبب مع مر السنين، وتتابع الأجيال، فيأتي سبط، أو حفيد، ويدعي أنه سمي بهذا، لأنه كان يخدم قومه، ويسقيهم، فهو المخاطر في الوقوف على رأس البئر، ونرجو ألا يكون النص الآتي من هذا القبيل، وأن يكون تعليل الحفيد صحيحاً واقعاً:

«أخبرنا التنوخي قال:

سمعت أبا الفرج محمد بن جعفر بن الحسن بن سليمان بن علي بن صالح صاحب المصلى، وسأله أبي عن سبب تسمية جده بصاحب المصلى فقال:

إن صالحاً، جدَّنا كان ممن جاء مع أبي مسلم إلى السفاح، وكان من أولاد ملوك خراسان، من أهل بلخ؛ فلما أراد المنصور إنفاذ أبي مسلم لحرب عبدالله بن علي سأله أن يخلفه وجماعة من أولاد ملوك خراسان بحضرته، منهم الخَرْس، وشبيب بن واج، وغيرهم، فخلفهم واستخدمهم المنصور.

فلما أنفذ أبو مسلم خزائن عبدالله بن علي، على يد يقطين بن موسى، عرضها المنصور على صالح

والخرس وشبيب، وغيرهم، ممن كان اجتذبهم من جنبة أبي مسلم، واستخلصهم لنفسه، وقال:

«من أراد من هذه شيئًا جليلاً، فاختار صالح حصيراً للصلاة، من عمل مضر، ذكر أنه كان في خزائن بني أمية، وأنهم ذكروا أنه كان للنبي ﷺ فقال له المنصور:

إن هذا لا يصلح أن يكون إلا في خزائن الخلف.

فقال: قلت إنك قد وهبت لكل إنسان ما اختاره ولست أختار إلا هذا.

فقال: خذه، على شرط أن تحمله في الأعياد والجمع، فتفرشه لي حتى أصلي عليه.

فقال: نعم.

فكان المنصور، إذا أراد الركوب إلى المصلى أو الجمعة أعلم صالحاً، فانفذ صالح الحصير، ففرشه له، فإذا صلى عليه، أمر به، فحمل إلى داره. فسمي لهذا: صاحب المصلى.

ولم يزل الحصير عندنا إلى أن انتهى إلى سليمان جدي، وكان يخرجه، كما كان أبوه وجده يخرجانه للخلفاء. فلما مات سليمان في أيام المعتصم، ارتجع المعتصم الحصير، وأخذه إلى خزانته». [1]

وفي تاريخ بغداد هذا نجد الكنى، والمعايبات والمعايير، كثيرة، تلحق باسم من ترجم له الخطيب البغدادي في كتابه، هذا، ومن أمثال ذلك: «الأعرج» و «السمسار» في ترجمة: علي بن صالح بن جعفر [١١/ ٤٣٩]، وعلي بن الصباح، ويعرف بابن عمارة [١١/ ٤٤٠]، وابن الضحاك في ترجمة: علي بن الصباح [١١/ ٤٤٠]، والألحي، من أهل جرجان، نسبة إلى عظم اللحية [١١/ ٤٤٢]، وواصل الحداد [١١/ ٣]، والبصلاني [١١/ ٧]، والمقرئ [١١/ ٨]، والبزار [١١/ ٩]، والوراق [١١/ ٩]، واللؤلئي [١١/ ٩]، والببغاء [١١/ ١١]، والمقبري [١١/ ١١]، وزوج الحرة[١١/ ١٣]، والحذّاء، [١١/ ١٦]، وابن الرومي

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٤٣٨.

[١١/ ١٧]، وابن المخبزي [١١/ ٣٤]، والطسقي [١١/ ١٤]، والطحان [١١/ ٩٠]، وابن الطباع [١١/ ٦٢]، والمستعطف [١١/ ١٦٧]، والطيالسي الملقب رغاث [١١/ ١٧٠]، والمروزي المعروف بالطهماني [١١/ ١٧٠]، والمدائني المعروف باترجه [١١/ ١٧٢]، وإبراهيم الحافظ المعروف بأبي الآذان [١١/ ٢١٥]، وخالد بن يزيد الشفيري [١١/ ١٩]، والكاغدي [١١/ ٢٢٠]، والتستري [١١/ ٢٢٣]، والصابوني [١١/ ٢٢٦]، وابن علك المرزوي [١١/ ٢٢٧]، والزعفراني [١١/ ٢٢٨]، وابن الفحام [١١/ ٢٣٩]، وابن شق القصباني [١١/ ٢٥١]، وابن الدلو [١١/ ٢٧٥]، والضايع [١١/ ٢٩١]، وأبي الدنيا [١١/ ٢٩٧]، وأبو الآذان [١١/ ٢٩٩]، والنعالي [١١/ ٤٠١].

هذه نماذج من الدمغات التي كان يدمغ بها بعض الأشخاص، والعلامات التي توضع على أشخاصهم، لتدل عليهم، وتعرف بهم، وتميزهم عمن يماثلونهم

في الاسم، وقد يشاركونهم السكنى، أو الصنف من العلم، أو النوع من المهنة؛ وبعضها لابد أنه لم يكن مقبولاً من المسمين به، وبعضها مقبول، وقد يكون على مضض.

وهذه النماذج أخذت من كتاب واحد، ومن جزء واحد من تسعة عشر جزءاً، فكيف لو تتبعنا أمثالها في الكتب الأخرى، وأحصيناها؛ فحينئذ تكون حصيلة يأتي منها دراسة مفيدة، خاصة إذا ألحقنا بها ما سجل عن أناس في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وقرن بذلك سبب التسمية، سواء كان متفقاً عليه، أو مختلفاً عليه، وسواء كان بصيغة واحدة، أو بصيغ مختلفة.

والتراث مليء بالأمور التي عند قراءتها توحي ببعض الدراسات التي لو نفذت، لجاء منها فائدة كبرى، ولتبينت بعض الطرائف ضمن ذلك.

ـ[1] وتأخذ المعيارة صورة ذات أبعاد، وتصبح

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

كالمثل، يضرب بها للإفصاح، وتجري للإيضاح، يساعد على ذلك، ويقربه للأذهان، تمهيداً للاستشهاد، معرفَةُ أصلها، والذي ركبت عليه، كما في القصة الآتية:

«يقول يحيى بن أبي طالب:

كنا في مجلس يزيد ـ يعني ابن هارون ـ فألحوا عليه من كل جانب يسألونه عن شيء، وهو ساكت لا يجيب، حتى إذا سكتوا قال يزيد:

«إنا واسطيون».

يعني ما قيل: «تغافل كأنك واسطي».

قرأت على الجوهري عن أبي عبيدالله المرزباني قال:

أخبرني الصولي قال:

كنا يوماً عند أبي العباس المبرد، فقال له غلام لإسماعيل القاضي:

كلمت فلاناً، فتغافل واسطية.

فسئل أبو العباس عن هذا فقال:

كتب الحجاج إلى عبدالملك: «إني قد بنيت مدينة

على كرش دجلة».

فكان يصاح بالواحد منهم: ياكرش، فيتغافل، ويقول:

أنا واسطي، ولست بكرش، ثم أنشدنا الفضل الرقاشي:

تـركـت عبـادتي، ونسيـت ربي
وقـدمـا كنـت بي بـرّاً رحيمـاً[1]
فما هذا التغافل يا ابن عيسى
أظنك صرت بعدي واسطياً»[2]

ولم يكتف بإشاعة هذه المعايبة، التي جفل منها من ألصقت بهم، وإنما دخلت الشعر، فصيغت فيه، ليكون التعبير أبلغ، والقول أكثر تأثيراً.

وعن طريق «المعيارة» يحاول شاعر، وغيره، أن يكسفوا شمس أحد البارزين في مجتمعه في عصره، فأبو علي بن الحسن بن علي بن الفضل، أبو منصور،

---

(١) لعلها حفيًا ولعل «عبادتي» «عيادتي».
(٢) تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٤٥.

الكاتب، عرف بلقب سيّء، جدًا، وهو «صُرَّبَعَرَ» أي أعقد في خريطة أو منديل، بعراً، والبعر ـ كما هو معروف ـ رجيع البعير؛ هذا وهناك تفسير أكثر إقداعاً، نرجو ألا يكون المقصود.

وأبو علي بن الحسن هذا يقول عنه صاحب كتاب «ذيل تاريخ بغداد» الملقب بابن النجار:

«كان من فحول الشعراء، ذا جزالة، وفصاحة، ورقة، وسلاسة، وكانت له معرفة تامة بالأدب». [1]

وقد عَرَفَ له هذه السمعة، وأَقَرَّ له بهذا الفضل، وقَبِل له هذا التميز، رجل ذو مركز خطير، ومقام مرموق، فقال عنه ما يليق به، وما هو أهل له؛ والقول كمايلي:

«كان نظام الملك يقول لأبي منصور بن الفضل:
«أنت ابن صردر، لا ابن صربعر». [2]

ولابد أن من ألصق بأبيه هذه المعيارة، ألصقها

(١) ذيل تاريخ بغداد: ٣/ ٢٨١.
(٢) ذيل تاريخ بغداد: ٣/ ٢٨٢.

بسبب ما، في وقت ما، حتى شاعت بين الناس، وذاعت في مجتمعهم، فوجد قوم أنها لا تليق بالابن، فحاولوا أن يمحو ظلامها بنور لقب آخر، كما فعل نظام الملك، ولكن آخرين حاولوا أن يزيدوها ثباتاً، وأن يؤكدوها في أذهان الناس، وأن يضاعفوا وقعها، بمضاعفة مدلولها، حتى تشمل الأب والابن، بصورة بشعة، زاد من خطورتها أنها جاءت في شعر، ولابد أن قائل البيتين الآتيين كان حانقاً على أبي منصور لسبب ما، حتى قدح فِكْرُهُ هذه الفكرة الحارقة.

«وقد هجاه الشريف أبو حفص بن البياضي ببيتين، ظلمه وما أنصفه:

لَئِنْ أَبْرَزَ النَّاسُ قِدْمًا أَبَاكَ
فسَمَّوْهُ مِنْ شُحِّهِ صُرَّبَعْرَا
فَإِنَّكَ تَنْثُرُ مَا صَرَّهُ
عقُوقاً لَهُ، وَتُسَمِّيهِ شِعْرَا»(1)

---

(1) ذيل تاريخ بغداد: ٣/ ٢٨٢.

هذه لمحة سريعة عن المعايير أو المعايبات، أو الكنى المشينة، والألقاب المنتقدة، مررنا مر الكرام على بعض صورها في بعض المجتمعات، وعلى ما نظن أنه قد يكون سببها، وكيف صار لها مقامها في المجتمع، وقبلت، ولم يعد بالامكان التخلص منها، ولعلها ليست وقفاً على المجتمعات العربية، ولكنها مشاعة في المجتمعات الإنسانية، لطبيعتها ومراميها، وما تؤديه من أغراض.

***

الصاع صاعان[1]

الجدل يثور بين اثنين، يحاول كل منهما أن يغلب الآخر، وأن يكون هو صاحب القول القاطع، ومنه الحجة الدامغة، وعلى هذا يطول الجدل، وقد يقصر بضربة قاضية، مثلما يحدث من المتلاكمين، وما يأتي من أحدهما من مفاجأة، تفغر لها أفواه المتفرجين، ويختفي حظ أحد المتلاكمين.

إذا غلب أحدهما الآخر قالوا: كال له الصاع صاعين، أي أعطاه ضعف ما جاءه منه؛ وهذا يأتي أحياناً من عدم توقي المهاجم للضربة تأتيه وهو غافل عنها، ومنشغل بقذيفة الهجوم التي يعدها، فلم يترك في ذهنه حيزاً يفكر في غير ما كان يفكر فيه؛ وهذا يأتي من تهاون المهاجم فيمن يهاجم، وثقته بنفسه أكثر مما يجب.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٢١) في ٥/ ١/ ١٤١٦هـ الموافق: ٣/ ٦/ ١٩٩٥م.

والضربة القاضية تأتي أحياناً إلى ضعيف يظن نفسه قوياً، ويغير بالقول على من هو أقوى، فيصحو من نومه عندما تنزل إليه من خصمه صاعقة مجلجلة، تفقده توازنه، وتعطيه درسًا يفيده في باقي حياته، إن كان من ذوي الإحساس، وإلا كان ذلك بدءًا لسلسلة من الصواعق، سوف يتلو بعضها بعضًا، في النزول عليه.

وقد يأتي القول الأول من رجل رفيع المقام إلى رجل من عامة الناس، أملاً من الأول أن يساعده مقامه في أن يغلب الآخر، فيفاجأ بأن المنصب خذله، إذ لم يستفد من عقله، ونصر العقل خصمه، لأن الله مع المعتدى عليه؛ وإذا صح أن المهاجم يختار سلاحه، لأن عنده الوقت لذلك، فإن الآخر لا يكون عنده وقت للخيار، فيضع يده على أي سلاح يردّ به غلواء الهجوم، وقد يختار سلاحًا أكبر مما يحتاجه الموقف دون وعي منه، فيدفع خصمه دفعة لا يستطيع تفاديها؛ وكم من مهاجم تمنى أن لم يهاجم، ومبتدئ

تمنى أنه لم يبدأ، وكسب العافية بالوقوف على بر الأمان.

والأدب العربي، وتاريخه، يزخر بالأمثلة المعبرة عن هذه الأفكار، وفي بعضها من الحق، والطرافة أحياناً ما جعلها تبلي الزمن ولا تبلى، وتخترق العصور، وتصل إلينا دون أن يبهت لونها، أو تضمحل أصباغها؛ وكانت في يوم من الأيام من أصدق أصدقاء المؤلفين، والوراقين، ومقتني الكتب.

ومن القصص الطريفة في هذا القصة الآتية:

«قال شداد الحارثي، ويكنى أبا عبدالله:

قلت لأمه سوداء بالبادية:

لمن أنت يا سوداء؟

قالت: لسيد الحضر، يا أصلع.

قال: قلت لها: أولست سوداء؟

قالت: أولست بأصلع؟

قلت: ما أغضبك من الحق؟

قالت: الحق أغضبك. لا تسب حتى ترهب،

ولأن تتركه أمثل». [1]

إنها قصة جميلة معبرة، وموقف طريف، يصلح أن يكون جدلاً على مسرح، أمامه جمهور، يلهب يده بالتصفيق لهذه الجارية العاقل، ذات الذهن الصافي، والمنطق الحق؛ فلقد كالت الصاع صاعين لشداد؛ وذكّرته بما نسيه؛ فقد شغله عن صلعته تفكيره في سباب الجارية، بتذكيره إياها بسوادها، فسرعان ما التفتت إليه مجيبة على سؤاله، ومذكرة له بأن فيه ما يعاب، مثلما وجد أن فيها ما يعاب، وتعير به؛ ولقد نبهته أن الحق آلمه وأغضبه، وأنه ليس كل حقيقة، يؤتى بها مجرّدة، دون داعٍ لها، تُقبل، أو يُرحب بها، ودللت له على ذلك بما انتابه لَمّا قيل له: يا أصلع. ومع هذا فَيُمتدح شداد على روايته لهذه القصة، فلم يخفها رغم أن اليد الطولى فيها للجارية، وقد كيل له فيها الصاع صاعين!

والجواري كثيراً ما ينظر إلى عقولهن باحتقار

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧١.

ظلمًا، وعدوانًا، وكذلك الغلمان، فيأتي من بينهم من يفاجئ مستغبيه، ويدهش مستحقره؛ وسيطرة الفكرة على بعض الناس، واستيلاؤها عليه، تنسيه الحذر، أو التنبه للكمين الذي قد يكون متربصًا، فيفاجأ به، وينقلب المكسب إلى خسارة، أو الأمل إلى خيبة فيه، والقصة التالية فيها بعض هذا:

«رأى مُزَبد خاتمًا من ذهب في يد جارية، فقال لها:

ناوليني خاتمك أذكرك به.

قالت: هذا ذهب، وأخشى أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فعسى أن تعود».[1]

لقد كان الرد رصينا، مبنيا على لمحة أدبية، وذوق سليم، غلبت الجارية فيه هذا الساذج الطماع، وألجمته بلجام من ليف، وكالت له الصاع صاعين.

وعندما يتعود شخص قولاً يردده في مهنته، هيأه لكل حالة تمر عليه مماثلة للحالة التي فصّله عليها،

(١) البصائر: ٣/ ١٦١.

وألبسه إياها، فحمده، وحمد ترداده، والاستفادة منه، فهو يأتي لنجدته في أي وقت احتاجه، ولكنه قد يفاجأ بأن هذا القول الذي توهم أن أساسه متين، هو في الحقيقة واهٍ، ولا يمكن الاعتماد عليه، ويأتيه الإفهام من أبعد الناس إليه، ويصله التأكيد من أبعد من يتوقع أن يفيده، والقصة التالية تبين ذلك:

«شهد رجل عند سوار فقال له:

ما صناعتك؟

قال: مؤدب.

قال: فإنّا لا نجيز شهادتك.

قال: ولِمَ؟

قال: لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجرة.

قال: وأنت، تأخذ على القضاء بين المسلمين أجرة.

قال: إني أكرهت على القضاء.

قال: أفأكرهت على أخذ الرزق؟

قال: هلمّ شهادتك، وأجازها». [1]

---

(١) البصائر: ٣/ ١٨٣.

سوار قد وضع في ذهنه قاعدة، وهي من أخذ على تعليم القرآن أجراً، تدنت مروءته، وسقطت منزلته، وعلى هذا فلا تقبل شهادته، وسار على هذا النهج في كل مرة يتقدم عنده مدرس صبيان؛ ولكنه فوجئ بما أذهله، وجاءه باقعة، بحجة جعلته يتخلى عن مبدأ سار عليه زمنا، وارتاح له فترة. ويصح أن نقول إن هذا الشاهد، بعد أن كال له سوار صاعاً، رده له صاعين.

وفي حال مقاربة لهذه يحج شاهد قاضيا، ويأخذه على غرة، وهو مطمئن إلى التوقي الذي لجأ إليه، وتعود عليه، مع المتقاضين، وشهودهم؛ فجاءته المفاجأة مباغتة، فاضطرب وضعه؛ ولم يدركه إلا تسليمه بالحق، وخضوعه له؛ ومع هذا فلا نستبعد الوضع في هذه القصة، مثل سابقتها، لأن القضاة هدف للحنق والغضب من أحد المتقاضين، لأنه لا يتوقع أن يرضى المحكوم عليه؛ وفي كل قضية، تعرض على قاض، لابد من محكوم له ومحكوم عليه؛ والمحكوم

عليهم يسعدهم أن يضعوا القصص على القضاة، انتقامًا منهم، واقتصاصا لما يعتقدون أنه من حقهم، وحرموهم منه؛ ولهذا على القاضي واجب كبير في أن يتحرى العدل، حتى لا يكثر الساخطون، فتختل سمعة القضاء؛ أما إذا ساد العدل فلا يسمع الناس للساخط، ولا يبالون بالغاضب، وهم عليه لا معه، وقادرون على إضاعة صوته، ودحض حجته، مما يضطر معه إلى الانزواء، واجترار غيظه صامتاً هادئاً.

والقصة كما يلي:

«شهد قوم عند ابن شبرمة على قراح فيه نخل، فسألهم:

كم في القراح من نخل؟

قالوا: لا نعلم.

فردّ شهادتهم.

فقال له رجل منهم: أنت تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، فكم فيه من اسطوانة.

فأجازهم». [1]

لقد فوجئ ابن شبرمة بهذا الاعتراض، فلم يخطر له على بال، ولكنه سرعان ما رأى الحجة قائمة عليه، فسلم أمره إلى الله، وأذعن للحق؛ ودخلت قصته التاريخ، سواء كانت واقعة حقاً، أو متخيلة.

والمحسنون ما عليهم من سبيل أن يعطوا إذا سئلوا أو يردوا، ولا حق لأحد أن يجادلهم؛ أو يحاسبهم؛ أو يعاتبهم؛ أو يؤنبهم؛ فالمالُ مالُهم، وليس لأحد حق عليهم فيه، إلا بشرع أو إقرار، ولكن بعض الناس لا يكفيه هذا، ولا يرضى أن يُرَدّ، فيغضب عندما لا يُعطى سؤله، وقد يدعو على المستجدى، لأنه لم يعطه، كما فعل أحدهم في القصة الآتية:

«كتب إبراهيم بن سَبَابه إلى صديق له، كثير المال، كثير الدخل، كثير النّاضّ (الدراهم والدنانير)، يستلف منه نفقة، فكتب إليه:

---

(١) البصائر: ٣/ ١٨٣.

العيال كثير، والدخل قليل، والدين ثقيل، والمال مكذوب عليه.

فكتب إليه إبراهيم:

إن كنت كاذباً، فجعلك الله صادقاً، وإن كنت مُليمًا، فجعلك الله معذوراً». [1]

هذه الملاحاة في الطلب، والمناكفة في السؤال، والإصرار على المتابعة، والملاحظة إن كانت تليق بابن الحاضرة، فابن البادية ترفع عنها، وتتبين عزته، وكرامته، وتصرفه الحسن في الموقف الآتي، إزاء من طلبهم، فلم يعطوه، وسألهم، فلم يجيبوه، فلم يعنفهم، ولم يدع عليهم، وإنما انصرف عنهم، ليصحح وضعًا، كان يجب أن يسلكه من قبل، ولكنه غفل عنه، ثم تنبه له، والقصة كالتالي:

«سأل أعرابي قومًا، فحرموه، فقال:

اللهم اشغلنا بذكرك، وأعذنا من سخطك، فقد ضن خلقك على خلقك برزقك، ولا تشغلنا بما

(١) البيان والتبيين: ١/ ٤٠٥.

عندهم عن طلب ما عندك» .[1]

جاء الأعرابي في لحظة حنق يغمز هؤلاء القوم المُسْتَجْدَيْن، بهدوء وعقل، وبيّن رأيه الذي قاده إلى سؤالهم، وهو أنه يعتقد أن عندهم رزقاً، الله أودعه عندهم أمانة، يعطون منها المحتاج، وهو محتاج، وكأنه يقول بلغة سائلي اليوم: «من مال الله يَا مُحْسِنِين»، أما وأنهم ضنوا بما معهم، وبخلوا بما في يديهم، فلم يروه أهلاً للعطاء، ولا مستحقًا لرفدهم ومساعدتهم، فليس أمامه إلا أن يسأل الله أن يغنيه بما عنده عما عندهم، ولا يحوجه إليهم؛ فلم يدع إليهم، ولم يستنزل سخط الله عليهم.

وقد تأتي ملاحظة من كبير، يراها في محلها، ويرى فيها من المداعبة ما يزيل الكلفة بينه وبين مجالسيه، ويشجعهم على أن يشعروا أنهم على مائدة كريم، ولكن الضيف يرى المجاراة في هذه المداعبة، والمساهمة في إزالة الكلفة، فيأتي الرد على الملاحظة كأنه كَيْلُ

---

(١) البصائر: ٣/ ١٦٥.

صاعين مقابل صاع واحد؛ فهذا معاوية يقف مع ضيف هذا الموقف، والقصة كما يلي:

«تغدى صعصعة بن صوحان عند معاوية يومًا، فتناول من بين يدي معاوية شيئًا، فقال:

يا ابن صوحان، لقد انتجعت من بعيد!

فقال: من أجدب انتجع». [1]

إذا لم تكن القصة متخيلة، فلعل معاوية أراد أن يهذب من طبع ابن صوحان البدوي، ليأكل، أدباً، مما يليه، فقال ما قال مازحًا، ومغلفًا لهدفه الأساس؛ فرد ابن صوحان من بيئته ردًا لائقًا بجملة معاوية السابقة.

ومعاوية من مكة المكرمة، ومكة بلد متحضر إذا قيس بصحراء الجزيرة وسكانها؛ وزاد من مدنيته ـ رضوان الله عليه ـ أنه عاش في الشام، وتطبع بطباع أهلها، في آداب الأكل، وعادات المائدة.

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٨١.

ـ[1] ولرغبته في بقاء مجالسة ابن صوحان له، رأى أن يهذب طباعه، حتى تتلاءم مع وضعه، في مجالسة السلطان، والأكل معه؛ ومعاوية عرف عنه تأديب من يدخل عليه، وتعليمهم أصول الدخول، وقوانين المجالسة، بعد أن تشربتها نفسه، وتأكد عنده نفعها.

والأدب من الملوك يأتي من أصوله، لما عندهم من تجربة، وحرص على سلامة دولهم، واستقامة مجتمعهم، ولهذا لا يستغرب أن يأتي منهم الرد مكالاً بصاعين للصاع الواحد؛ فجزالة ما في يدهم، وسعة ميدان تصرفهم، وعظم ما يأتون، يأتي معها صواب أقوالهم، وإصابتهم للهدف، وهذا الاسكندر يؤكد هذا في موقفه مع أحد المذنبين، وهو كما يلي:

«أحضر بين يدي الاسكندر لص، فأمر بصلبه، فقال:

أيها الملك، فعلت ما فعلت، وأنا كاره.

قال: وتصلب أيضاً وأنت للصلب كاره». [2]

(١) الجزء المضاف إلى ما كتب في «عكاظ» يبدأ من هنا.

(٢) البصائر: ٣/ ١٤٠.

ظن هذا اللص أن بإمكانه أن يبطل فعلاً بقول، وأن تقنع كلمة جوفاء ملكًا لا يدهده له بالألفاظ، ولا يثني عزمه بفكرة جوفاء عارضة؛ وهو الحريص على قطع دابر الفساد، وإعطاء مثل لما يلاقيه المذنب من الحزم، والتصميم على أخذ الحقوق، وإنفاذ الحدود.

وليبقى الصاعان في أذهان الناس، ويحرص صاحبهما أن يصوغهما في قالب شعري، لأن الشعر أقرب إلى التداول، وأسرع للانتشار، وأدوم في الأذهان، وأهيأ للاستشهاد، ولو كان كل صاحب رد مفحم يستطيع قول الشعر، لما اختار غيره، وما بحث عن وسيلة سواه؛ ولأن ثعلب يستطيع قول الشعر، فقد اختاره ردًا على المبرد، لقول بلغه عنه أثاره، وحرك كوامن غيظه، والشعر كالآتي:

«قال ثعلب، ردًا على ما بلغه من شتم المبرد له:

شَاتَمَنِيْ عَبْدُ بَنِي مَسْمَعٍ
فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ وَالعِرْضَا

وَلَـــمْ أَجِبْــهُ لِاحْتِقَــارِيْ لَــهُ
مَن ذَا يَعُضُّ الكَلْبَ إِنْ عَضَّا»[1]

أما الشعراء الفطاحل إذا دخل بعضهم معركة كلام ضد آخر، فإن الأمر يصبح مثل مقارعة فحول الإبل بعضها مع بعض، صدامها عنيف، ورغاؤها مخيف؛ لها جلبة وعويل؛ والخيل لها تطاحن وصهيل، تهرس من جاء بينها، وتقضي على من وقف في جادتها؛ إذا أرسل الشاعر السهم، فهو لا يرشق فردًا، ولكنه يشك في طعنة قبيلة بأكملها، وهذا يمثله ما حدث لِكُثيِّر مع الأخطل، عندما تحرش الأخطل به، فالتفت كثير له التفاتة، طلب الأخطل السلامة منها بالصمت، كما يبدو، إلا إذا كانت القصة مركبة لترجح كفة كثير على الأخطل، وفي اختراعها فخر قبيلة على قبيلة، ونصرة لمسلم على نصراني، والقصة تروى على الوجه الآتي:

«أنشد كثيّر عبدالملك، فقال للأخطل: كيف ترى؟

(١) البصـــائـر: ٦/ ١٩١.

فقال: حجازي مجوع مقرر، فدعني أضغمه لك.

فسأل عنه كثير، فقال له:

هلا ضغمت الذي يقول:

لاَ تَطْلُبَـنَّ خَـؤُولَـةً فِـيْ تَغْلِـبِ
فَـالكَلْـبُ أكَـرُم مِنْهـمُ أَخْـوَالاَ
وَالتَّغْلِبِـيّ إِذَا تَنَحْنَـحَ لِلْقِـرَى
حَـكَّ اسْتَـهُ، وَتَمثَّـلَ الأَمْثَـالاَ

فسكت فما أجابه بحرف». [1]

أراد الأخطل أن يكيل صاع ذم لكثير، فكال له كثير صاعين وافيين؛ إنه لم يهجه بهذين البيتين، وإنما اكتفى بالاستشهاد بهما، وكأنه يقول هذا نموذج لما عندي من ذم في تغلب، قبيلتك، ولدي المزيد، إن لم تصمت، وتطلب السلامة.

والشعر له فن السحر لطبيعته، ولما يحمله من تأثير، وسهولة في الحفظ والرواية، حتى يدخل من كثرة ذلك حيز المثل والحكمة. والشعراء أنفسهم

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٦٥.

أعرف الناس بذلك، وقد أبان أحدهم معنى في بيت شعر خفي على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه هجو، حتى نبهه شاعر، استفتاه، من باب استفتاء الخبير، بأنه هجو مقذع، وقد ظنه عمر سليمًا إن لم يكن مدحًا، والبيت:

دَعِ المَكَـارِمَ لاَ تَـرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا
وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

والهجو لنا اليوم ظاهر، بعد أن كشف الشاعر عن مبهمهِ، أما من يسمعه أول مرة، يظن أن الشاعر يقول: لا تبذل أسباب جلب المدح بالركض خلف ما يجلب لك الصيت والسمعة، فعندك منها ما يكفي؛ ألست مطعم الناس وكاسيهم، على أساس أن الطاعم الكاسي اسم فاعل، في حين أنه يقصد المُطعَم المكسُوّ!

ويأتي الشعر وسيلة صارخة صامتة، في تعضيد متجادلين، تكلما ولم يفصحا، وقالا ولم يبينا، ذلك أنهما ألمزا لما يريدان بالشعر المنبئ عن قصدهما، دون أن يبيحا به صراحة، وأشارا إلى قصدهما، دون أن

يعمدا إلى المشاتمة المفتوحة، المفضوحة؛ وهذا باب، يلعب الشعر دورًا في أن يكون وسيلة غير معتادة، لنقل أفكار، تجيش في صدور أصحابها، والنص هكذا:

«قال المدائني:

كان عرام بن شتير عند عمر بن هبيرة، فألقى إليه ابن هبيرة خاتمه، وفصه أخضر، فعقد عرام في الخاتم سيرًا.

أراد عمر قول الشاعر:

لَقَدْ زَرِقَتْ عَيْنُكَ يَابْنَ مُكَعْبَر
كَمَا كُلُّ ضَبِّيٍّ مِنَ اللُّؤْمِ أَزْرَقُ

وأراد عرام:

وَلاَ تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ
عَلَى قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بَأَسْيَارِ

ولو جاءك آت، قال لك: إنها منحولة، فصدقه، لأنها تقترب من عقول الأدباء، وطرح نتاج فكرهم،

لأنه إنْ سُهَل على عمر بن هبيرة، أن يكون في اصبعه خاتم، فصه أزرق، فلا يتأتى أن يكون لدى عُرام سير جاهز، وهو في المدينة لا في البادية، وبين يدي أمير، إلا إذا كان نَسَلِ سيراً من نعله، وهذا عمل مع تدنيه، لا يكون عملاً سهلاً. ولكن الفكرة طريفة، وتكشف عن مخزون أدبي في حافظة الأديب، ورغبة في ذم قبيلتين، ورمي عصفورين بحجر واحد؛ ولكن الأمر يدخل في حيز أن أحدهما كال للآخر صاعًا، فرد عليه بصاعين، بصرف النظر عن حدوث هذا، أو تخيله!

والحديث بالنثر، وفي الذهن شعر، كثيراً ما يرد على ألسنة الناس، ويطرأ على أذهانهم، وهي طريقة لها تأثيرها، إذ أن الإجابة النثرية الصريحة، التي يرد بها، لا يكون لها التأثير نفسه، وأحد الأمثلة على ذلك القول الآتي:

«دخل يونس بن حبيب المسجد، يهادي بين اثنين من الكبر، فقال له رجل، كان يتهمه على مودته:

بلغت ما أرى، يا أبا عبدالرحمن؟!

قال: هو ما ترى، فلا بلغتَه.

ونحوه قول الشاعر:

يا عائب الشيب لا بلغتَه». [1]

ويونس بن حبيب يبدو أنه جاء في ذهنه أيضًا بيت من قصيدة عوف بن محلم الخزاعي التي يمدح فيها عبدالله بن طاهر، وأولها:

يَـا ابْـنَ الَّـذِي دَانَ لَـهُ المَشْـرِقَـا
نِ، وَأَحْرَزَ الأَمْنَ بِهِ المَغْرِبَانِ

والبيت المقصود:

إِنَّ الثَّمَــانِيْنَ، وَبُلِّغْــــــتَها
قَدْ احْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

فهو يدعو إليه ألا يبلغه الله الثمانين عامًا، التي دعا الشاعر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبلغها عبدالله ابن طاهر.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٤.

ويأتي كيل الصاعين في القصة الآتية:

«مر شيخ من العرب بغلام، فقال له الغلام:
أحصدت، يا عماه!
فقال: يا بني، وتختضرون، (أي تموتون شبابا)»[1].

وقد كال الشيخ صاعه مرتين لقوة الرد، ويبدو أن كل جيل يرى أن الجيل الذي يليه أقل منه سيراً على الطبيعة، وأن في حياته خللاً، لم يكن في حياة الجيل الذي سبقه، وهذا إذا كان الجيل الماضي يُعَمَّر، حتى يستوي سنبله على ساقه، فالجيل الذي جاء بعده، يحصده الموت، وسنبله أخضر لم ينضج بعد، لخلل في طريقة المعيشة: يأتي من سوء التزود بالزاد، أو قلة النشاط، أو السير خلافًا لما تقتضيه طبيعة الحياة.

ويمتلئ الصاع مرتين، والغريب أن الذي يملؤه ابن لأبيه، ولكن الأب هو الذي بدأ الظلم، بأن كال لابنه الصاع هجومًا مراً، فحرك في ابنه روح الدفاع

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٨.

عنه، وعن أمه، والقصة تقول:

«قال الإسكندر لابنه:
يابن الحجّامة.
فقال: أما هي، فأحسنت التخير، وأما أنت، فلا» . [1]

وعلى هذه الجادة، وفي طريق مماثل، سار جدل بين أعرابي وابنه، وتتلون القصتان بلون البيئتين اللتين ولدتا فيهما، ففي مجتمع اليونان يعاب زواج علية القوم من الحجامات، أو بنات الحجامين، وفي صحراء العرب ينتقد من يتزوج بأمة:

«قال أعرابي لابنه؛ اسكت يا ابن الأمة!
فقال له: والله لهي أعذر منك حيث لم ترض إلا حرًا» . [2]

ونعود إلى الشعر، وجعله صاعًا يكال به، واتخاذه وسيلة للتعبير غير المباشر، والقول بالإشارة،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٤ .
(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٤ .

وما يثيره ذلك من رد قوي، والتفاتة سريعة، فيها ضربة قاضية.

على أن ما سنورده هو عن أحد أحفاد أبي موسى الأشعري، وأبو موسى، وأبناؤه، وأسباطه، تعرضوا لهجوم في الأدب من بعض الأمويين، أصبح من الواضح أن الوضع فيه بيّن؛ وكثرة ذلك تجعل المرء يعجب، كيف استمر الأدباء والكتاب يطاردون هذه العائلة بالأخبار الملفقة المبتكرة، مثل الخبر الآتي:

«عرض بلال بن أبي بردة الجند، فمرّ به نميري، ومعه رمح قصير، فقال له:

يا أخا نمير، أنت كما قيل:

لَعَمْـرُكَ مَـا رِمَـاحُ بَنِـي نُمَـيْـرٍ
بِطَـائِشَـةِ الصُّـدُورِ وَلاَ قِصَـار

فقال: أصلح الله الأمير، ما هو لي، وإنما استعرته من رجل من الأشعريين». [1]

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٣.

ولا يقف الهجوم، كما رأينا، على أبي موسى وعائلته، ولكنه يتعدى إلى الأشعريين كلهم.

ولا أشد من أن يكون الذي يكيل بالصاعين مجنونًا، وفوق هذا يبدو أنه أعقل من العاقل، الذي دخل معه في نقاش، ورجحت كفة المجنون، وشالت كفة العاقل؛ ولعل استهانة العاقل بالمجنون هي التي أدت إلى هذا:

«قال موسى بن قيس المازني:

قيل لأبي فراس المجنون:

أنت النهار كله ماشٍ، أفتشتكي بدنك بالليل؟

قال:

إِذَا اللَّيْـــلُ أَلْبَسَنِـــي ثَـــوْبَـــهُ
تَقَلَّـــبَ فِيْـــهِ فَتًـــى مُـــوْجَـــعُ

فقلت: يا أحمق، أسألك عن حالك، وتنشدني الشعر!

قال: أجبتك، يا مجنون.

قلت: أتقول لي هذا، وأنا سيد من سادات الأنصار؟

فقال:

وَإِنَّ قَـوْمًـا سَـوَّدُوْكَ لَفَـاقَـةٌ
إِلَـى سِيِّـدٍ لَـوْ يَظْفَـرُوْنَ بِسَيِّـدِ

ثم لطم عينه، ومر، وهو يقول: هكذا يكون الجواب المقشر!» .[1]

لقد أجاد أبو فراس امتطاء حصان الشعر، بدءًا وختامًا، ولولا أنه اختار هذا النهج لما وجد كلامه إلى التدوين طريقًا، ولعل المثل العامي الذي يقول:

«من عدم الرجال سميت رجلاً»، جاء من هذا الموقف، أو موقف مشابه له.

ونعود إلى أسباط أبي موسى الأشعري، وتركيب الأخبار المنتقدة عليهم، وإلصاق التهم بهم، خاصة منهم من ولي أمراً في مجتمعه، والإمارة هدف للنقد، لوجود من يسخط منها لسبب أو آخر، والشخص

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٤.

الذي ركب عليه الخبر في القصة الآتية هو بلال بن أبي بردة، وهو كما يلي:

«أمر بلال بن أبي بردة بإخراج مجنون من الحبس، ليضحك منه، فقال له:

أتدري لِمَ دعوتك؟

قال: لاَ.

قال: لأسخر منك.

فقال المجنون، غير منكر: فقد حكم المسلمين حكمين، فسخر أحدهما من الآخر.

فخجل بلال، وأطلقه». [1]

إن هذه القصة مبتسرة، والوضع فيها واضح ورديء، والهدف بين ومخزٍ، والتركيب تافه، وواضح أن الهدف هو التبكيت على آل أبي بردة، لما يقال أنه حدث بين أبي موسى وعمرو بن العاص، في واقعة تحكيمها بين علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ وما ألصق بأبي موسى وعمرو، من أن عمرو ضحك من أبي موسى وأوقعه

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩٠.

في كمين وضعه له .

وقد تكلف واضع القصة ، تكلفًا سمجًا ، عندما ركب الجدل على مجنون أخرجه من السجن ؛ والأمير يختار عادة من أعقل الناس ، وبلال في تصرفه هذا أحوج إلى أن يكون المحبوس لا المطلق ، والمجنون لا الأمير . ولكنه الهوى والغرض ، ومحاولة إرضاء الناس ، والسير على ما يريدون ، ومع إن الدولة الأموية لم تر في عائلة أبي موسى إلا الخير ، فقد نصبت منهم أناسًا ، وأتاحت الفرصة لآخرين منهم أن يبرزوا رغم كيد الكائدين ، ولولا أنهم من الكفاية بمكان لما تقدموا في هذا المجتمع ، ولولا أن أبا موسى كان من أعقل الناس لما قدمه الخلفاء ، وأبرزوه ؛ ولكن غثاء التاريخ أحيانًا يغلب على صُراحه ، ودرنه يغطى على صافيه النقي !

وتُرد الكرة رداً قديراً ، ويكال صاع الحجة وافيًا في قصة طريفة ، فيها ضياء ، لأن فيها ردًا على خليفة بطريقة لم توجب غضبه ، ولم تثر في نفسه شيئًا ، بل لعلها أدهشته بما تحمله من حق ، وما ترمي إليه من

جلاء الحقيقة، ووصف الواقع، ووضع الأمر في نصابه، بجدارة وإتقان، حتى لا يأتي من السامع إلا الموافقة، والتأمين على القول:

«قال المتوكل يومًا: أتعلمون لماذا عتب الناس على عثمان؟

فقال بعض جلسائه: لما قبض رسول الله ﷺ قام أبو بكر على المنبر دون مقام رسول الله ﷺ، ثم قام عمر دون مقام أبي بكر بمرقاة؛ فلما ولي عثمان صعد ذروة المنبر، فقعد في مقعد رسول الله ﷺ، فأنكر المسلمون ذلك.

فقال عبادة: يا أمير المؤمنين، ما أحدا أعظم منّة عليك، ولا أسبغ معروفًا، من عثمان!

قال: كيف، ويلك؟

قال: لأنه صعد ذروة المنبر، ولولا ذلك لكان كلما قام خليفة نزل عن مقام من تقدمه مرقاة؛ فكنت أنت تخطبنا من بئر جلولا!». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٨٧.

ويجتذبنا تحرش من مثل ما مر بنا، قوامه الشعر، واللمز والغمز، ويبدو أنه يجتذب الناس، لأنه غذاء للذهن والروح، ففيه كد للذهن، ومتعة للروح، والأدباء وجدوا فيه متنفسًا، يضعون على نسقه صياغة ما يعن لهم من أفكار، يضعونها بإتقان، وكأنها حدثت فعلاً.

ودراسة هذا الجانب في تاريخ الأدب العربي تعطي فكرة عن العداء والتناحر بين القبائل، وهو ما صوره الأدباء، سواء كانوا عرباً أو موالي، فأكملوا بالخيال ما كان ينقص تدوينه في الحقيقة، ولقد قلت المتعة في قراءة هذه الأخبار بعد أن بدأنا نشك في صحتها، إذ كانت المتعة فائقة، عندما كنا نأخذها على علاتها، حقائق مسلمة، ولم يبق إلا ما قد نستنتجه من صور متخيلة، تعطينا فكرة عما كان يدور في أذهان الكتاب من أفكار، تبلورت عما يدور في مجتمعهم، أو اكتسبوه من قراءاتهم وسماعهم. والنص الذي يماثل النصوص السابقة في أسلوبه، ويماشيها في

منهجه، يأتي هكذا:

«دخل رجل من محارب، على عبدالله بن يزيد الهلالي، فقال:

ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب، ما تركونا ننام!! يعني الضفادع، لقول الأخطل:

تَنِقُّ بِلاَ شَيْءٍ شُيُوْخُ مُحَارِبٍ
وَمَا خِلْتُهَا كَانَتْ تَرِيْشُ وَلاَ تبْرِي
ضَفَادِعُ فِيْ إِنَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ
فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ البَحْرِ

فقال المحاربي: أصلحك الله، إنهم أضلوا برقعا، فكانوا في طلبه، يريد قول القشيري:

لِكُلِّ هِلاَلِيّ مِنَ اللُّؤْم جُبَّةٌ
وَلِابْنِ يَزِيْدٍ جُبَّةٌ وَبَرَاقِعُ»(١)

لقد كال الهلالي الصاع صاعين لابن يزيد، والبادي أظلم، سواء حدث هذا، وهو ما لا نتوقعه، أو

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧١١.

متخيلاً، وهو الأرجح، ومن السهل على الأديب أن يأخذ بيتين من قصيدتي تهاجي، فيبني منهما هذا القصر الأجوف من الإلغاز، ولقد تمتعتْ بهذه الصور أجيال قبلنا، كانوا ينظرون إلى هذه الأعمال على أنها حقة، وحدثت كما قيلت، وأظهرت سرعة البديهة، وحدة الرد، والانتقام الصارخ، وما دار في ذهن المعتدي من قوله، داخل نفسه: ليتني لم أتحرش، وكم من كلمة قالت لصاحبها: دعني!

ولو تتبع أحدنا أمثال هذه، لتحصل منها جمع كبير، يكون بابًا واسعًا في الأدب، يسجل بواعثه، ويدون مراميه، وما كان في ذهن قائله، وما إذا كان قصد به الأذى للقبيلة، أو المتعة، وعرض المقدرة الأدبية، وإظهار أبعاد الثقافة العميقة، والإطلاع الواسع؛ وقد لمسه بعض المؤلفين لمسًا هيناً، وجاؤا بنماذج منه معبرة، ودالة على الاتجاه، ومدى إغراء هذا الأمر لبعض الكتاب بالوضع والنقل.

وإذا كان هناك عداوة بين القبائل، يغذيها بعض

الأفراد، من هذه القبيلة أو تلك، فهناك عداوة بين أفراد في المجتمع، جمعتهم المهنة، وأحيانًا البطالة، والتسكع عند أبواب الحكام، والبارزين في المجتمع، وأحيانًا بعض نواح في المجتمع، هي أشبه بالنوادي، التي تحتاج إلى ملء من طرح الفكر، وليس أكثر رواجًا من الهجو، أو التبكيت، أو الغمز أو اللمز؛ لأن الشيطان نشط في ترويج بضاعته، لا يترك بابًا في ذلك إلا طرقه، ولا سبيلاً إلا سلكه، ولا وسيلة إلا استعملها، ولا سانحة إلا اقتنصها، ولا فكرة إلاّ جربها، لا يهدأ له بال، حتى يملأ شباكه بصيد، ولا يهنأ له صيد إلا إذا كان سمينا، ولا يعجبه السمين إلا إذا كان وافياً متعددًا، ولمن وقع في يده إلا إذا كان فعله قابلاً للانتشار، وأخذه قدوة.

والشيطان ليس مخلوقًا بشعًا في صورته، له قرنان ناتئان بصفة مرعبة، وعينان ركبتا بالطول، خلافًا لأعين الناس، المسواة بالعرض، ولا له أنياب بارزة؛ لا، إنه لا يُرى، إنه مُقْعٍ في الصدر، مثل المكروب

ينتهز فرصة ضعف، فإذا وجد الفرصة انقض انقضاض جيش محاصر مدينة، فتحت أبوابها للتسليم، وهو يُعرف بمطيته التي لا صوت لها، ولا وجيف لعجلاتها، ولكنها تُعرف بسمات أحدها وضوح مخالفتها للدين، والبعد عن الخير، وما يرى في مقدمتها من النية السيئة، والتفريق بين المتحابين، وزرع البغضاء بين المتصافين، يأمر بالغيبة، ويدعو إلى النميمة، ويحسّن القبيح، ويشوه الحسن، يأمر بما نهى الدين عنه، وينهى عما دعا إليه، يخترع الشبه، ويضلل عن حلّها إن قدر.

وضحايا إبليس كثيرون، لقوة وقع المغريات، وضعف الناس أمامها، لضعف الدين، ولطغيان المتعة على نفوسهم، ولميلهم إلى الأعذار، التي تفتح لهم أبواب الغي، وتوصد أبواب الرشد، ولعدم إرادتهم في مقاومة تقليد من ضلوا، وتباهوا بمظاهر الدنيا المحرمة.

ومن أمثلة ما يقع بين اثنين أو ثلاثة من النفرة،

وما تنطوي عليه من أقوال، يجد الكتّاب فيها ما يُقتنص، مما يدركون أن الناس يحبون سماعه، ويلتذون بمتابعته، وروايته، القصة التالية، وهي طريفة، وتدل على سرعة بديهة، وعلى مخزون من أصواع الرد:

«نظر رئيس إلى أبي هفان، وهو يسار رجلاً، فقال:
فيم تكذبان؟
قال: في مدحك». [1]

ولنؤكد ما قلناه من محاولة تشويه سمعة مَنْ تسلسل نسبه من أبي موسى الأشعري، وما يبدو أنه يأتي على نسق واحد، حتى ليوشك القارئ المتتبع أن يجد أن قائل هذه الأقوال كلها واحد، لتشابه النهج، وللاصرار في دمْغ آل أبي موسى الأشعري، بدمغة واحدة مزرية، رغم أن الزمن معهم، في رفعتهم، وتقدير الحكام لهم، مما قد يكون أحد الأسباب التي أوجبت الحقد عليهم، ومحاولة النيل منهم، وإلصاق التهم بهم، حتى لو جاء الأمر مملاً، ومرفوضًا؛

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٧.

نسوق الرواية الآتية:

«كان بالكوفة رجل يتحدث عن بني إسرائيل ويكذب، فقال له الحجاج بن حنتمة:

ما اسم بقرة بني إسرائيل؟

قال: حنتمة.

فقال رجل من ولد أبي موسى: في أي الكتب وجدت هذا؟

قال: في كتب عمرو بن العاص، التي جدع بها أبا موسى». [1]

ومثل هذا القصة الآتية، وفيها صاع وصاعان:

«قال عبدالله بن خازم لقهرمانة:

إلى أين تمضي يا هامان؟

قال: أبني لك صرحًا!

لأنه أشار إلى أنه فرعون، إن كان هو هامان». [2]

وهذه المرة التفت الأديب إلى القرآن الكريم،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٦.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٧٠٤.

يستقي منه مادته، ويمتح منه ماءه، ليروي غلة الأدب عنده، رغم أنه ركب القصة على شخص بعينه، ولو صح أن هذا الأمر واقع، لثبت أن هذا القهرمان مثقف ثقافة دينية عميقة؛ وأنه سريع البديهة، والآية الكريمة، التي أشار إلى مدلولها هي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.(١)

والآية الكريمة الثانية هي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾.(٢)

وهكذا كيلت الأصواع، وقد اجتمع لنا منها في هذه ما يملأ إحدى الصوامع!

***

(١) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٦.

غش مستور[1]

ويكاد كل غش يكون مستوراً، والغش قبيح، لأن في تركيبه كذباً، وإخفاءاً للحقيقة، وتدليسا للباطن بتزويق الظاهر؛ ففيْه خداع مبتذل، وحيلة مرذولة، فيه اصطياد غير شرعي، وكسبٌ حرام؛ فيه مغالطة مقررة، يقدم عليها المرء بروح خبيثة، ويسير في جوادها متلبساً ثوب الأذى، مرتدياً برقع الشر؛ هدف صاحبها الانتفاع على حساب ضرر الآخرين، والربح على كتف خسارة غيره.

والغشاش منبوذ عمله، محتقر فعله، محارب ما يأتي منه من هذا العمل، من قبل الطيبين، مرفوض نهجه من قبل أهل الخير أجمعين؛ يظن أنه رابح، وهو خاسر؛ ويعتقد أنه ذكي، وهو في الحقيقة غبي، يظن أنه في منأى من العقاب، وهو إذا نجا من الناس لم ينج من رب العالمين.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٢٨) في ١٢/ ١/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٠/٦/ ١٩٩٥م.

والغش أنواع، منه ما يأتي لتدليس الحقيقة ليُكسب من ورائها، ومنه ما يقدم عليه صاحبه ليغطي نقصاً، لو بدا للناس لحرمه بعض ما ليس حقه، ومنها ما يوهم بميزة يترتب عليها ما كان يجب ألا يترتب.

فالطبيب الذي يتظاهر بذلك، هو ليس طبيبا، يغش المرضى، ويقودهم بعلاجه إلى الضرر، أو الهلاك؛ والتاجر الذي يبيع بضاعة شابها الغش، يجني من ربحه الحرام، فلا يبارك الله في ماله؛ ودرهم من مال الحرام حري أن يأتي على ماله كله؛ فالذي يحيّن العنز أو البقرة، ليبدو ضرعها مليئًا بالدِّرة، وهي مصراة، حتى يجتمع فيها ما يوهم بطيبها وجودتها يؤذي غيره، ولا يستفيد في المدى الطويل، ولا يفلت من عقاب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والصيدلي الذي يلصق على دواء لا ينفع ما يجعله نافعًا لعدد من الأمراض، إنما يجني على من غشه،

فقد يؤدي هذا إلى موته، أو إعاقته، أو يفوت عليه فرصة البحث عن دواء ناجع عند من يستطيع توفير ذلك؛ ويحمل الصيدلي الغاش بعمله هذا عبأً ثقيلاً، يعرف مدى ثقله عند حشرجة الصدر، وخروج الروح، عند ما لا ينفعه مال ولا بنون؛ ولا ينفع حينئذ إلا من أتى الله بقلب سليم، لا قلب غشاش سقيم.

والصيدلي، أو بائع الأدوية، أو صانعها، عندما يعبث بتواريخ صنعها، ومدة صلاحيتها، إنما يعبث بحياة الناس، وقد يسخر الله منه بأن يحوجه إلى دوائه، دون أن يدري أنه من الدواء الذي غش، فيقع في المصيدة التي نصبها، ليصطاد الأموال من الناس، فيأكلها حراما، تتلظى في جوفه، يوم لا ينفعه المال.

والذي يتقدم فيخطب ابنة آخر، مخفياً أن معه زوجة، أو اثنتين، أو ثلاثا، إنما يدلس عليهم، ويكذب كذبة قبيحة، لا تليق بالصلة التي هو مقدم على بنَائها بين عائلتين، ولا بالرباط الذي ينوي أن يربط به أسرتين؛ فإذا بدأ بالكذب فلن يوقف هذا

المسلك المشين، لأنه ذاق طعم الكذب، ولكن حبل الكذب قصير؛ وربما قام نزاع عند اكتشاف هذا الغش نغص عليه حياته، وجاء على الأخضر واليابس مما عنده، فثبت له من الجزاء ما لم يكن له بحسبان، وعاد عليه بضرر لم يخطر بباله.

والمدرس الذي يدعي أنه يحمل شهادة لا يحملها، يتقدم بهذا لغش من ائتمنه، وأذى من ائتمن عليهم، ولن يناله إلا فضيحة في نهاية الأمر تجلب له العار والشنار؛ وإذا كان من بين أولئك الذين لا إحساس عندهم، فإنه لابد أن يستيقظ للجزاء الذي سيقع عليه، والغرامة التي سوف تحل به.

والذي يخل بالأمانة التي حُمِّل بها في عمله، ويتساهل في أمرها، أو يعمد إلى تدنيسها بالخيانة في إبداء أسرارها، أو سرقة مواردها، أو تحريف في سجلاتها، أو انتفاع غير مشروع في وسائلها وإمكاناتها، إنما يقدم على عمل مستهجن، يدخله بعضه في عداد المجرمين.

والغش في أنواعه، منه الحاد المؤذي أذى كبيراً، يوجب عند كشفه، العقاب الشديد، ومنه الذي لا يتعدى ضرره الجلد، فلا يتعدى إلى اللحم، أو يتغلغل إلى العظم، وهذا يدخل في باب المضايقة، أو يستوجب اللوم، أو المعاتبة.

والتراث مليء بأخبار الغشاشين، وسوف نختار نماذج منها تعطي فكرة عما كان يلفت نظر الكتاب والأدباء، فيعمدون إلى تسجيله، سواء كان ذلك نتيجة ملاحظة له، عند وقوعه في مجتمعهم، أو تخيلوه في ضوء ما يعرفونه حولهم.

ومن أخطر أنواع الغش ذلك الذي يأتي مرتبطاً بأمور الزواج، لأن الزواج نفسه أمر خطير، فما يتصل به يأخذ صفته؛ والزواج مستقبل طويل، تقوم عليه حياة اثنين، ثم يتصل بالأولاد، وفوق هذا صلته بعائلته، ولهذا يسأل أهل الزوجة عن طالب الزواج من يعرفه، بطريقة لبقة، ويتحرون الحقيقة عنه في أمور عديدة، ولا يسألون عادة إلا رجلاً

عارفاً وثقة، أو امرأة قريبة ومطلعة؛ وطالب الزواج قبل أن يتقدم للخطبة يسأل عن الفتاة، هو أو أهله، ويتحققون من الأمور التي يهمهم معرفتها؛ فإذا أدلى المستشار برأي كاذب، أو فيه شيء من التدليس، دخل حيز الغش، وارتكب إثماً كبيراً، ومن القصص التي تروى في هذا الشأن القصة التالية، وطرافتها قد توحي بأنها متخيلة، وأنها من نسج خيال أديب متفرغ:

«قال أبو إسحاق . . . . . :

هذا مثل قول القائل حين سئل رجل في تزويج امرأة، فقال:

«رزين المجلس، نافذ الطعنة».

فحسبوه سيداً فارساً، فنظروا فوجدوه خياطاً، فسئل عن ذلك، فقال:

ما كذبت، إنه لطويل الجلوس، جيد الطعن بالإبرة». [1]

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٨.

وفرق بين سيد فارس في ذلك الوقت، وخياط سيفه الإبرة، وسرجه المجلس الذي يقعد فيه!

ولأن الزواج مهم، والسؤال المتصل به مثله في الأهمية، كثرت الأمثال عن ذلك؛ لأن من يقع في الغش فيها، لا ينسى وخزه، ولا يمّحى من ذاكرته أذاه. وهناك قصة ثانية في هذا المجال، يقول راويها أبو إسحاق أيضاً:

«هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمته، عن رجل، فقال:

«هو يبيع الدواب».

فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير.

فلما سئل عن ذلك، قال:

ما كذبت لأن السنور دابة». (١)

وفرق بين رجل يبيع السنانير، وهي مهنة مزرية، لا يشرف من يصاهر ممتهنها، ولا يرفع رأسه من يقرن سببه بصاحبها، وبين بائع الدواب المعروفة من

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٨.

خيل وجمال وأغنام! ولكن الغش يسمح بما لا يسمح به القول الصراح؛ وإن على هذا الخبر مسحة شك مثل سابقه، فقد يكون الخيال لعب دوراً في تأليفه، بإغراء من التلاعب على الكلمات.

وتتبين الخيانة العظمي فيمن يستغل مهنته في كسب لا يستحقه، بل أقرب أن يعاقب عليه أشد العقاب، لأنه باع السم على أنه ترياق، وأهدى الضرر على أنه نفع، مستغلاً الظرف والحاجة، ليكسب منهما ما لم يكن ليكسبه لو لم يأت في طريقه هذان الأمران؛ وليس أشد على الفرد والمجتمع من طبيب يصف دواء غشاً لغير ما هو له؛ وما أقدم عليه الطبيب في القصة الآتية كان بالإمكان أن يودي بحياة الرجل، خاصة إن كان عنده فقر دم، وهذه هي القصة:

«دخل رجل حماماً، فسرقت ثيابه، فخرج وهو عريان، وعلى الحمام طبيب، فقال له:

ما قصتك؟

قال سرقت ثيابي.

قال: بادر، ونفِّس الدم، حتى يخف عنك الغم» .[1]

وينسب إلى القاضي ابن شبرمة عن رجل، ونرجو ألا يكون في أمر زواج، لأن ابن شبرمة أجاب بجواب موهم، فإن كان ترتب عليه أمر، فالإثم واقع، وإن لم يترتب فقد يدخل الأمر ضمن الفكاهة؛ إلا إذا كان ابن شبرمة تفادى بما قال الغيبة فهو مستحق الثواب؛ ومع هذا فالفكرة طريفة، فيها تلاعب بالألفاظ، والتلاعب بالألفاظ بضاعة الأديب، وهواية الكاتب، لا يُقَاوَمُ إغراؤها، وقد تكون علقت على ابن شبرمة، ليكون لها مشجباً تتدلى منه، فتقبل، فتنتشر، والقصة كمايلي:

«سئل ابن شبرمة عن رجل، فقال:

إن له شرفاً، وبيتاً، وقدماً.

فنظروا، فإذا هو ساقط من السَّفلة، فقيل له في ذلك، فقال:

---

(١) البصائر: ٤/ ١٠٣.

ما كذبت: شرفه أذناه، وقدمه التي يمشي عليها، ولابد أن يكون له بيت يأوي إليه» .[1]

ويأتي الغش مستوراً بسجاف من الحق، ولو كان صاحبه ورعاً لما أقدم على ما أقدم عليه، ولكن له حقاً أن يعرض بضاعة للبيع، فإن قبل المشتري، وعرض الثمن، فما على البائع لوم، إذا لم يكن في صنع البضاعة غش خفي، ولكن في باطن الأمر غير ما هو ظاهر، والقصة كمايلي:

«بلغني عن فتى من أهل الكتّاب أنه قال:

كنا في طريق مكة بالخزيمية، فأتانا أعرابي بكمأة في كساء، قدر ما أطاق، فقلنا:

بكم الكمأة؟

قال: بدرهمين.

فاشترينا منه، ودفعنا الثمن إليه؛ فلما نهض قال له بعضنا.

في است المغبون عُودٌ!

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٧.

قال: بل عودان.

وضرب الأرض برجله، فإذا نحن على الكمأة». [1]

ورغم ما حدث من بيع الأعرابي الكمأة بدرهمين، في حين أنها موجودة تحت أقدام الحضر، فلم يعلموا عنها، ولكن لسفههم، ونيتهم السيئة، فهم يستحقون أن يضحك منهم، وهو غش من الأعرابي، ولكنه غش مقبول لمن يستحق أن يُغَشَّ، ونحن نعتبرها مباراة ذكاء بين فريقي البادية والحاضرة، وقد غلبت البادية بلا شك؛ وكم من مغلوب في هذه الدنيا ظن أنه غالب، فلما انقشع الظلام، وانزاحت السجف، تبين الأمر، وانبلج صبح الحقيقة.

وقد لا يأتي الغش بأذى كبير، ولكنه أحياناً يتسبب في الوهم، ثم المضايقة، وقد يضع المغشوش في موقف محرج، وقد يأتي الغش من نقص يشعر به المرء، فيدلس في المظهر، ليكمل هذا النقص المخبر، والقصة التالية تُري نموذجًا من هذا النوع

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٠٥.

من الناس، وهم ليسوا قليلين في المجتمعات، إلا أن أنواع النقص في الناس تختلف، فهذا ينقصه المال، فيعمد إلى مظهر يُرِي أنه من الأغنياء، ويبالغ في هذا حتى يبزّ الأغنياء حقيقة، وآخر جاهل يتشدق بالعلم، وهو أفرغ من فؤاد أم موسى منه. وهناك من يظهر أنه واصل مرتبة عليا لدى الحكام، وهو أبعد من أن يكون مقبولاً منهم؛ والقصة كما يلي:

«وقف رجل حسن الشارة، حلو الإشارة، على المبرّد، فسأله عن مسألة، وأطال، ولحن، وتسكّع في الخطأ.

فقال المبرد: يا هذا، ما أنصفتنا من نفسك، إما أن تلبس على قدر كلامك، وإما أن تتكلم على قدر لباسك.

فعجب الناس من بديهته في هذه الحكمة الجامعة للزجر، الباعثة على القبول، المثيرة للائمة». [1]

---

(١) البصائر: ١/ ١٨١.

ـ[1] وقد يأتي الغش بصفة طريفة، الأذى منها مشكوك فيه، إذا قيس بالسرور الذي أدخله الغاش على قلب المشغوش، وقد يبدو هذا مثل اللغز، حتى نأتي بالقصة التي تحمل مبهم الأمر، والقصة كمايلي:

«قال المدائني:

سقط عبدالله بن شُبرمة القاضي عن دابته، فوُثئت رجله، فدخل عليه يحيى بن نوفل، الشاعر، عائداً له، ومادحاً، وكان جاره، فأنشده:

أَقُولُ غَدَاةَ أَتَانَا الخَبِيْرُ
وَدَسَّ أَحَادِيثَه هَيْنَمَهْ
لَكَ الوَيْلُ مِنْ مُخْبِرٍ مَا تَقُوُل؟
أَبِنْ لِي وعَدِّ عَنْ الجَمْجَمَهْ
فَقَالَ خَرَجْتُ وَقَاضِي القُضَا
ة مُنفكَّةٌ رِجْلُهُ مُؤلَمَهْ
فَقُلْتُ وَضَاقَتْ عَلَيَّ البِلاَدُ
وَخِفْتُ المُجَلِلَّةَ المُعْظَمَهْ

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

فَغَـزْوَانَ حُـرٌّ وَأُمّ الَـولِيْـدِ
إِنِ اللهُ عَـافَـى أَبَـا شُـبْـرَمَـهْ
جَـزَاءًا لِمَعْـرُوْفِـهِ عِنْـدَنَـا
وَمَـا عِتْـقُ عَبْـدٍ لَـهُ أَوْ أَمَـهْ

قال الراوي:

وفي المجلس جار ليحيى بن نوفل، يعرف ما في منزله، فلما خرج تبعه، فقال:

يا أبا معمر، رحمك الله! مَنْ غزوان وأم الوليد؟

قال: سنّوران في البيت، فاستر عليّ». [1]

والغش المتدني، والكذب الصراح، ذلك الذي يأتي لابساً ثوباً براقاً مضيئًا، وتحته ظلمة، ما بعدها ظلمة، ويبدي ظاهراً خيراً، وفي الباطن شر مستطير، ويتشح برداء النصيحة، وهو في الحقيقة مخادع أشر؛ وأسوأ ما يكون هذا إذا أتى من حاقد على حاكمه، ومن مرؤوس على رئيسه، لا يهم المخادع الغشاش من يتأذى، ومن يصيبه الضرر، مادام يصل إلى

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٤،

غايته المتدنّية، ويبلغ هدفه الشرير، والقصة الآتية نموذج لهذا:

«دخل خالد بن صفوان على هشام بن عبدالملك، في يوم شديد الحرّ، وهو في بركة، فيها مجالس من السرو كالكراسي، فجلس على بعضها، مؤتزراً بمنديل ناوله إياه الغلام، فقال له هشام:

يا خالد، رب خالد قد قعد مقعدك هذا، وحديثه أحلى من جني الشهد ـ يريد خالد بن عبدالله القسري ـ.

قال خالد: قلت:

ما يمنع من إعادته إلى ما كان عليه؟

قال: هيهات! أَدَلّ فَأَمَلَّ، وأوجب فأعجف، ولم يدع لراجع مرجعا، ولا لعودة موضعاً، إلا أخبرك يا بن صفوان؟

قلت: إن شاء أمير المؤمنين.

قال: ما بدأني بسؤاله حاجة قط، حتى أكون المبتدئ بها.

قلت: فذاك أحرى أن تعيده إلى منزلته.

فقال :

إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِيْ عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تكَدْ
إِلَيْـهِ بِـوَجْـهٍ آخِـرَ الـدَّهْـرِ تُقْبِـلُ

ثم قال : حاجتك؟

قلت : أزاد في عطائي عشرة دنانير .

فأطرق، ثم قال : فيم؟ وعلام؟ وبم؟ ألعبادة أحدثتها؟ أم لبلاء أبليته أمير المؤمنين حسن، أم لأي شيء، يا ابن صفوان؟ إذًا يكثر السؤّال، ولا يحتمل بيت المال .

فقلت : وفقك الله يا أمير المؤمنين! وسددك! فأنت كما قال أخو خزاعة :

إِذَا المَالُ لَمْ يُوجِبْ عَلَيْكَ عَطَاءَهُ
صَنِيْعَةُ قُرْبَى أَوْ صَدِيْقٌ تُوَامِقُهْ
مَنَعْتَ وَبَعْضُ المَنْعِ حَزْمٌ وَقُوَّةٌ
فَلَمْ يَفْتَلِتْكَ المالَ إلاَّ حَقَائِقُهْ

قال خالد : فلما صرت إلى البصرة قيل لي :

ما حملك على تزيينك الإمساك لأمير المؤمنين؟

قلت: أحببت أن يمنع غيري، فيكثر من يلومه» . [1]

حِقْد خالد، لأن طلبه لم يُجب، قاده إلى نصيحة ظاهرها فيها الرحمة، وباطنها فيها العذاب؛ غش خالد خليفته، لينتقم لنفسه، بهذه الطريقة المرذولة؛ ولو لم يكشف خالد عن هدفه السيء من النصيحة، لمرت وكأنها نصيحة مخلصة، لبريق أديمها، وصفاء مظهرها؛ وقد يصل ما كشفه خالد عن الجانب السيء إلى الخليفة، فيكون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة؛ وهذا أمر خطير، فلو سار هشام على ما دله عليه خالد، وزينه أمامه، فوصل الأمر إلى أعطيات القادة والجند، خاصة أولئك الذين على الثغور، فقد يأتي منه ما يهدد الإسلام، وهو أمر لا يرضي الله، ولا عباده، ولكن النفس أمارة بالسوء، تفتح للشيطان طريقاً إلى داخلها، فيعبث كما يحلو له، ويفرح، ويسعد على شقاء الناس.

---

(١) البصائر: ٣/ ١٢٠.

ونعود إلى نماذج الغش بالتورية، والكذب بالإيهام، واللعب بالألفاظ، رغم شكنا في أنها مركبة، ولكن ورودها على رجل بعينه مثل ابن شبرمة ربما أوحى بأن هذا أسلوب له، وبعض الناس يتخذ أسلوب السخرية له منهجاً، يسير في ضوئه مع الناس، والنموذج الآتي مأخوذ من الجاحظ إذ يقول:

«ولو سأله رجل عن رجل يريد أن يسلفه مالاً عظيماً، فقال:

هو يملك مالاً، ما كان يبيعه بمئة ألف، ومئة ألف».

فلما بايعه الرجل وجده معدماً، ضعيف الحيلة، فلما قيل له في ذلك، قال:

ما كذبت، لأنه يملك عينيه، وأذنيه، وأنفه، وشفتيه، ويديه، حتى عدّ جميع أعضائه وجوارحه». [1]

إذا لم يكن هذا هو الغش بعينه، فما هو الغش؟ لقد أوقع الرجل في ورطة لا يخرجه منها إلا تدارك الله له

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٨.

بلطفه وعنايته، والحجة على القائل الفقيه أن العين لم تكن في تلك الأيام تباع في المواد حتى يوفى الدائن منها دينه، وكذلك الأذنان والشفتان، والأنف واليدان، ولهذا بطل العذر، وثبت الذنب، واستحق الجزاء.

ومع هذا فقد لا يكون شيء من هذا حدث، ولكنه إغراء فقهي، أدى بالأديب إلى سبك هذا القول، دائراً على محور الأرض في الفقه، وما يقدر لهذه الجوارح منه، فأحب أن يصوغ منه ما أتحفنا به، والله أعلم بالسرائر!

وقد أورد الجاحظ تعليقاً على هذا الخبر، وما سبقه من أخبار في ألفاظها إيهام بقوله:

«ومن قال للمستشير هذا القول فقد غره، وذلك ما لا يحل في دين، ولا يحسن في حُرِّية؛ وهذا القول معصية لله، والمعصية لا تكون صدقاً، وأدنى منازل هذا الخبر أن لا يسمى صدقاً، فأما التسمية له بالكذب، فإن فيها كلاماً يطول». [1]

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٨.

أرأيت غشاً يحقن دماءًا، ويجمع شمل المسلمين، ويقطع دابر الفرقة بينهم، ويؤلف بين قلوبهم؛ إنه غش محمود، تسلل عن طريق حيلة، من خليفة ذكي، أخذ يحل مشاكل حكمه، عقدة عقدة، وهذه إحدى حيله ـ رضي الله عنه ـ لذلك:

«حدث المدائني عن مبارك بن فضالة قال:

دخل الأحنف بن قيس على معاوية حين أراد البيعة ليزيد، فتكلم الناس؛ فبلغ الكلام رجلاً منهم فقال:

والله يا أمير المؤمنين لئن لم تعقد العهد لَتَلْقَيَنَّ الله مضيعاً لأمة محمد ﷺ.

وأقبل معاوية على الأحنف، فسارّه، فقال:

ما لك لا تتكلم في هذا الأمر، يا أبا بحر؟

فقال: نخافكم إن صدقناكم، ونخاف الله إن كذبناكم.

فقال معاوية: جزاك الله خيراً، يا أبا بحر عن السمع والطاعة؛ إحملوا إلى منزله خمسين ألف درهم.

فقام الناس لا يشكّون أنه بايع» .[1]

إن معاوية لم يكذب، إذْ لم يقل إن الأحنف قد بايع، ولكنه أوهم قاصداً، أن الأحنف بايع، فقد دعا له لما جاء منه من السمع والطاعة، والناس ظنوا أنه سمع وأطاع لبيعة يزيد؛ ثم إن معاوية أردف هذا بمكافأة سخية، لابد أنها بهرت الأحنف، وأكدت للحاضرين أن هذه المكافأة السخيّة، هي عن هذه المبايعة المهمة؛ وقد نال معاوية ما أراد بهذه الحيلة، وتكاد الحيل كلها تدخل في باب الغش، من طريق أو آخر، وبعضها يدخل مكشراً مسخوطاً عليه، وبعضها يدخل باسماً مرحباً به، وناهيك بغش مقبول!!

وقد سبق أن خصص باب كامل في أحد أجزاء «إطلالة على التراث» بعنوان: «من منا لا يحتال»[2]، وباب آخر، بعنوان: «إحتيال واحتيال» .[3] .

(١) لطف التدبير: ٣٤.
(٢) إطلالة على التراث: الجزء الثالث: ٦٢.
(٣) إطلالة على التراث: الجزء السابع: ١٨٥.

وبعض قصص الاحتيال المساقة، هي من قبيل الغش، بعضه خفيف ممتع، وبعضه ثقيل مرفوض.

والاحتيال على الأمور، ومحاولة التغلب عليها، بشتى الطرق، والخروج من المأزق، بأي وسيلة ممكنة، أمور تقابل في كل زمن، وكتب التراث تغص بها، تأتي بها قصداً، أو عرضاً، وهناك كتب ألفت في هذا المجال، ووقفت على هذا الأمر، وأحدها رأى صاحبه أن يعطيه اسماً مقبولاً، لا ينفر، فسماه: لطف التدبير، وهو للخطيب الإسكافي، وهو كتاب ممتع، دل على أن مؤلفه بذل فيه جهداً مضنياً، فجمع من الحوادث والقصص ما هو ممتع في مجال التخلص من المآزق بيسر وسهولة، والتغلب على ما يصادف الإنسان من معوقات بحسن تدبير وبصيرة.

وهناك قصة رمزية جميلة، فيها حيلتان، اعتمدتا على إظهار غير الباطن، والإيهام بغير ما هو حق، ولكنهما ترميان، رغم ما شابهما من كذب وغش، إلى خير جليل، أحدهما الحث على النهي عن المنكر،

والآخر التعاضد والتكاتف في هذا المجال.

ومن المؤكد أن هذه القصة لم تحدث، لبشاعة بعض ما فيها، ووجود وسائل للوصول للهدف، غير الطريقة القاسية التي استعملت فيها؛ ولكن القاص له هدف من ذلك، وبعض هدفه شد الناس إلى سماع القصة، ثم كشفه عن طبيعة البشر، وتصرفهم أمام المشاكل التي تقابلهم، والقصة كمايلي:

«حدث عمرو بن واقد الدمشقي، قال:

«كان في الزمن الأول ملك له سبعة وزراء، وهم قواده، وعماله على جميع مملكته. وكان يجلس لهم يوماً من السنة، يأمرهم فيه بما أراد، ويتغدون معه. وكان قد سن عليهم أن يقترعوا في ذلك اليوم، فأيهم أصابته القرعة ذبح ولداً من أولاده، وشواه، وقدمه على الخوان؛ فإذا رآه الملك قال:

على من كانت النوبة؟

فيقال: على فلان.

فيأمر به، فيرفع.

فمكثوا بذلك دهرًا، حتى أضر بأولادهم.

وكان في السبعة رجل سديد العقل، فأتى رجلاً منهم، لم يكن له إلا ابن صغير، فخلا به، ثم قال:

أخبرني إن أصابتك القرعة غداً، أليس تثكل واحدك؟

قال: فما أصنع؟

قال: فأنا رسول جميع أصحابك إليك، وقد تعاهدوا جميعاً، سواك، على الامتناع من هذه السنة، التي أثكلتنا أولادنا، ونغصت علينا عيشنا، وليس للملك في ذلك منفعة.

قال: وقد أجمع رأيكم على هذا غيري؟

قال: نعم.

قال: فأنا أسرعكم إليه، وأحرصكم عليه، لتخوفي على واحدي.

فاستحلفه، حتى استوثق منه.

ثم دار إلى آخر، فقال له:

إنا قد اجتمعنا على الامتناع من هذه السنّة التي

قد أفنت أولادنا، وأهلكتنا، ولم يبق غيرك.

قال: فإني أبايعكم.

فاستحلفه، حتى استوثق منه.

ثم دار عليهم، واحداً واحداً، حتى أجمعوا على رفض تلك السنة.

فلما كان ذلك اليوم، حضروا عند الملك، وفرغوا من غدائهم، ولم يأتوه بالصبي المشوي، فقال الملك: على من كانت النوبة؟

قالوا: دع عنك هذا، فإنا قد اجتمعنا على رفض هذه السنة، لا تنفعك، وقد أضرت بنا، وأثكلتنا أولادنا.

قال الملك: فعزمت عليكم، أيكم البادئ بهذا؟

فأخبروه؛ فأخذ التاج عن رأسه، ووضعه على رأس ذلك الرجل، وقال لهم:

يا مجانين، إنما كنت أمتحنكم، هل فيكم أحد ينكر المنكر؟ فلم يكن غير هذا! وقد كبرت سنّي، ودنا أجلي، ولست أرى أحداً أولى بالملك منه؛

فاسمعوا له، وأطيعوا، فقد ملكته عليكم» .[1]

والغش في النصيحة يأتي من حانق أو غضبان، يديره الغضب، ويدبره الحنق والسخط، وينسى الغاش كل أمر حميد، وسبب خيرّ، يردعه عن الغش، ولا يذكر إلا مصلحته في ذلك؛ ولا حد للضرر يأتي من هذا العمل، وهناك قصة تروى تمثل مثل هذا الغش في الرأي، والنصيحة المتحيزة، وهذه القصة تروى هكذا، والله أعلم بصحتها:

«لما خرج الأحنف مع مصعب بن الزبير، أرسل إليه بمئة ألف درهم، ولم يرسل إلى «زبراء» جاريته بشيء؛ فجاءت حتى قعدت بين يديه، ثم أرسلت عينيها، فقال لها:

ما يبكيك؟

قالت: ما لي لا أبكي عليك إذا لم تبك على نفسك، أبعد نهاوند، ويوم مرو الروذ، صرت إلى أن تجمع بين عارين من المسلمين؟

(١) لطف التدبير: ٣٦.

فقال: نصحتني والله في ديني، إذ لم أنتبه لذلك.

ثم أمر بفسطاطه أن يقوض: فبلغ مصعباً ذلك، فقال:

ويحكم من دهاني في الأحنف؟

فقيل له: زبراء.

فبعث إليها بثلاثين ألفاً، فجاءت حتى وقفت بين يديه، وأرسلت عينيها، فقال:

ما لك يا زبراء؟

قالت: جئتَ بإخوانك من أهل البصرة تزفهم كما تزف العروس، حتى إذا صيّرتهم في نحور أعدائهم أردت أن تفت في أعضادهم؟

قال: صدقتِ والله، يا غلام، دعها.

فاضطرب العسكر، وقيل هاجت زبراء، فذهبت مثلاً». [1]

وهذه قصة جيدة في تصوير الغش الذي نحن بصدده، ولكن قبولها على أنها قصة متخيلة أسلم

---

(١) لطف التدبير: ١٩٨.

من قبولها على أنها قصة واقعة، فالأحنف معروف بذكائه ودهائه، لا تلعب به جارية تشير عليه بالنكوص عن القتال، وتأتي لذلك بحجة، كأن الأحنف يحتاج إلى من يذكره بها؛ ثم تشير عليه بأن يستعد للقتال، بحجة أخرى. لابد أن الأديب، الذي ألّفها، ليرفع من شأن عقل زبراء، ويؤكد تأثيرها عليه، تعب في إيجاد حجتين قويتين لنكوص الأحنف ثم إقدامه.

ويأتي الغش في أمر مضحك، ولكنه لا يخلو من انتقاد؛ وقد يدخل فيه عقاب في الآخرة، إذا لم يُسْتَحَلّ مَنْ غَشَّ، وهذه قصة عن ذلك:

«قيل أتى طفيلي دار قوم، قد أعرسوا، فدنا من الباب، فَدُقَّ في صدره، ومنع من الدخول؛ فأخذ إحدى نعليه، فجعلها في كمه، وعلّق الأخرى في يده، وأخذ خلالاً يتخلل به، ودنا من الباب، فقال:

يا عبدالله، إني نسيت إحدى نعلي داخل الدار.

فقال له البواب: إنما كنا نمنعك من الدخول

للغداء، فأما إذا تغديت، فادخل.

فدخل، وجلس مع القوم، فأكل، وخرج». [1]

لقد غش هذا الطفيلي البواب، ولكن الجوع - كما يقولون - كافر، وقد فتق حيلة هذا الطفيلي، فاهتدى إلى طريقة من الغش يدلس بها، ويكسب من ورائها.

***

(١) لطف التدبير: ٢٢٣.

إقدام وإحجام[1]

كلمتان تحتهما ما تحتهما من معانٍ، الأولى تتجه إلى الأمام بصاحبها، والثانية تبقيه في محله، أو ترجعه إلى الوراء، الأولى في الغالب محمودة، والثانية في الغالب مذمومة، الأولى على هذا، فيها كسب، والثانية فيها خسارة؛ الأولى يتصف بها أناس، والثانية يتخلق بها أناس آخرون، أصحاب الأولى أشترك في فعلهم طبيعة وتربية، وأصحاب الثانية مثلهم.

والكلمتان المرادفتان «لإقدام» و «إحجام» هما «شجاعة» و «وجبن»، وما ذكرناه أولاً تلطيف وتخفيف، وهي محاولة للسير مع العادة الحضارية في إلباس بعض المعاني ثوباً يخفي بعض الحقائق المعيبة، التي رغم صدق الكلمة عنها، إلا أنها تؤذي الأذن، وتنفر السمع.

وما دام أننا اعترفنا بأن الأمر يعود إلى الطبيعة في

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٣٥) في ١٩/ ١/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٧/ ٦/ ١٩٩٥م.

الإنسان، والتربية التي تلقاها، فكأننا نعطيه عذراً إذا جاء جباناً، ونقلل من فضله إذا جاء شجاعاً، تماماً كما تقول للذكي والغبي، فالله سبحانه هو الواهب، وهو الجاعل لكل إنسان طبيعة وخلقًا، ومقدرة على استيعاب التربية، وما هيأه الله له منها.

ورغم أن الشجاعة والأقدام والإحجام والجبن، ليست خاصة بأمر بعينه في الحياة، إلا أنها تنصب، عند الحديث عنها مجرداً، على الإنسان في ميدان القتال، وإلا فإن من الشجاعة والإقدام أن يقول الإنسان الحق على نفسه، وعلى غيره، ومن الشجاعة أن يُقِرَّ الإنسان بخطئه إذا تبين له ذلك، وأن يختار الأمر الصعب إذا كان هو الذي فيه الفائدة، وأن يكمل عملاً إذا بدأه، وقابلته صعوبة، وأن يصبر على ما يأتي من الزمان فيما لا يتماشى مع ما يحبه، وما خطط له؛ أما إذا فعل ما يخالف كل ذلك فقد اتصف بالإحجام والجبن، وخلد إلى ما ظنه راحة، واكتفاءًا، وهو في الحقيقة راحة مؤقتة، يخسر فيها

الإِنسان أكثر ممّا يكسب، ويضيع أكثر ممّا يحرز.

ويقول المثل العامي «المراجل تغيب وتحضر»، فالشجاع في أي ميدان من الميادين، التي تتطلب الشجاعة، قد يحجم في أمر يستغرب منه الإحجام فيه، لصغر الخطر قياساً على ما هو معروف عنه من إقدام؛ وهذا يؤكد أن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، يعطيه متى شاء، ويمنعه متى شاء، وعلى المرء أن يتذكر دائماً ضعفه؛ وقد يرتبط الخوف والجبن ببعض الناس في جانب، ويكون ذلك ثابتًا، ولكن صاحبه في جانب آخر، أشد خطراً، وأقرب إلى هاوية الهلاك، يبدي شجاعة نادرة.

وأذكر أن رجلاً شجاعًا كان لا يهاب في بعض المواقف التي يحجم عن الإقدام فيها أقسى الرجال قلباً، ولكنه لا يطيق أن تقترب منه الخنفساء، أو تحل قريباً من داره، ولو أوهمته ـ وهو يصلي ـ أن في يدك خنفساء، لقطع صلاته، ولاذ بالفرار، ولو من نافذة الغرفة، وقد كاد أن يهلك بالسقوط من الطابق

الثالث في موقف فكاهة أُوهم فيه بأن أحدهم معه خنفساء، وسيحذفها عليه!

وكثير من النساء يرعبن الرجال، ويسقطن القلوب من معاليقها، بكلمة أو صرخة، أو تسديد بندقية أو مدفع في ميدان القتال، تصفرّ وجوههن، وترتعد فرائصُهن، ويرجعن كالأطفال، وذلك عند رؤية فأر، وكثيراً ما أخذ هذه الصورة بعض أصحاب الصور المضحكة، فأبرزوا امرأة قد قفزت على كرسي، جامعة أطراف ثيابها ومتحفزة للقفز، وتحتها بجانب الكرسي، فأر، قد أعطى نفسه حريتها، في ذرع الغرفة، جيئة، وذهاباً، وكأنه يتمتع بتعذيب هذه المسكينة.

وقد يكون الإحجام لأن المحجم أدرك مدى الخطر، ومقدار الأذى الذي سيأتي منه؛ والمُقْدِم لم يره، لأنه لم يفكر فيه، وشغله عن ذلك، التفكير في الإقدام، وطريقته فيه، والمكرمة التي سوف يحظى بها، على إقدامه، عند نفسه، وعند الناس، وقد يكون

في الأمر خدمة وطن، أو دفاع عن أمر غالٍ وعزيز.

وقد يبدو من إنسان جبن، وتدلل عليه الحوادث والأيام، ثم فجأة يأتي منه شجاعة غير منتظرة، ويتبين أنه شجاع في طبيعته، ولكنه لم يكتشف هذه الشجاعة، إلا عندما وجدت طريقها إلى الخروج، عن طريق الظرف الذي فتح لها الباب المغلق، وجاءت ضرورة في أول الأمر، ثم أصبحت عادة.

والشجاعة يحكمها عامل نفسي، وذهني، ولا أحد غير الشجاع يعرف ماذا يدور في ذهن الشجاع ونفسه، وهو يقدم، ولا ما في ذهن الجبان ونفسه، وهو يحجم؛ ولكن مما لا شك فيه أن التفكير والنفس وراء حركة الإقدام، وسكون الإحجام. ولا شك كذلك أن المقدم يضع أحياناً أمامه خطأ عدوه الذي سوف يأخذ الحق، أو الثأر منه، وفداحة ما أقدم عليه، ووجوب إيقافه عند حده، حتى لا يستمرئ الأمر، فيكرره، وينسى الشجاع حينئذ المخاطر والمخاوف، أو لعل عوامل الإقدام تغطيها، فلا يتبين

منها إلا شبح، لا يكفي لإحجام المقدم المندفع.

أما المحجم، فما يبرز أمامه إلا الأخطار المحيطة بالإقدام، والعواقب التي تأتي من ذلك؛ ثم النظرة إلى أن غيره أولى أن يُقدم، وسيجد حينئذ الأعذار للتنصل، وتعليق الحق على غيره. فيبقى حينئذ محجماً باقتناع، ولا يخطر بباله أمر من الأمور التي مرت بذهن المقدم، أو بنفسه.

وفي التراث من أمثلة الإقدام والإحجام، الملفت للنظر، والخارج عن المعتاد، الشيء الكثير، وما على المرء إلا أن يختار منه ما يدخل في حدودِ تصنيفٍ يرتضيه، وتقسيمٍ يبتدعه، وقد حرص السابقون على تدوين هذا وأمثاله، لما يجدونه في أنفسهم من انجذاب إليه، وما يرونه من إقبال الوراقين على تخاطفه، وإشاعته بين الناس، وما يجده الناس فيه من لذة ومتعة.

والقصة الآتية تبين أمراً خارقاً للمعتاد، وتصرفاً شاذاً عما تعارف عليه الناس، وما يتوقعونه، ولهذا

سارع مدون القصة إلى تدوينها، وهي فعلاً تستحق التدوين، لما يبدو فيها من تناقض:

«بينا عبدالله بن خازم السلمي عند عبدالعزيز بن زياد، إذ دُخل عليه بجرذ أبيض، فعجب منه؛ وقال:

يا أبا صالح، هل رأيت أعجب من هذا؟

وإذْ عبدالله قد تضاءل، حتى صار كأنه فرخ، وأصفرّ، حتى كأنه جرادة ذكر. فقال عبد الله.

أبو صالح، يعصي الرحمن، ويتهاون بالشيطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد الورد، ويلقَى الرماح بوجهه، قد اعتراه من هذا الجرذ ما ترون! إن الله على كل شيء قدير». [1]

هناك أمر نفسي أوجب هذا الموقف، فالشجاعة المتناهية في جانب، والإقدام فيه، قابله جبن متناهٍ، وإحجام مرعب، في جانب آخر؛ الإقدام كان ملفتاً للنظر، لأنه قد تعدى الحدود، ونال الإعجاب، والإحجام أدهش الناظر، لأنه لم يكن متوقعاً، بعد

(١) عيون الأخبار: ١/ ١٦١.

المقارنة بالمواقف الأخرى.

لعل هناك عقدة نفسية داخل صدر عبدالله بن خازم، حيكت بسبب حادثة في الصغر، خزنت في الذاكرة، متجهمة حينئذ، أو تضخم حجمها مع مرور الأيام، مثلما حدث لصاحب الخنفساء، ورعبه منها، على حقارتها، وقلة أذاها، والفأرة هنا مثلها، خاصة وأنها في سجن منيع، في حالتها الحاضرة، وكثير من الأمور المماثلة لهذه الحادثة، والتي تأتي خارجة عن نطاق المعقول، يكون مردها إلى مخزون نفسٍ، تجمع وتعقد، وأصبح قوة قاهرة، تتصرف في عمل صاحبها، تديره كيف شاءت، وتوجهه كيف أرادت.

والإقدام على الشيء الكبير الخطر، والاستهانة به، والإحجام عن الشيء الصغير، والخوف منه، لا يستغرب عندما يعرف السبب؛ وأذكر قبل ما يقرب من ستين عاماً، في رحلة لي مع جماعة في سيارة كبيرة، من مكة في الحجاز، إلى عنيزة في القصيم، أننا وقفنا،

في أحد الأيام، عند منتصف النهار، للراحة والغداء؛ وجاء وقتُ ذَبْحِ الخروف، وكان أغلب القوم قد ذهبوا للرّيّة، وجلب الماء، ولم يبق إلا نحن الصغار، واثنان، أحدهما قائد المجموعة، ومقامه لا يسمح له بذبح الخروف، وسلخه، وتقطيع لحمه، والآخر، وهو رجل شجاع، عرف بإقدامه في الحروب، وجرأته المتناهية، إلا أنه أبى أن يقوم بهذا العمل، وقال: إنه لا يطيق ذبحه، ولا رؤية ذبحه، وكان هذا مبعث دهشة لنا، ولكبير القوم، والذي لم يخف تعجبه، وسأله عن أسباب ذلك، وكيف أنه يقدم على قتل الرجل، ولا يقدم على ذبح الخروف.

لقد جاء جوابه صادقاً في فحواه، قوياً في مدلوله؛ أبان حقيقة لم يكن لها أن تتبين إلا من رجل شعر بالشعور الذي وصفه الرجل، فلقد قال:

إن قتل الرجل لا يضيرني، ولا يزعجني، لأنه يأتيني هاجماً فاتناً، يريد قتلي، أو آتيه أنا، عارفاً أني إن لم أقتله قتلني، فحركة الذهن هذه تنسيني أني

أقدم على قتل رجل، حُمل به تسعة أشهر، وأُرضع سنتان، ورُبي ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً، ونضج، وأصبح عضواً يمكن أن ينهض بالمجتمع.

أما الخروف، فليس بيني وبينه أي عداء، ولا أخافه، وهو مسالم، ويقف أمامي، لا حول له ولا قوة، وإذا كنت أرى في وجه الرجل الحقد والعداء، وفي تصرفاته الغضب والتوثب، فإني أرى في عين الخروف إنكسارًا، وعتاباً، يشل يدي، ويذهل عقلي، ولولا أني تعودت على أكل اللحم، وأصبح مجرى تفكيري فيه آخذاً منحنى آخر، لما أكلت اللحم.

لقد كشف الرجل عما أذهل، وفاجأ السامعين بما لم يكن في حسبانهم، ولم يخطر على بالهم، ولقد قبلوا منه ما قال، ولم يكن الأمر غريباً على الذين ذهبوا ليأتوا بالماء، عندما أُخبروا بالأمر، واعتذر لهم عن تأخر الغداء لهذا السبب، وصاروا هم المعتذرين، لأنهم كانوا يعرفون هذا الرجل، وطبيعته، وأبدوا هم العذر أنه سهي عليهم أن يتنبهوا لهذا، ويقوموا

بذبح الخروف، قبل الذهاب لجلب الماء.

وإذا كان الجبن قد يعتري الشجاع في بعض المواقف، والإحجام قد يتصف به من تعود على الإقدام، فإن الأمر قد يأتي بخلاف ذلك، فيقدم محجم في بعض المواقف، ويبدي جبان شجاعة نادرة، وقد يكون هذا ملفتاً للنظر، ولكنه عند التمعن والتبصر، والتفكير العميق، يتبين أن له أسباباً، إذا عرفت، أزالت اللبس، وقضت على الدهشة. والقصة الآتية تمثل هذا الموقف:

«كان في بني ليث رجل جبان بخيل، فخرج رهطه غازين، وبلغ ذلك أناساً من بني سُليم، وكانوا أعداء لهم، فلم يشعر الرجل إلا بخيل قد أحاطت بهم، فذهب يفرّ، فلم يجد مفرّا، ووجدهم قد أخذوا عليه كل وجه، فلما رأى ذلك جلس، ثم نثل كنانته، وأخذ قوسه، وقال:

مَـا عِلَّتِـي وَأَنَـا جَلْـدٌ نَـابِـلُ
وَالقَـوْسُ مِـنْ نَبْـعٍ لَهَـا بَـلاَبِـلُ

يُــرَزُّ فِيهَــا وَتَــرٌ عَنَــابِــلُ
إنْ لَـمْ أُقَـاتِلْكُـم فَـأُنِّـي هَـابِـلُ
أَكُـلَّ يَـوْمٍ أَنَـا عَنْكُـمْ نَـاكِـلُ
لاَ أُطْعِـمُ القَـوْمَ وَلاَ أُقَـاتِـلُ
المَوْتُ حَقٌّ والحَيَاةُ بَاطِلُ

ثم جعل يرميهم، حتى ردهم، وجاء الصريخ وقد مُنع الحي، فصار بعد ذلك شجاعًا سمحًا معروفاً» .[1]

ما الذي جعل هذا الرجل جبانا بخيلاً في أول أمره؟ ماذا كان يدور في ذهنه، حتى جعله يحجم عن الإقدام؟ ما الذي أقنعه بذلك؟ ما الصورة التي كانت في ذهنه عنه؟ وما الإغراء في الجبن والبخل؟ لابد أن هناك شيئًا في تفكيره، ينتهي به إلى حبه لنفسه حباً ساذجاً، فهو يبعدها عن مجالات الفناء، ويحمي ماله من أسباب الإفناء، همه البقاء لنفسه ولماله؛ هذه الفكرة استولت على كل حيز في ذهنه، فلم يعد لفكرةٍ أخرى أي مكان؛ فهو لا يرى إلا

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٤.

هذا، وهذا يتضخم أمامه مع الوقت، حتى سدّ عليه كل المنافذ؛ ولعل ما ساعده على ذلك، والبقاء على هذه الصفة، كفايةُ قومه، وعدم حاجتهم إليه، بعد أن نفضوا يدهم منه، وأسقطوه من حسابهم، فلم يجد ما يساعده على تغيير رأيه.

أمّا الشجاعة المفاجئة، فقد قفزت إلى مقدمة ذهنه، لا عن طريق التضحية، ومواقف الرجولة، ولكن الأمر، في أوله، كان حرصه على حياته، والإبقاء عليها بهذه الطريقة، بعد أن قفلت عليه كل الطرق، وجاءه القوم من كل جانب، ورأى الموت بعينيه، فرأى أن يُمِيت قبل أن يُمات، فأقدم على ما أقدم عليه، واستعمل السلاح الذي يتقنه.

لقد انفتح في ذهنه طريق ضيق، في أول الأمر، ثم لم يزل يتسع حتى التهم طرق الجبن والبخل السابقة، والتي كانت تملأ ذهنه، حيث لم يبق للشجاعة والكرم مكان معها. استولت على لبه هذه الصورة الجديدة، فلم يعد يرى إلا هي؛ ومع كل سهم

يطلقه، ومع كل نبل يصيب، يزيد شجاعة، ويشتد إقداماً، حتى لقد دخل دور الطرب، فأخذ يهزج بما أصبح يملأ عقله، وكشف بذلك عما كان يشعر به.

لقد اكتشف نفسه، وعرف فضيلته، وعرف أين الحياة وأين الموت؛ ووجد أن الحياة هي في الإقدام على الموت، لأنه حق، ولأنه آت لا محالة، عندما يحين الأجل، وأن الهروب منه لا يفيد، فقد هرب منه بعدم الذهاب مع قومه في الغارة، فجاءته الغارة في عقر داره، وهو غير مستعد لها، وجاءه مبرداً، وهو غير مستعد؛ فالآن آمن بما لم يؤمن به من قبل، وما لم يفكر فيه التفكير السليم، بل كان تفكيره السابق مريضاً مشلولاً، كاد يودي به. والآن فقط شع نور الحقيقة، فرأى على ضوئه الحق والباطل، والباقي والزائل؛ رأى به ما رأى الناس فيه من قبله؛ والآن عانقهم في سيرهم، وحاذاهم في فعلهم: والآن صار مثلهم، وأصبح منهم؛ والآن يرفع رأسه؛

ومادامت الشجاعة فضيلة، فليست هي وحدها كذلك؛ إنّ قومه كانوا يلومونه على انعدامها عنده، ويلومونه كذلك على البخل، إذاً البخل رذيلة، ولقد دل دروب الفضيلة، فلِمَ لا يُتبِع هذه بتلك، ويَسُرُّ قومَه، فيصبح شجاعاً، يكسب من الغارات غنماً، فيُطعِمُ، وينفق، ولن ينقصه هذا شيئاً بل سيزيده ذكرًا حسناً، وصيتاً ذائعاً، لقد فعل.

لعل ما قلناه هو الحقيقة التي كانت تكمن وراء الأمر، ولا شيء غيرها.

والشجاعة يصاحبها العقل أحياناً، فتأتي منها الفضائل كاملة، ويصاحبها التهور، فيأتي منها مفاجأة، نافعة نفعاً طافحًا، أو إخفاقاً متدنياً. وأي أمر يدخله العقل، فهو أرجح، ويمثل الشجاعة والعقل موقف لمعاوية، أبان فيه ما يدور بذهنه، مما كان يحكم إقدامه وإحجامه، مما جعل مشاهداً يعجب من هذا التناقض الذي بدا له في فعل معاوية، والذي أزال اللبس فيه معاوية بالقول الآتي:

«قيل لمعاوية بن أبي سفيان، يوم صفين:

إنك تتقدم حتى نقول: إنك أشجع الناس، وتتأخر حتى نقول: إنك تفر، وإنك أجبن الناس.

قال: أتقدم إذا كان التقدم غنماً، وأتأخر إذا كان التقدم غرماً.[1]

معاوية رجل عربي، من بيت شرف، وبيوت الشرف عرفت بالشجاعة والكرم، ومكارم الأخلاق، فشجاعته جاءته متسلسلة، دون اعوجاج، أو التواء؛ ومعاوية، بعلمه، وتجربته، كسب صفة تساعد شجاعته في أن تؤتي ثمارها، فهو يزن الأمر، فإن رأى في الإقدام كسباً أقدم، وإلا أحجم، حتى تأتي الفرصة، ويسمح الظرف، فالإقدام من أجل الإقدام خرق وجنون؛ الإقدام وسيلة توصل إلى هدف، فإن عرف مسبقاً أنها لن توصل فعدمها خير من وجودها. إن العقل لا يدخل في شيء إلا زانه، ولا يغيب عن شيء إلا شانه غيابه، فهو نور يُري

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٠٠.

الطريق الصحيح، ويكشف ما قد يكون في الظلمة من معوق أو أذى.[1]

والحرب عند العرب في باديتهم كانت جزءاً من حياتهم، يرضع أصولها وآلامها الصبي حتى يكبر، لا تغيب عينه عن مآسيها، مُغِيراً، أو مغاراً عليه؛ ولهذا كانت الشجاعة لازمة من لوازم المجتمع، الحديث عنها دائم، مفاخرة، أو تلمس أعذار، بعضه عن حروب للقبيلة، قديمة، أو أمجاد فيها جديدة، يأتي القول شعراً، أو نثراً، أو أمثالاً أو حكماً؛ إن كثيراً مما قالوه هو في الحرب، وفي جانب من جوانبها.

هذا أحدهم يصف موقفاً من مواقف القوم في الحرب، إنه يتلذذ بالقول، يملؤه بالصور، ويوشيه بالزخارف، ويجمله بالبيان، ويحليه بالاستعارة؛

---

(١) قال عمرو بن العاص لمعاوية: لقد أعياني أن أعلم أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

شـجاع إذا أمكنتني فرصة ... فإن لم تكن لي فرصة فجبان

«البصائر: ٢/ ٥٦».

الصورة في قوله تزهو في العين، حتى لتكاد تمد يدك فتلمسها، يقول في ذلك:

«ذكر أعرابي قوماً تحاربوا، فقال:

أقبلت الفحول تمشي مشي الوعول؛ فلما تصافحوا بالسيوف، فغرت المنايا أفواهها». [1]

لم يكتف بأن يقول مَشَى الرجال إلى الرجال، فلما تقاربوا تقاتلوا بالسيوف؛ إن هذا لا يجزي في حق الحروب، فالرجال استعار لهم كلمة الفحول، وشبههم في ثقل مشيهم، وكبريائهم، وتصميمهم، بالوعول، همت بالمناطحة والعراك، وصوّر أيديهم لما امتدت بالسيوف بالمصافحة، إمعانًا في المغايرة، فسل السيوف، والضرب بها، عداء ما بعده عداء، والمصافحة سلم ومحبة، وأين هذا من هذا؟! ولم ينس أن يصور المنايا وحوشاً فتحت أفواهها بِشَرَهٍ، ونهم، إمعاناً في رسم صورة بشعة للموت، وهو يلتهم الناس والأرواح.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٦.

وأخذ أعرابي آخر زاوية مختلفة عن هذه، وجاء بصورة أخرى، إختارها حسبما رآه مؤثراً، ولائقاً بالحرب، التي لهوتها الرجال والأبطال، وغذاؤها الأرواح، فلا أقل من أن يُختار لوصفها ما يليق من الكلمات والتعبيرات، يقول هذا الأعرابي:

«ذكر أعرابي قوماً اتبعوا قوماً أغاروا عليهم، فقال:

احْتَثُّوا كل جمالية عَيْرانةٍ، فمازالوا يخصفون أخفاف المطيّ بحوافر الخيل، حتى أدركوهم، بعد ثالثة، فجعلوا المرّان أرشية الموت، واستقوا بها أرواحهم» .[1]

هؤلاء قوم أغاروا على آخرين، فأطردهم هؤلاء، على خيل وجمال، ولحقوهم في اليوم الثالث، وضربوهم بالرماح، وأسروهم، هذه هي الكلمات الساذجة، التي لم يخترها الواصف. ولكنه اختار كلمات منمقة، وصوراً مركبة بديعة، فيها خيال مجنح، ينقل السامع من جو إلى جو، فالجِمال فيها من القوة، ومشابهة

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٦.

حمار الوحش، في التفاف جسمه، وقوة عضلاته، ما جعلها من خير ما عرف، ووصف السير المغذ، والطرد الملح، السريع، وتراكب أقدام الجمال على آثار الخيل، وكأنها في تتابعها نعال تخصف، ويخرز بعضها ببعض؛ ثم صوّر، باستعارة بديعة، الرماح اللدنة القوية، وشبهها بالحبال والأرشية، من طولها وتَلَوِّيها، وكثرتها، وتشابكها، وكأنها أشطان أحدرت في آبار، ولكنها لم تستق الماء، وإنما سقياها كانت الأرواح.

والحرب، وما فيها من مكاسب أو خسائر، وما فيها من هَمٍّ، وتحفّز، وما فيها من أرواح أُزهقت، وأجسام مُزِّقت، وجروح نازفة، وندوب باقية، تستحق أن يُعْتَنَى بوصفها، وأن يغاص من أجلها على أبهى الصور، وأن تختار لها أزهى الكلمات.

وإذا كان الرجال في الحرب يشجع بعضهم بعضاً، ويحث أحدهم الآخر، بما يبديه من شجاعة وإقدام، وكر وفر، فإن الواحد منهم قد يكون بألف، بالعمل

المجيد الذي قد ينفرد به، والفعل الحسن الجريء الذي قد يأتي منه، خاصة عندما يحزب الأمر، وتضيق السبل، ولا يبقى إلا التضحية، واستعراض أعمق مظاهر الشجاعة، وأبعد عوارض الجرأة والقوة، قوة القلب، قبل قوة الجسم.

والقصة الآتية تُري ضرباً نادراً من الشجاعة المغلفة بغلاف مشع من الإيمان العميق، والتضحية النادرة، والتفاني في سبيل المجموع، ونسيان النفس، بل وطلب نسيانها:

قال أبو عمرو الصفار:

حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش، فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة:

أين صاحب النقب؟

فما جاءه أحد، فَنادى:

إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء.

فجاء رجل فقال:

استأذن لي على الأمير.

فقال له: أنت صاحب النقب؟

قال: أنا أخبركم عنه.

فأتى مسلمة، فأخبره عنه. فإذن له.

فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:

ألا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة.

ولا تأمروا له بشيء.

ولا تسألوه ممن هو.

قال: فذاك له.

قال: أنا هو.

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال:

اللهم اجعلني مع صاحب النقب». [1]

إن القوة التي جعلت هذا الرجل يفادي بنفسه، في هذا الموقف الشديد، سندها الإيمان العميق، وإرخاص النفس، واحتقار الدنيا، والتعلق بالآخرة،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٦.

في فدائه بنفسه، وفي إخفائه شخصه، وابتعاده عن أي مكافأة دنيوية، سواء كانت عيناً أو معنى.

لقد هز هذا الموقف مسلمة، فلم يعرف ما يفعل، ولم يبق له إلا أن يدعوا الله أن تكون خاتمته مع خاتمة هذا الرجل المؤمن، لأنه أمل فيه خيراً، وإن كان لا يُزكّى على الله أحد.

وللفرسان سياسة، ولهم نهج، ولهم أسلوب في الحرب، قد يخرج عن الضرب والقتل، إلى النّبل والمرءوة مع العدو، فيأتي منهم ما يتنافى مع هدف الحرب، والقتل، وسفك الدم، والهلاك الذي جاؤا من أجله، مشرعي الرماح، مصلتي السيوف، يضرسون، متحفزين، كأن عيونهم عيون الحيات، كما وصفهم أحدهم.

يتباهى فرسان الغرب، أيام الحروب الصليبية، ببعض ما يأتي من فرسانهم، من مواقف الفروسية، التي ينسون فيها أنهم في حرب، وقد يكون هذا مكتسباً من حربهم مع العرب، حيث الوفاء بالوعد، وإنفاذ

العهد وعدم قتل الصغير، والإبقاء على النساء، والكف عن الأعزل، والعفو عند المقدرة، والتسامح مع المستسلم.

وقد كانت حروب الخوارج فيها كثير مما يدهش، ويستغرب، لخروجه عن طبيعة الحرب، والنية فيها، والعزم على الإهلاك والإعدام؛ فتأتي إضاءات توحي بأن لبعض المقاتلين نظرات هي أقرب إلى اعتبار الحرب فنًّا قبل أن تكون مكاسب وانتصاراً. والقصة الآتية تشهد بشيء من هذا:

حدثني عبدالرحمن عن عمه عن رجل من العرب، قال:

انهزمنا من «قطري»، وأصحابه، فأدركني رجل على فرس، فسمعت حسًّا منكراً خلفي، فالتفتّ، فإذا أنا بقطري، فيئست من الحياة، فلما عرفني قال:

اشدد عنانها، وأوجع خاصرتها - قطع الله يديك.

قال: ففعلت، ونجوت»[1].

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٧.

هذا الفارس النبيل أبقى على حياة رجل، كان بإمكانه القَضاء عليه، ولكنه رأى فَرَقَهُ، ولاحظ ذُعْرَهُ، فمنّ عليه، فلم يجهز عليه، بل إنه دلّه على الطريقة التي تساعده على الهرب، وهو الخبير المجرب بالخيل، فكان ـ بإذن الله ـ ما نصح به سبباً في نجاته.

ولا يترأس القوم إلا الشجاع، ولا يقودهم إلا الجريء العاقل، جوده في ميدان القيادة يعلن عنه، والحروب فيها المحك الذي لا يخيب، والمقياس الذي لا يخطئ، تُري الرجل الزاكي من غيره؛ والأحنف ابن قيس رجل عرف بالعقل والرّزانة، واشتهر بالجرأة والشجاعة، سواء كان ذلك في ميدان القتال، أو في مجالس الرجال؛ قيلت عنه أقوال منيرة، ووصف أوصافاً شريفة، وله قصة تُري جانباً من أفعاله، التي استحق بها أن يرتقي، وأن يتقدم:

قال محمد بن سيرين:

بعث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الأحنف ابن قيس، على جيش، قِبَل خراسان، فبيتهم العدو

ليلاً، وفرقوا جيوشهم أربع فرق، وأقبلوا معهم الطبل، ففزع الناس، وكان أول من ركب الأحنف، فأخذ سيفه، وتقلده ثم مضى نحو الصوت، وهو يقول:

إِنَّ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ حَقَّا
أن يَخْضِبَ الصَّعْدَهَ أَوْ تَنْدَقَّا

ثم حمل على صاحب الطبل فقتله.

فلما فقد أصحابُ الطبل الصوتَ أنهزموا. ثم حمل على الكُرْدُوْس (الكتيبة من الخيل في الحرب) الآخر، ففعل مثل ذلك، وهو وحده.

ثم جاء الناس، وقد انهزم العدو، فأتبعوهم يقتلونهم. ثم مضوا حتى فتحوا مدينة يقال لها: مَرْو الرُّوْذ». [1]

هذا الأحنف، قائد الجيش، نسي نفسه، أمام المفاجأة، ولم يذكر إلا هدفَ إعاقة هؤلاء المهاجمين؛ لقد كان عقله حاضراً، لم تذهله المفاجأة، ودله على

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٨.

الخطوة الأولى في هذا الموقف الحرج، فنجح فيما اتخذ، ولم يأت قومه، ليأخذوا أماكنهم، إلا وقد حماهم - بإذن الله - ثم بحسن تدبيره، ويقظته، وسرعة تصرفه؛ إن الشجاعة، مشوبة بالإيمان، ملونة بالمسؤولية، تعاونت على كسب الموقف. هذا هو الأحنف بن قيس أحد الأشخاص الذين امتلأت كتب الأدب والتاريخ بأفعالهم الناصعة، وأقوالهم الحكيمة، فكانوا قدوة في مجتمعهم، يعتز بهم من انتسب إليهم، ويفخر بهم من عرفهم، واختلط بهم.

وأخبار الشجعان تستعاد، لما فيها من إعجاب، وما يقصد فيها من تأسٍّ، وما يتخذ من قدوة، ومثل، والشجاع دائماً يسأل عن الشجعان، وأعمال البطولة والشجاعة؛ وابن هبيرة أمير شجاع، لعب دوراً فعالاً في زمن الأمويين في العراق، ومع جيرانه، وها هو يسأل عن خبر من أخبار القتال، وما روي عن الشجاعة:

«سأل ابن هبيرة عن مقتل عبدالله بن خازم، فقال

رجل ممن حضر:

سألنا وكيع بن الدورقية، كيف قتلته؟

قال: غلبته بفضل فتاء (شباب) كان لي، فصرعته، وجلست على صدره، وقلت له:

يالثارات دويلة (يعني أخاه من أبيه).

فقال من تحتي: قتلك الله! تقتل كبش مضر بأخيك، وهو لا يساوي كف نوى.

ثم تنخم، فملأ وجهي نخامة.

فقال ابن هبيرة: هذه والله البسالة.

استدل عليها بكثرة الريق في ذلك الوقت». [1]

إن الشجاع يعرف حال الشجاع، وقت الحرب، ولحظات المطاردة، وأن هذا مع رهبة الموقف ينشف الريق، ولهذا اعجب ابن هبيرة بوفرة ريق عبدالله بن خازم، في هذا الموقف الصعب، وهذه اللحظة الرهيبة، واعتبرها مظهر بسالة.

وإذا كانت هذه علامة البسالة عند ابن هبيرة،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٨.

فمظهرها عند غيره مختلف، ويأخذ صبغة أخرى، والقصة كمايلي:

«قال هشام لمسلمة:

يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لِحَرَبٍ أو عدو؟

قال: ما سلمتُ في ذلك من ذعر يُنَبِّهُ على حيلة، ولم يغشني فيها ذعر سلبني رأيي.

قال هشام: هذه البسالة». [1]

مساءلة الشجاع عن شجاعته، والحديث عن أمر يخص المواقع التي دخلها، والحروب التي خاضها متعة للسائل، لما يكشفه السؤال من أمور غير متوقعة، أو متوقعة والجواب يؤكدها، وهشام يبحث في سؤاله عن عمق في النفس، غير ظاهر، ولا يعرفه إلا صاحبه: الشجاع، الذي مثل مسلمة، خاض الحروب، واكتوى بنارها، وعانى من ويلاتها، مع عدو متمكن، متمرس؛ وكان جواب مسلمة شافياً، يدل على رباطة جأش في الحروب، ورزانة عند مقابلة العدو،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٨.

فهو يؤكد أنه شعر برعب في حدود ما يجعله يقظاً ومهتماً، يدير في ذهنه الحيل في التغلب على سطوة الحرب، ومفاجآتها؛ فهو على هذا لا يستهين، ولا يتكل، وكل حرب عنده لها همها، ويتبع ذلك ما تحتاج إليه من تدبير واحتيال. ومسلمة لا يذعر، ذلك الذعر الذي يفقده صوابه، فيتصرف بعجلة، أو يزن الأمور بغير ميزانها؛ ذعره موزون، لا يزيد فيضيع معه رأيه، وينشل تفكيره، ولا ينقص فيهمل ويغفل، ويستهين بالعدو، فيؤخذ على غرة.

والشجاعة ليست قصراً على ميدان القتال، ولكنها أحياناً أبرز في غيره؛ وهي ترفع رأسها، وتعلي شأن صاحبها، وعلامتها أن يأخذ صاحبها المبادرة حيال أمر أحجم عن تصحيحه الآخرون، وأقدم على القول الصريح في أمر لم يجرؤ الآخرون على الهمس به، والقصة الآتية تعطي نموذجاً لشجاعة، عدلت مائلاً، ومنعت خطأ، وصححت مساراً، وأيقظت غافلاً، وهدأت هائجًا.

«كان المنصور ولى سلم بن قتيبة البصرة، وولى مَوْلًى له كُوَر البصرة، والأُبُلَّة، فورد كتاب مولاه أن سلما ضربه بالسياط.

فاستشاط المنصور، وقال:

عليَّ تجرأ سَلْم! لأجعلنه نكالا.

فقال ابن عَيَّاش - وكان جريئًا عليه -.

يا أمير المؤمنين، إن سلماً لم يضرب مولاك بقوته، ولا قوة أبيه، ولكنك قلدته سيفك، وأصعدته منبرك، فأراد مولاك أن يطأطئ منه ما رفعت، ويفسد ما صنعت، فلم يحتمل ذلك.

يا أمير المؤمنين إن غَضَبَ العربي في رأسه، فإذا غضب لم يهدأ، حتى يخرجه بلسان أو يد، وإن غَضَبَ النبطي في استه، فإذا غضب وخرئ، ذهب غضبه.

فضحك أبو جعفر، وقال:

فعل الله بك يا منتوف وفعل.

فكفّ عن سلم».[1]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠٦.

إن إقدام ابن عياش، على الوقوف أمام سيل هادر، شجاعة، وإن كلماته لنبع عقل، وإن معانيه لصوغ ذهب، ولقد قال حقاً، وأبان المنطق الذي يحكم فِعْلَ سَلْم، لقد أزال بقوله ما تصاعد من دخان أمام عيني الخليفة فأعماها، فلم يتبين الأمر إلا بعد قول ابن عياش.

ولم يكن ابن عياش واثقاً أن المنطق يكفي دواء لفورة أبي جعفر، أو أن نُقَط الماء الصافي التي دَفقها على نار حنقهِ كفيلة بالأخماد، فأغمد هذا السلاح، وسل على هذا الغضب سلاحًا آخر، وهو سلاح الفكاهة، ونزل درجات دنيا في اللباقة، فجاء بألفاظ مرذولة، ولكنه واثق من وقعها، وقد صح حدسه، فهذه الكلمات سلت من صدر الخليفة الغضب، وجاءت بالهدف المطلوب، وبالنتيجة المخطوبة، والغاية المتوخاة.

ويروي الرواة خبراً تناقلوه، وقصة يكاد لا يخلو منها كتاب، وهي عن جرأة عبدالله بن الزبير، وهو

صبي، وهي كمايلي:

«مر عمر بن الخطاب بالصبيان، وفيهم عبدالله بن الزبير، ففروا ووقف، فقال له عمر:

ما لك لم تفر مع أصحابك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم فأخافك، ولم يكن بالطريق ضيق، فأوسع لك». (١)

إن صحت القصة، فجرأة عبدالله بن الزبير واضحة، وهي مميزة له عن أصحابه الذين فروا، والتعليل الذي أعطاه لعدم فراره، نَضْحُ عقل ناضج في رأس صبي.

والأفراد الشجعان هم عماد الجيش الغازي، أو المغير؛ والنجاح والنصر، بإذن الله، وليس بكثرة الشجعان فيه، ولعل قلتهم أحياناً، مع التنظيم والتكاتف فيها الفائدة، أكثر من كثرتهم مع الفوضى، وعدم التنسيق، لأنهم إذا كثروا تواكلوا، أما إذا قلوا فيبذل كل واحد منهم جهده، ويستميت

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢١٥.

في حماية نفسه، وطلب النصر، له ولمن معه؛ ويصبح الفرد في القتال مرموقاً، يُعرف بذله جهده، أو تقصيره.

ولهذا فالمهتمون بالجيوش وتسييرها، مثل عمر ابن الخطاب، يهمه أن يعرف أعداد المقاتلين في وقعات العرب المشهوة، حتى يأخذ منها فائدة للجيوش التي يرسلها للفتح، ويعرف ما ينصح به القواد، والجند. وبنو عبس اشتهروا بالشجاعة، والأقدام، وبذل النفس في سبيل النصر، وذاع من بينهم صيت عنترة بن شداد؛ وأدخله التاريخ والأدبُ حيز الخرافة والأسطورة؛ وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان متشوقاً لأخبار هذه القبيلة، وأمر قتالها، وشجاعة أبطالها؛ فانتهز فرصة مجيء أحدهم، فطرح عليه سؤالاً همه جوابه:

«قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، لبعض بني عبس:

كم كنتم في يوم كذا؟

قال: كنا مئة، لم نكثر، فنتواكل، ونفشل، ولم نقلّ، فنذل.

قال: فيم كنتم تظهرون على أعدائكم ولستم بأكثر منهم؟

قال: كنا نصبر بعد الناس هنيهة». [1]

والعبسي بهذا يؤكد أنه بجانب الشجاعة هناك شيء آخر، مهم، دلّ عليه العقل، وهو الصبر، وهو يؤدي إلى أن ييأس العدو، أو يمل، فيكون النصر مع الصابر.

والاهتمام بالحرب وعدتها، وفائدة كل واحد منها، مما يهم العرب، خاصة المسؤول منهم، وهناك قصة قد لا تكون صحيحة، وإنما ركبت على لسان من قيلت عنه، ولكنها تمثل الجانب الذي نعنيْه:

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لعمرو بن معد يكرب:

أخبرني عن السلاح؟

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٨. انظر أيضاً: عيون الأخبار: ١/ ٢٠٥.

قال : سل عما شئت .

قال : الرمح؟

قال : أخوك ، وربما خانك .

قال : النبل؟

قال : منايا ، تخطئ، وتصيب .

قال : الترس؟

قال : ذلك المجن ، وعليه تدور الدوائر .

قال : الدرع؟

قال : مشغلة للراجل ، متعبة للفارس ، وإنها لحصن حصين .

قال : السيف؟

قال : قارعتك أمك على الثكل .

قال عمر : بل أمك .

قال : أخبرني عن الحرب؟

قال : مرة المذاق ، إذا قلصت عن ساق ، من صبر لها عرف ، ومن ضعف عنها تلف ، وهي كما قال الشاعر :

الْحَــرْبُ أَوَّلُ مَــا تَكُــوْنُ فَتِيَّــةً
تَسْعَــى بِــزِيْنَتِهَــا لِكُــلِّ جَهُــوْلِ
حَتَّىٰ إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا
عَادَتْ عَجُوزاً غَيْرَ ذَاتِ خَلِيْلِ
شَمْطَاءُ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ
مَكْــرُوْهَــةً لِلشَّــمِّ والتَّقْبِيْــلِ»[1]

ومثل السؤال الذي وجهه عمر إلى العبسي، وُجِّهَ سؤاله إلى بعض بني الحارث، فكان جوابهم كمايلي:

قيل لبني الحارث: كيف تعملون؟

قالوا: كنا لا نبدأ أحداً بظلم، ولم نك بالكثير، فنتخاذل، ولا بالقليل، فنتواكل؛ وكنا نصبر بعد الناس بساعة». [2]

يكاد يكون جواب الحارثي هو جواب العبسي، وقد يكون القائل واحداً، ولكن أحد الراويين وَهَمَ. إلا أن الحارثي أضاف قولاً مهماً، وهو قوله: «كنا

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٩.
(٢) البصـائـر: ٤/ ٢٢٢.

لا نبدأ أحداً بظلم» . فهنا إضافة نفسية مهمة ، فهم على هذا مُهَاجَمُون ، وفي موقف الدفاع عن أنفسهم ، أو غسل عار عن تجنّ من نوع ، أو آخر ، ولهذا فضمائرهم مرتاحة ، وهناك شعور سائد بأن المبتلى معان ، والمعتدي معاق ؛ وهذا الشعور يلعب دوراً في الإقدام ، وغيَاب هذا الشعور يؤول إلى الانخذال . والصبرْ بلاشك مع الذي لم يعتدِ ، وسوف يجانب المعتدي .

والشجاع يقدم وهو يعرف أن الموت منه قريب ، سواء كانت شجاعته فعلاً ، في ميدان القتال ، أو أمام أسد هاجم ضار ، أو ثور هائج ، أو حية مخيفة ؛ أو قولاً ، في موقف حرج ، الأعصاب فيه مشدودة ، والغضب مشتد .

وقد أدت كلمة شجاعة بامرأة إلى الموت ، ولكنها تركت وراءها أثراً مضيئًا في التاريخ ، يشهد لها بالجرأة والإقدام ، ولقاتلها باللّآمة والتدني ؛ والقصة هكذا :

«أُتي محرق غسان بنسوة من تميم، فأراد قتلهن لنذرٍ، فطلبن إليه العفو، فأبَى، فقالت له امرأة منهن:

ما لك، أطال الله سُهادك، وأطفأ رمادك!

والله إن تقتل إلا نساءًا، أعلاهن ثُدِيّ، وأسفلهن دُمِيّ؛ والله ما أدركت ثأراً، ولا محوت عاراً.

فأمر بتخلية النساء غيرها، وقال:

ما أقتلك إلا مخافة أن تلدي مثلك» . [1]

كان بإمكان هذه المرأة أن تُسقط من كلامها الدعاء عليه، وتضع مكانه الدعاء له، ثم تأتي بالكلام المختار المنطق، الذي جاءت به؛ إلا أن روح الجرأة والإقدام غلبت عليها، فلم تخف سخطها، وحنقها، على هذا التصرف الظالم الأعوج. ولقد أقدمت على ما أقدمت عليه، وهي عالمة بما سيأتيها منه، وما تجنيه كلماتها هذه من غضب وعقاب؛ ولعلها تعرف أن محرق غسان، حسب عادته، لن يصغي لقولها، ولن يستمع لكلامها، ولعلها أرادت ـ

---

(١) البصائر: ٢/٢٢٦.

أصلاً ـ أن تنقذ النساء بفدائهن بنفسها، فإن كان، فقد نجحت، ومع الشجاعة والإقدام، نشهد لها بالعقل وحسن التخطيط. هذا إذا صحت القصة.

والشجاعة والإقدام تأتي أحياناً من المنصب، ويغذيها المركز، فالمنصوب يبطش بيد من وضعه في مركزه العالي، والأمثلة أمامنا تكاد لا تحصى، يكون للشخص هيبة، يحل في قلوب الناس منه رعب، وخوف، مادام في مركز، يعطيه السلطة، والتصرف كيف يشاء، فإذا ما أزيح من منصبه، أو أحيل على التقاعد، أصبح أسدًا مقلم الأظافر، مقلع الأنياب، وعُقَابا بدون مخلب ولا منقار، وفي التراث كثير من هذا، يروى هنا وهناك، مفرقاً في أبواب الكتب، حسب حوادثه ووقائعه، وهذا مثل من الأمثلة، التي تصور موقف إحجام، من واحد كان صاحب سطوة وإقدام.

«سمعت ابن كعب الأنصاري يقول:

صار الفضل بن الربيع إلى أبي عباد في مكتبه، يسأله

حاجة، فارتج عليه في الكلام؛ فقال له أبو عباد:

بهذا اللسان دبرت خليفتين؟

فقال: يا أبا عباد، إنا اعتدنا أن نُسأل، ولم نعتد أن نَسأل». [1]

هنا سلطة الفضل، وزير الخليفتين العباسيين، غابت، لأنه ليس في موقف الوزارة، أو الحجابة، يأمر وينهى، يسمح لهذا، ولا يسمح لذاك؛ هنا جاء يطلب حاجة، فماء الوجه هنا غير ماء الوجه هناك؛ هنا هو صاحب اليد الدنيا، وهناك هو صاحب اليد العليا، ولا يَدَ بَشَرٍ أعلى من يده إلا يد الخليفة؛ هناك حضرت الشجاعة بعنق طويل، ورأس مرفوع، وهنا اختفت، ولا وجود لها، إلى الحد الذي جعل الإحجام يملأ فراغها، فيلجم لسان صاحبها.

ماذا يدور في نفس الشجاع، وهو يتمثل الشجاعة، ويتشربها؟ ما هي الصورة التي يرسمها داخل نفسه؟

---

(١) البصائر: ٢/ ٧٤.

ما هو الحوار الصامت، غير المعد، الذي يدور داخل ذهنه، ويشغل باله؟

الجواب يأتي في ثنايا قولٍ، ينسب إلى الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ويأتي هكذا:

«قيل لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:
كيف صرت تقتل الأبطال؟
قال: لأني كنت ألقى الرجل، فأقدر أني أقتله، ويقدر هو أني أقتله، فأكون أنا ونفسه عليه»[(1)].

علي - رضي الله عنه - بنى لنفسه سمعة في مواقع النزال، أصبحت تسبقه إلى خصمه، فتساعده عليه، وتهيؤه للهزيمة بإنزال الخوف في قلبه، وملئه بالرعب، فيدخل الميدان يتنازعه أمران، الأول أنه حتماً مغلوب، والثاني حياؤه أمام قومه من التردد في النزول، والملاقاة، بينما علي - رضوان الله عليه - يأتي مسلحًا بإيمانه أولاً أنه يقاتل بحق، وعن حق؛ وثانياً هو واثق من نفسه بهذا من النصر بإذن الله؛ وثالثاً، يعرف اضطراب

---

(1) البصائر: ١/ ١١٧.

قلب خصمه، وهلعه.

ولكن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ انتهى أمره بهذا، فكيف بدأ حتى زرع في قلوب الأعداء ما زرع؟ هو كما قال، يأتي واثقاً أنه سوف يقتل خصمه، لأنه ملأ نفسه بهذا التصميم، وهيأ نفسه للصبر مهما طال القتال، حتى ينال بغيته، فأمامه هدف لابد أن يصل إليه، ولم يسمح للخوف أن يدخل قلبه، ولم يعط للشك في قتله خصمه فرصة أن يَلج إلى نفسه، وملأها بالثقة أن خصمه مقتول مقتول، بإذن الله، فيعمد إلى هدفه، ولا يحيد عنه.

وقد سئل مرة عن الشجاعة التي امتاز بها، فقال إن السر فيها هو الصبر، وأرى محدثه كيف يتم هذا، فطلب منه أن يعض كل منهما أصبح الآخر، والذي يصرخ أولاً هو المهزوم، وكان أن صرخ الآخر؛ فقال له علي: لو لم تصرخ لصرخت أنا من الألم، ولكني صبرت.

وعنترة بن شداد سئل عن سر شجاعته، فقال ما معناه:

«أعمد إلى الضعيف فأضربه ضربة ينخلع لها قلب الشجاع» وهكذا يمهد عنترة لعمله بشيء هو نسج العقل، وطرح التفكير السليم.

وقوة البدن في أغلب الأحيان تكون سنداً للشجاعة، لأن فيها حِمىً لمن يقدم على موقف يتسم بالتهور، ولهذا لما أدهش فعل الزبير بن العوام في الحرب من راقبه، ورأى فعل سيفه، أبدى إعجابه بالسيف، فغضب الزبير، وأبان أن الفضل لعضده لا لسيفه، والقصة جرت يوم الخندق، وهي كمايلي:

«قيل إن الزبير بن العوام ضرب يوم الخندق عثمان بن عبدالله بن المغيرة، فقطّه إلى القربوس، (الجزء الثاني من السرج، أمام الراكب)، فقالوا: ما أجود سيفك!

فغضب، يريد أن العمل ليده، لا لسيفه».[1]

والحِكَم تأتي ثمرة التجربة في الحروب، والصحابة رضعوا لبان الحروب في الجاهلية والإسلام، وحق

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢١١.

لهم أن يقولوا الحِكَم الصادقة فيها، وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقد أثر عنه أنه قال لخالد بن الوليد، وهو يودعه، لغزوة من الغزوات، في بعض ما وصاه به:

«إحرص على الموت، توهب لك الحياة». [1]

وهو قول سَديد، لأن المرء إذا حرص أن ينال شيئاً استمات في الحصول عليه، يبذل الجهد، ويقدم مستسهلاً الصعب، ويندفع بهذه الصورة لتتفاداه الأبطال، وبهذا تأتيه الحياة، وقد أرخصها، ويبعد عنه الموت، وقد طلبه؛ وقد لاحظ الشجعان، ومن تبصر في مواقفهم، صحة هذا القول، والخنساء منهم، ولقد صاغت ذلك شعراً:

نُهِيْـنُ النُّفُـوْسَ وَهَـوْنُ النُّفُـوْ
سِ يَـوْمَ الكَـرِيَهـةَ أَوْقَـى لَهَـا[2]

ويأتي التأكيد في هذا الأمر من مجرب، جرّب

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٦.
(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٦.

السير في الطريق الذي فيه حفظ الحياة، والحرص عليها، وجرّب الإقدام، وبيع النفس رخيصة، فوجد أن بيعها هو الذي يكسبها الحياة، ويحفظها لها، فيقول يزيد بن المهلب:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيْ الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ
لِنَفْسِيْ حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا[1]

ويكمن خلف ذلك شعور، ذكره الشجاع المشهور، قطري بن الفجاءة، أحد قواد الخوارج المعدودين، ذكر شعره في هذا المجال ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» وهو يستقصى هذا الأمر في باب «كتاب الحرب» والأبيات هي:

وَقَوْلِيْ كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ
مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لاَ تُرَاعِ
فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ حَيَاةَ يَوْمٍ
سِوَى الأَجَلِ الَّذِيْ لَكَ لَمْ تُطَاعِ[2]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٧.
(٢) وتروى هكذا: =

وقول أبو بكر السابق، يعضده، بصدق، قول العرب:

«الشُّجاعُ مُوَقَّى».[1]

ومعنى هذا أنه محفوظ من الموت، باندفاعه نحوه، فالشجعان يخافون جرأته، ورجل مثل هذا لا يتطرق الخوف ـ كما قلنا ـ إلى قلبه.

هذه بعض الأقوال، أو الأفعال، التي جاءت في بعض كتب التراث، معطية صورة أو أخرى عن الحرب، ومن أراد المزيد عن الشجاعة والجرأة والإقدام، فيمكنه الرجوع إلى كتب التراث، فبعضها خصص أبواباً بعينها، تتحدث عن الشجاعة في الحرب، وبثوا بين ثنايا المواضيع، ما يخص الشجاعة الأدبية، والإقدام المعنوي، ومن أبرز الكتب التي اهتمت بما ورد عن الحرب والشجاعة والإقدام

= أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لا تراعِ
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعِ

«عيون الأخبار: ١/ ٢٠٧»

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٦.

«عيـون الأخبـار» لابـن قتيبـة، و «ربيـع الأبـرار» للزمخشري، ومن المفيد الاستزادة مما فيها.

* * *

اللغة أداة رسم[1]

اللغة أداة لنقل الفكر من شخص إلى شخص، أو أشخاص، عن طريق الحديث، أو الكتابة، والأدوات تختلف في عملها بين القوة والضعف، وكلما كانت مادة الأداة منتقاة حسب أصول نوعها، ومتوفرة لها النوعية العالية، كان أداؤها أكمل، وفعلها أسلم، ويأتي بعد انتقاء المادة سبكها بالشكل الأمثل لأداء دورها، ولتحقيق عملها في أتم صورة.

واللغة على هذا تُختار كلمتها، ثم جملتها، لتؤدي المعنى المقصود، بالدرجة المرادة؛ وتأثير الكلمة يتوقف على هذا الاختيار، ويأتي نتيجة الانتقاء؛ والكلمة تعطي المعنى في حدود أدنى درجاته، فتكون بهذا مجزية فقط، ولكن بعض المتكلمين الفصحاء، والكاتبين البلغاء، لا يقف

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٤٢) في ١٤١٦/١/٢٦هـ الموافق: ١٩٩٥/٦/٢٤م.

طموحهم عند هذا الحد المجزي، بل يسعون إلى ما هو فوق هذا، فيقتنصون صوراً متخيلة، يرسمون بريشتهم لوحة منها، تأخذ بالألباب أحياناً، وإذا كان رسام الصور الحقيقية، يعمل بفرشة معيّنة، وألوان منتقاة، فإن المتحدث، أو الخطيب، أو الشاعر، أو الكاتب، له وسائل رسم تقوم مقام هذه، فترسم صور أفكار، يكاد السامع، أو القارئ، يمد يده، فيلمسها، لبراعة الرسم فيها، ودقة الأخراج، وبعد الخيال. ومن هذه الصور يأتي التأثير، ويكون الانفعال.

والأمثال في اللغة وسيلة من هذه الوسائل، لما تحمل من صور مؤثرة، ينفعل لها السامع، ويتجاوب معها، لأن في صياغتها خيالاً، يخرج عن التعبير المعتاد، والجمل المجزية؛ فيها رقي فكري، يشد السامع والقارئ، وينقله من جو إلى جو.

والاستعارة من وسائل التعبير العربي البديع، وعن طريقها ترسم صور جميلة، تنقل السامع من

محيط إلى محيط، ومن جوّ إلى جو، تنقله من واقع الحقيقة إلى واقع الخيال، الأمر المتحدث عنه في حقل، والتعبير في حقل آخر، ويبقى خيط رفيع، أو متين، يصله بأصله، حتى لا تنقطع الصلة، ويجمح الخيال، فقد يكون الحديث عن الإنسان، فيُدخل إلى صفة الحيوان، إن مدحاً، وإن ذمًّا، وقد يكون الانتقال من الإنسان إلى الجماد، وقد يكون الأمر بعكس ذلك؛ وقد يوصل بين الإنسان وحشرة، أو دودة، مع بقاء الوصل دقيقًا رقيقًا، يلوح في الأفق، حتى تبقى الصلة، ويدوم التلازم.

والتشبيه، وإن كان فيه بعض الشبه بالاستعارة، إلا أنه لا يصل إلى عذوبة الاستعارة، ولباقتها، ونعومتها، ففيه بعض الخشونة، لأنه أقرب إلى القول المباشر، والانتقال بوضوح بين المشبّه والمشبّه به، وهو مثل الصراحة في الرأي يأتي دون تزويق؛ بينما الاستعارة تدور حول الأمر بهدوء، وتتسلل، حتى تأخذ مكانها، وتستقر فيه.

والاستعارة لا تنفرد بهذه الصفة المحببة، ولكنها تشارك بأنواع البيان والبديع المختلفة، وقد أَثْرَتْ هذه الأنواع اللغة العربية، ووسعتها، وجعلت فيها من المترادفات، ما قد لا يكون في غيرها؛ فإذا كان اسم الأسد واحداً، فالصفات المستعارة جعلته يأخذ أسماء تزيد عن المئة، بعضها مُغرق في الخيال، ولكنه خيال جميل مطرب.

والرسم الجميل في التعبير إذا جاء شعراً، زاد من وقع القول على السامع، وجاء التشبيه والتمثيل بديعًا مثل قول الفرزدق:

إِنِّــي وَسَعْــداً كَــالْحِــوارِ وَأُمِّــهِ
إذا وَطِئَتْهُ لَمْ يُضِرْه اعْتِمَادُهَا[1]

فالفرزدق لم يعمد إلى القول المجزي، ولا التعبير الجاف، فيقول: إنه مهما جاءه من «سعد» من أذى، فإنه لا يحس به، لما بينهما من مودة وتعاطف. لقد قفز الفرزدق من فوق الحقيقة، وركب مركبة الخيال،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٣٥٠.

وأخذنا معه، ورسم بريشته ناقة، ومعها صغيرها، وأرانا علاقة الحنان، والعطف، والشفقة التي تطفح بها نفس الناقة، فإذا صادف أن جاءت رجلها على جزء من جسم ابنها اللدن، فإنها لا تؤذيه، لأن الوطأ وطأ حنان، والرجل رجل أم.

وعندما يقول محمد بن يسير:

إنَّ الأُمُورَ إِذَا اسْتَدَّتْ مَسَالِكُهَا
فالصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا ارْتَتَجَا
لاَ تَيْأَسَنَّ وَإن طَالَتْ مُطَالَبَةٌ
إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أن يَحْظَى بحاجَتِهِ
وَمُدْمِنِ القَرْعِ لْلأَبْوَابِ أن يَلِجَا
لاَ يَمْنَعَنَّكَ يَأْسٌ مِنْ مُطَالَبَةٍ
فَضَيِّقُ السُّبْلِ يَوْمًا رُبَّمَا انْتَهَجَا[1]

وابن يسير ترك الجادة المحفورة، وجانب الطريق المعروف، فلم يقل بكلمات جافة: إذا تعسرت

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٣٦٠.

الأمور فاصبر، فإنها سوف تفرج، ولا تيأس إذا طالت المدة، فإنك سوف تُسَرُّ في نهايتها، وعند بلوغ المطلب سوف تفرح، ولكنه تناول فرشة الرسم، وتخيل أن الأمور لها أقدام تسير عليها، وجواد تسير فيها، وأن بعض هذه الجواد قد تسد، فيقف السالك، فيأتي الصبر سائراً على قدمين، فيفتح مغلقها، ويُسلِّك مُنْسَدَّها.

ثم ينقل الفرشة إلى لوحة أخرى، فيرسم عليها باباً مغلقاً، وطارق يطرق بإلحاح، فيفتح الباب بعد مداومة القرع، ثم يعود مرة أخرى، فيرسم الطريق، ويعالج ما ضاق منه، فيوسعه، ويكاد بوصفه هذا يجعلك تمد يدك لتلمس الصورة المرسومة بأبعادها المختلفة.

وعندما يمسك شاعر فرشته ليصف بعوضة بصوتها، ولسعها، لا يصف هذا وصفاً مجرداً ساذجاً، وإنما يأتي بصورة بيانية، تبعد عن الواقع، وتضفي للموصوف وصفاً خيالياً، يُحَلِّق فيه الشاعر، ومعه

السامع أو القارئ، فيشبه البعوضة في دقتها، وخفتها، وطيرانها بسفاة سنبلة القمح، وهي أحد الرماح التي تأتي في نهاية كل حبة مقفلة في سنبلها، أو شوك البهمى. ثم يؤكد هذه الصورة، وحدة خرطوم البعوضة، بسكين محددة.

والقول المشار إليه يأتي في بيت الشاعر الآتي:

«مِثْـل السَّفَـاةِ، دَائـمٌ طَنِينُهـا
رُكِّبَ فِيْ خُرْطُومِهَا سِكِّينُهَا»[1]

ويأتي مثل مُعبر، يعطي صورة صادقة، رسمتها يدٌ صناع، والمثل هكذا:

«قال الفضل بن مروان:
مَثَل الكاتب مثل الدولاب إذا تعطل انكسر». [2]

لم يقل الفضل إن الكاتب إذا هجر الكتابة وقتاً، صعب عليه العودة إليها مرة أخرى، ولكنه اختار أن يمتاز قوله، فعمد إلى المثل فاستعان به، وقد

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١٠٢.
(٢) البصائر: ١/ ٤٦.

أحسن الاختيار في التعبير عن حقيقة ملموسة، يشعر كل من مارس الكتابة، وزاول فنونها؛ فالمرء إذا غفل عن متابعة الكتابة، وألهاه أمر صرفه عنها فترة من الوقت، وأبعده مدة طويلة، يشعر، عند محاولة المعاودة، أن ذهنه قد صدئ، وكأن دواليبه فقدت لُيونتها، وراحت منها لدانتها، ويجد نفسه أنه كلما كتب جملة طمسها، لأنها لا ترضيه، وكلما اقتنص معنى استعصى عليه، ونفر منه، فإذا جاءت الجملة مقتسرة، والمعاني مبتسرة، لم ترضه، ووجد فيها ما لم يعرفه عن نفسه.

وقد أحسن الفضل في رسم صورة الدولاب، الذي يستخرج الماء، وينقله من مكان أدنى إلى مكان أعلى، فإنه إذا توقف، فخشبه يجف، وحديده يصدأ، فلا يسير كما كان يسير، ولا يؤدي عمله على الوجه الأكمل، وبعد محاولات يائسة سيقف.

وإذا أراد متكلم أو كاتب أن يصف حاله، وما تقتضيه معيشة أولاده، وأهله، وما ينزحونه من

ماله، وكيف أنهم يأخذونه قليلاً قليلاً، حتى لا يدعون فيه شيئًا، فيفتقر بعد غنى، ويخلو جيبه بعد امتلاء، وتصفر يده، فإن أيّاً من هذه الجمل تؤدي الغرض، في إعطاء الحقيقة عنه، وعن أولاده وماله؛ ولكن البليغ صاحب المقدرة الفنية على رسم صورة مؤثرة عن هذه الحال لا يقف عند هذه الجمل المباشرة الجافة، وإنما يعمد إلى شي من الخيال يستعيره، لتأتي صُوَرُهُ شادة للانتباه، ملفتة للنظر من نظر إليها اختزنها في ذاكرته، فلا تنمحي، لأن بجانب الجمال فيها، تأتي الإفادة كاملة، ويتوافر فيها الإبداع، والإبداع حركة فكرية فيها مفاجأة، تهز الفرد، فتوقظه من ما قد يكون ران عليه من ركود الحالة المعتادة، التي هو عليها، وتخرجه إلى حالة من التيقظ، المشوب بالإعجاب، وحينئذ يكون للجملة المرسومة بيدٍ صناع شخصية منفردة، والقول الآتي ينطبق عليه هذا الوصف:

«قال معاوية: العِيَالُ أَرْضَةُ المَالِ». [1]

---

(١) البصائر: ١/ ٢١٩.

الصورة بديعة، والرسم فيها مفاجئ، والتشبيه المنسل معبر، والقول بكامله مقنع؛ ولا يمكن لسامع هذا القول إلا أن يتصور دودة الأرضة، وما يعرف عنها من دأب في قرض الخشب، والقضاء على الأبواب والنوافذ وغيرها، تبدأ بالعامر، فلا تتركه إلا خراباً يبابا، حركتها دائبة، وسيرها خفي، إذا دخلت بيتاً عز على أهله التخلص منها، فهي عدو الممتلكات.

والأولاد بمتطلبات المعيشة الدائمة الدائبة، «مصاريفهم» تقضم المال، يبدأ الأمر تدريجاً، وهم صغار، ثم يكبر القضم والخضم، وهم يَشْمرون سلم العمر، ومع نموهم ينمو الصرف عليهم، ومع نموهم تزيد متطلبات المعيشة عندهم.

هذه الصورة الصادقة ساقتها خطوط التجميل التي أدخلها القائل على تعبيره، فجاء متميزاً، نابها، وهذا القول من معاوية قد يكون من الأقوال القليلة، التي قد يترجح أن معاوية قد قاله، لكثرة ما قيل على لسانه في نصوص أخرى. تُرى متى قال معاوية هذا

القول؟ هل قاله قبل أن يصبح والياً على الشام، أو بعده، أو بعد أن أصبح خليفة، وهل قاله في أول زمن الخلافة، أو بعد حين من توليه الخلافة.

وهناك وصف بديع للجرادة، وقول صادق ينطبق على كل جزء من جسمها، لمسه تعبير المحدث عنها. والقول بصورته المحسوسة هكذا:

«قال ابن الأعرابي: قال وهب:

في الجرادة سبع خلق جبارة:

رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا حمار، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب، وصدرها صدر سبع». [1]

الفنان ليس هو فقط من يرسم الصورة، فتعجب وتؤثر، ولكنه أيضاً الذي يرى فيها ما لا يراه كل إنسان، فله دقة في النظر، وتحديد في الفكر، وسوف لا نرى الجرادة بعد اليوم دون أن نتذكر هذا القول. إننا رأينا الجرادة آلاف المرات فما خطر ببالنا أن نشبه

---

(١) البصائر: ٣/ ٩٦.

أجزاءها هذا التشبيه. ولم يدر في خلدنا أنه من الممكن أن تجتمع هذه الأجزاء من حيوانات خطرة مفترسة، أو قاتلة، أو مؤذية، في حشرة واحدة.

وعين الفنان التي تلتقط الصور الصادقة، مما لم يتنبه له غيره تأتي في القول الذي يلي:

«يقال إن كل إنسان تقع مداواته لما يصيبه من جنس ما يكون منه، فالملاح، إذا لسعه زنبور طلى مكانه بقير، والحجام يشرطه بسكين، والحائك يشده بقطعة خيط، فيسكن عنه، والعجان يضع عليه شيئاً من العجين، وأنا رأيت بعض الوراقين كان يطلي مثل هذا بالحبر».[1]

وهذا قول صدق، ولعلنا نشاهد مثل هذا في مهن أخرى، وما علينا إلا أن نلقي البال، ونحد البصر، وهذه الصور الصادقة لم ينتبه لها إلا أديب له عين لاقطة، تختلف عن أعين من لم يتنبهوا إلى ما تنبه إليه، ولقد جمعه في صورة جعلت الأمر ذا قيمة، وحركت

(١) البصائر: ٤/ ١٠٣.

القارئ إلى أن يحاول أن يتأكد من بعض أصحاب المهن الأخرى، إذا كانوا يفعلون مثل هذا.

-[1] ويرسم أحد أصحاب البطون صورة صادقة، نشرت أجنحتها في ذهنه، فجاء بها للقراء:

«قيل لجمين: ما تشتهي؟

قال: نشيش مِقلي، بين غليان قدر، على رائحة شواء». [2]

هذه هي الصورة التي يشتهيها، جمع أجزاءها، وألف موادها، بوحي من جوعه، ورغبته في الطعام، أصوات في الأذن توحي بالأكل، ومنظر للعين يُشَهِّي، ورائحة تكمل الصوت والمنظر.

ومن أبيات الحماسة تأتي صورة بديعة رسمها من يُظن أنه بَشَامة بن حزَن النهشلي:

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْفُسَنَا
وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الأَمْنِ أُغْلِيْنَا[3]

---

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

(٢) البصائر: ٥/ ١٦٤.

(٣) الحماسة.. عسيلان: ١/ ٧٨.

هذه صورة يغرم بها الشعراء، يوحون للقارئ أن ميدان المعركة سوق تباع فيه الأرواح، وتعرض بثمن رخيص، في ذلك اليوم، وهذا رمز لاندفاع الكماة، ورميهم أنفسهم على أعدائهم، دون حذر، أو توقي، هذه الأرواح الغالية وقت السلم، تباع في يوم الحرب بأرخص الأثمان، وتجلب بأنزل الأسعار.

حتى الشاعر النجدي العامي، سار على النهج نفسه، وجلب روحه في سوق الحرب، مع أرواح قومه، حتى ظن أنه لن يبقى من هذه البضاعة المزجاة شيئاً:

يَا عَمَارٍ بِسُوْق المُوْت مَجْلُوبة
ما هَقِينَا عَلَى الدُّنْيَا لنَا تَالِي

يقول إن أعمارهم وأرواحهم قد جلبت للبيع في سوق الموت، ولم يظنوا أنه سوف يبقى أحد منهم حياً.

ويهرب الطرماح بن حكيم الطائي من ذكر الحقيقة الساذج، إلى قول متخيل جميل، عندما لا يقول إِنَّه

حاصر عدوّه، فلم يستطيع الفرار، وإنما قال إنَّه ملأ الأرض، فلم يترك له منها إلا ما يشبه حجم مصيدة الحابل:

مَلأْتُ عَلَيْهِ الأَرْضَ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا
مِنَ الضِّيْقِ فِيْ عَيْنَيْهِ كِفَّةُ حَابِلِ[1]

والجارم برع، من جملة ما برع به، في الرثاء، وله قصائد وضعت في الصف الأول، وله صور صادقة، ومع صدقها جميلة، لحسن اختياره لخطوط الرسم للصورة التي يرسمها، والألوان التي يستعملها، والطريقة الفنية التي بها يوزّعها ويقسمها، وأنواع البيان، ومنها الاستعارة، وهي إحدى وسائله في هذا، وتكاد قصائده كلها تكون صوراً بيانية، وفي قصيدته التي مطلعها:

ظَنَنْتُ الدَّمْعَ يُسْعِدُ بِالعَزَاءِ
فَهَل أَجْدَى بُكَاؤُكَ أَوْ بُكَائِي

تأتي الصورة الصادقة، المعبّرة، المؤثرة في بيته الآتي:

بِنَفْسِي الرَّاحِلِيْنَ مَضَوا سِرَاعًا
لِوِرْدِ المَوْتِ كَالهِيْمِ الظِّمَاءِ

لا أدري إذا كان علي الجارم، وهو من بلدة رشيد في مصر، قد رأى إبلاً تزدحم على حوض ماء، لترد بعد عطش، إن يكن رآها، فقد أحسن استدعاء الصورة التي اختزنها، وإن لم يكن رآها، فقد أحسن تصور ما سبق أن قرأه في الشعر العربي. لقد أحسن تصوير تتابع الناس في الموت، وكأنه مطلب عسير الْحَفُوا في طلبه، فوجدوه، فتكالبوا عليه بشوق، ونهم.

وقصائد الجارم ملأى بهذه الصور، فلا تكاد تترك صورة صادقة بديعة، إلا وتجد أخرى تسلب اللب.

واسمعه يخاطب الملك فاروق، عند مروره بسفينته الملكية محاذياً مدينة رشيد، بلدة الشاعر، ومطلعها:

أغْدِقْ عَلَيْهَا سَحَابَا وَامْلأْ مَدَاهَا شَبَابَا

ثم يدخل في إحدى الصور الجميلة التي بثها في

قصيدته، حتى لتكاد ترى المادة التي صنعت منها الصورة، التي تعبر في الحقيقة، عن أمر معنوي :

جُزْتَ الطَّرِيقَ فَصَارَتْ   تِبْـراً وَكَـانَـتْ تُـرَابَـا
اليُمـنُ يَحْـدُو ذَهَـابـاً   وَالسَّعْـدُ يَشْـدُو إِيـابَـا
والنَّخْلُ مَا سَتْ وَمَالَتْ   تَشَـوّقًـا واجْتِـذَابَـا

قلب الجارم التراب إلى ذهب، وصور اليُمن رجلاً يسير أمام الموكب ينشر البركة، وهو يوسع له الطريق، وبجانبه السعد يغني متخذاً اتجاه العودة، والنخل عندما مالت، لم يكن بسبب الهواء، وإنما ماست، كما تتمايل الغيد، طرباً وفرحًا وشوقاً، وانجذابا إلى هذا الزائر الملكي.

ثم يلتفت إلى الهضاب، فيكذب كذبة جميلة، ويدعي أنها طأطأت رأسها العالي، احتراماً وتقديراً، وعجب من فعلها هذا، وهي الأبية، الفخورة، التي كانت تنافس نجوم السماء في رفعها رأسها :

تَطَـامَنَـتْ هَضَبَـاتٌ   مَاذَا أَصَابَ الهِضَابَا؟
كانَتْ تُسَـامِـي الـثُّرَيَّـا   وَالْيَـوْمَ تَحـنِي الرِّقَابَا

ورشيد على البحر، وإذا كانت اليابسة بنخلها وترابها، وهضابها، قد شاركت في الحقل، فالبحر يحق له ذلك، فيلبسه الشاعر ثوب الإنسان، وينزله للميدان، فماذا كان دوره؟

وَالْبَحْـرُ يَـدْنُـو وَيَعْلُـو تَطَلُّعـــاً وَارْتِقَـــابَـــا

ثم يقول مستلبا الصور من الخيال، وملبسًا شيئًا ثوب غيره:

والنِّيـلُ يَنْسَـابُ تِيْهـاً بَيْـنَ المُـرُوج انْسِيَـابَـا
كَالْخَوْدِ ضَمَّتْ ثِيَابًا عُجْبًـا وَأَرْخَـتْ ثِيَـابَـا
صَفَـــا لجُيْنًـــا نَقِيّـــاً وَمَـــاجَ تِبْـــراً مُـــذَابَـــا

ثم بعد تصوير أهل رشيد تأتي رشيد نفسها:

لاَحَ السَّــفِيْنُ فَهَـامَتْ «رَشِيْـدُ» تَعْـدُو وِثَـابَـا
وَأَقْبَلَـتْ وَهِـيَ تَـرْنُـو مَـــآذِنًـــا وَقِبَـــابَـــا
تَـــوَدّ خَـــوْضًـــا إِلَيْـــهِ لَـوْ اسْتَطَـاعَـتْ ذَهَـابَـا

ثم يقول:

اللَّـــــه أَكْبَـرُ عَـادَتْ بَعْـدَ المَشِيـبِ كَعَـابَـا

إنْ سُوْئِلَتْ عَنْ سِنِيْهَا قَالَتْ نَسيت الحِسَابَا

والجارم في مواقف الموت بارع في الوصف، وله قصيدة قالها عندما بدأت ويلات الحرب العالمية الثانية، وبدا يسمع صدى بشاعتها، وتتوالى أخبار عنفها، ووحشيتها، يقول منها واصفًا حصد النفوس:

كَأَنَّهُمْ سِرْبُ قَطًا عُطَّشٍ
صَادَفْنَ مِنْ وِرْدِ الرَّدَى مَشْرَعَا
كَأَنَّهمُ وَالنَّارُ من حَوْلِهِمْ
جِنٌّ تَأَلَّوا أن يَبِيْدُوا مَعَا

وله صور جميلة قالها في مدح اللغة العربية من قصيدة مطلعها:

يَا ابْنَةَ السَّابِقِيْنَ مِنْ قَحْطَانِ
وَتُرَاثَ الأَمْجَادِ مِنْ عَدْنَانِ

إلى أن يقول:

كُنْتِ فِيْ القَفْرِ جَنَّةً ظَلَّلَتْهَا
حَالِيَاتٌ مِنَ الغُصُونِ دَوَانِيْ

فهي في خياله جنة في الصحراء، غصونها دانية، ثم يأتي بتاريخها قوة وضعفًا، ويشير إلى اندياحها في البلدان الإسلامية، ثم تلمع صورة براقة في ذهنه، فيسجلها في بيته الآتي:

فَمَضَتْ نَحْوَ مِصْر مِثْلَ قَطَاةٍ
فَــزَّعَتْهَــا كَــوَاسِــرُ العقْبَــانِ

هذا في وقت ضعفها، أما وقد استردّت قوتها، فقد أصبحت كما في هذه الصورة، ويُرجع قوتها إلى عناية «كلية دار العلوم بها» وهي كلية اشتهرت برعايتها للغة وآدابها وتاريخها:

وَأَظَلَّــتْ بِنْــتَ الفَــدَافِــدِ وَالبِيْــ
ــدِ بِــأَفْيَــاءِ دَوْحِهَــا الفَيْنَــانِ
دَرَجَــتْ بَيْــنَ فِتْيَــةٍ وَشُيُــوخٍ
كُلُّهُــمْ يَنْتَمِــي إِلَــى سَحْبَــانِ
وَأَظَلَّتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الخِبَاءِ عَلَيْهِمْ
فَسَبَتْهُــمْ بِسِحْــرِهَــا الفَتَّــانِ

والقصيدة ملأى بهذه الصور المتخيلة، ولكنها صادقة وبديعة، وكان لشعره قبول وتلقف، لما فيه من هذه الصور، ولما فيه من قوة، ومراعاة لأصول اللغة.

ويأتي المعنى الجاف، الخالي من الخيال، الساذج في دلالته، فلا يقبله الشاعر، ولا يرى أنه مادة لبضاعته، فَيَصَدُّ عنه، ويتجافى عن النظر إليه، ويفرد جناح الخيال، فيحلق في سمائه، فبدلا من أن يصف تحريك الريح للثوب يقول ابن المعتز:

وَالرِّيحُ تَجْذِبُ أَطْرَافَ الثِّيَابِ كَمَا
أَفْضَى الشَّفِيْقُ إِلَى تَنْبِيْهِ وَسْنَانِ

لقد رسم الشاعر صورة جميلة لتحريك الريح لأطراف الثياب، لقد قرنها باليد الرؤوم الحانية، التي تمتد إلى ثوبِ نائمٍ، تجذبه برفق، حتى لا يفزع، ويرتعب، إن هذه الصورة لا تخطر أمام إنسان في مخيلته إلا إذا كان فناناً.

والمعنى هذا يبدو أن له منزلة في نظرة الشعراء،

وخيالهم، فهذا الشريف الرّضّي، رسمه بصورة حسية أخرى، ابتدع لها الموضوع، واختار الشكل، ولعبت ريشته بالألوان، فجاءت الصورة هكذا:

وَأَمْسَتِ الرِّيْحُ كَالغَيْرَى تُجَاذِبُنَا
علَى الكَثِيْبِ فُضُولَ الرَّيْطِ وَاللِّمَمِ

صَوّر الريح امرأة غَيْرَى، حانقة غاضبة، تمد يداً قوية، تجذب بها أطراف الثياب، وأطراف الشعر، فنقل الصورة من واقعها الجامد، إلى متخيل متحرك، حركة عنيفة، جميلة، بديعة.

ويختار الفرزدق صورة أخرى مبتدعة، معبرة، توضع مع الصور السابقة، فتزاحمها، وتنافسها، وقد أخذ الفرزدق في هذا جانباً مختلفاً، ولهذا فخطوط رسمه جديدة، وفرشته منتقاة، وألوانه مختارة، وهو يقول عن الريح:

وَرَكْبٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُم
لهَا تِرَةٌ من جَذْبِها بِالعَصَائِبِ

وجذب الثياب قد ورد في البيت، والعنف الذي بدا في هذا الجذب بدا وكأنه أخذ بثأر، وأن هناك حقداً قد اكتنزته الريح للثياب، ويتبعه ببيت آخر يؤكد فيه الصورة، ويحرص أن لا تبهت، فيقول:

سَرَوا يَخْبِطُونَ الرِّيحَ، وَهِيَ تَلُفُّهُمْ
إِلَى شُعَبِ الأَكْوَارِ ذَاتِ الحَقَائِبِ

فهم على هذا يخبطون الريح، كما يخبط الدريس، وهي تلفهم بقوتها، والعراك حام بينها وبينهم؛ تحدهم على الأشدة التي وضعوا عليها الحقائب؛ صورة ناطقة بالعنف والشدة، والصراع بين الإنسان والريح العاصفة.[1]

وتعبث ريشة الشاعر ـ ولعله ابن شهيد، بالألوان والخطوط، وتمازح الخيال، وتمازح الوقائع فيه، فتأتي صورة جميلة، ذات مراتب ومراحل، لعب التشبيه والاستعارة فيها ما يشاء أن يلعب، فجاءت درة من درر الكلام، وجوهرة من جواهر الخيال،

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/ ١/ ٣١٤.

وارتقت اللغة على هذه الأسباب، التي أمسك الشاعر بطرفها، فلم يدعها حتى جاء منها بالمبدع حين يقول:

وَارتكَضْنَا حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ يَسْعَى
وَأتَى الصُّبْحُ قَاطِعَ الأَسْبَابِ
فَكَأَنَّ النُّجُومَ فِي اللَّيلِ جَيْشٌ
دَخَلُوْا لِلْكُمُونِ فِي جَوْفِ غَابِ
وَكَأنَّ الصَّبَاحَ قَابِضُ طَيْرٍ
قَبَضَتْ كَفُّهُ بِرِجْلِ غُرابِ[1]

ركض الشاعر، وصوّر الليل يسعى، ويمشي مشي الناس، وصور الليل يقبل، فيقطع الحبال الموصولة، ويفرق الاجتماع، وينهي السامر، والنجوم كأنها جيش زاحف، بدأ يدخل غبة غابة، ليختبئ في صورة كمين، ينتظر الانقضاض، على جيش مغير مغاير، أما الصباح فيأتي في صورة قانص، يمشي على مهل، ليفاجئ طيراً، فيصيده؛ وإقباله المنير من جهة الأفق شرقاً، يشبه من مسك بيده برجل غراب، وهي

(١) الذخيرة لابن بسام: ١/ ١/ ٢٢٠.

ظلمة الليل المولّي غرباً.

صورة محسوسة، استعارها الشاعر، وواءم بريشته بينها والحقيقة، دون أن يبدو في الأمر تنافر، أو عدم تناسق، أو جفوة اتساق.

وإذا كان الشاعر، في الأبيات السابقة، استعار المظاهِر الحسية، ليرسم عن طريقها خطوط الصورة التي اختارها، فإن الشاعر قد يستعير صورة معنوية لفكرة حسية، كما فعل الشاعر في البيت الآتي، واصفاً النحلة:

وَطَائِرةٍ تَهْوِيْ كَأَنَّ جَنَاحَها
ضَمِيْرٌ خَفِيٌّ لاَ يُحَدِّدُهُ وَهْمُ[1]

لقد حَلَّقَ الشاعر بخياله، فلم يجد صورة تصف رقة جناح النحْلة، وَشَفَافيّته، أكثر من الضمير الذي لا يرى، ولكنه يعرف أنه هناك، وأنه لخفائه لا يستطيع تحديده حتى التصور والتوهم؛ وهذا خيال مجنح، مغرق في البعد، ونادراً ما يلجأ إليه الشاعر،

(١) الذخيرة لابن بسام: ١/ ١/ .

لأنه لا يجيده إلا فطاحل الشعراء.

ويرسم الشاعر رسماً بديعاً، في بيت فريد في خياله، ساهمت الاستعارة في تسيير فرشته، وتحسين خطوط الصورة التي تكوّن منها المعنى البديع، يقول الشاعر، مادحًا:

لاَ طَارَ لِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ
إن لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيْشَ الجَنَاحِ(١)

لقد صور الشاعر حَظّه مع ممدوحه بأجنحة يطير بها محلقاً في السماء، دليل الحظوة، وعنوان القبول؛ ولكن طيرانه في السماء، وارتفاعه عن الأرض، متوقف على الريش الذي سوف يكسوه به الممدوح، وإلا فإن حَظّه لن يرتفع به إلى أعلى، ولن يبرح الأرض، أو ينهض منها!

ويُلبس المعاني ثوب الإنسان، ويجعلها وهي تُلمس كأنها تحس وترى، فيأتي القول حياً، ويعطيه أسلوبُ البديع القبول ويجعله قولاً متميزاً، فالشاعر يقول:

---
(١) الذخيرة لابن بسام: ١/ ١/ ٣٥٧.

لَئِـنْ قَهَـرَ الْيَـأْسُ فِيْـكِ الأَمَـلْ
وَحَـالَ تَجَنِّيْـكِ دُوْنَ الحِيَـلْ[1]

القهر يأتي به الإنسان، والإجحاف منه إلى غيره، ولم يُعرف في علم المحسوس أن اليأس يقهر، ويتعدى بهذا على حق الإنسان، ولكنه يسمح له بذلك، إذا جاءت الدعوى من شاعر اقتنص الخيال، وجعل اليأس يأتي في ثوب رجل، فيقهر الأمل، ثم استمرأ الشاعر رسم هذه الصورة، فأجال فرشته في صورة أخرى، وهي أن التجني لازدياده، ولحدته، وقوته، غلب الحيل، وحال دونها.

وتتوالى صور تقتنصها فُرشة الخيال، وتثبتها على صفحة الحقيقة لامعة مضيئة، وقد ألبست لباسًا غير لباسها، ووضعت في إطار غير إطارها، ولكن القبول خِدْنُها، والجمال صِنْوُهَا، فيها إبداع يعرف الشعراء طريقه، ويعرفون كذلك قبول الناس له، بل وإعجابهم به؛ ومن لا يعجب بهذه الصورة التي رسمتها مخيلة

(١) الذخيرة لابن بسام: ١/ ١/ ٣٧١.

الشاعر، حيث يقول مخاطباً حبيبته المتخيلة:

أَيُوْحِشُنِي الزَّمَانُ وأَنْتِ أُنْسِي
وَيُظْلِمُ لِي النَّهَارُ وأَنْتِ شَمْسِي
وأَغْـرِسُ فِـيْ مَحَبَّتَـكِ الأَمَـانِـي
فَأَجْنِي المَوْتَ من ثَمَراتِ غَرْسِي[1]

الزمان يأتي بالوحشة، ولكنها تضمحل أمام الأنس الذي يحظى به من حبيبته المتخيلة، والنهار يظلم، عداء للشاعر، ولكن حبيبته تعوضه بنور طلعتها عن نور الشمس، وتصبح هي شمسه، ومصدر ضيائه؛ ولا يتأتى هذا القول إلا لِشاعر! ثم يغرس في حقل محبتها الأماني، فيأتي الموت ثمرة لها.

وتتحرك فرشة رسم بيد متقنة، فترسم صورة متحركة للحب، في جانب من جوانبه، تحمل الإبداع والأعجاب، وتعرض منظراً مزدحماً خلاباً لأمر معنوي، لا يرى بالعين، ولا يلمس باليد، عادة، واعتباراً، ولكن أم حمادة الهمدانية جعلت المعنوي

(١) الذخيرة لابن بسام: ١/ ١/ ٣٧٥.

محسوساً، عندما صرفت ذهنها إلى ذلك، مدفوعة بحرارة الحب، ولوعة الصّدّ، والصورة تجمعت في هذا البيت الدائر:

«دَارَ الهَـوَى بِعِبَـادِ اللهِ كُلِّهُـمُ
حتَّى إِذَا مَرّ بِيْ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا»[1]

الهوى تحت ريشة رسم أم حمادة رجل يمشي على قدمين يدور بين المحبين، يعطي كل واحد منهم ما يشتهي، ويواتيه بما يؤمل، منهياً معاناته، وقاضياً على تلوعه، إلا إنه وقف عندما وصل عند أم حمادة؛ فالهوى وَفَى مع غيرها، وتنكر لها، فلوعتها جاءت حرّى، وحرقتها مبيدة.[2] وهذه الصورة من الدوران والحركة، تذكر بالصورة التي رسمها حافظ إبراهيم، وجاءت يوماً في إحدى مقالاتنا، وهي قوله:

وَقَفَ الخَلْقُ جَمِيْعًا يَنْظُرُوْنَ
كَيْفَ أَبْنِي قَوَاعِدَ المَجْدِ وَحدِي

(١) الزهرة: ١/ ٤٦.
(٢) وقد يكون أنه مر بهم عابراً، وحطَّ رحاله عندها!

حضارة مصر، وشاهد من شواهدها الأهرام، قامت تبني أسس المجد، وتعلي أركانه، وحدها دون مشارك؛ هي التي تقص حجارته، وتقطعها من مصدرها، وهي التي تخلط المواد، لتلحم لبناته، وهي التي تضع المقاييس لهندسته، والخطط لهيكله، ولحمته وسداه، منظر مزدحم بجدارة في بيت شعر واحد.

والحب، وهو داخلي معنوي، لا يرى منه، ولا يحس، إلا آثاره، وما يظهر على الحبيب من لوعة، وما يطربه عند الوصل، ويشقيه عند الهجر، ويسعده عن اللقاء، ويحزنه عند الفراق؛ وما يُلِمز به عند اللقاء، حتى لا يشعر به الحاسدون، والعاذلون؛ وما يُجِنُّه في ضميره من حب يخفيه، وهيام يكتمه؛ وما في الحب من حرقة، وهيام، شحذ ذهن الشعراء، وسنّ خيالهم، فجاؤا بالصور البديعة، ترسمها ريشة فنان، يُحرك يده شعور غامر، لا يرضى منه إلا بالإتيان بما يبدع ويعجب.

والقطامي، بأبياته الآتية، يرسم أحد هذه المعاني،

بصورة حسية يدخل منها إلى تمثيلية، قامت بينه وبين حبيبته في محضر من الناس:

يقول عنه ناشر «كتاب الزهرة» هو عمير بن شييم التغلبي، وهو ابن أخت الأخطل التغلبي، عرف بحسن التشبيب وعذوبته:

وَفِي الخُدُوْدِ غَمَامَاتٌ بَرَقْنَ لَنَا
حَتَّى تَصَيَّدْنَنَا مِنْ كُلِّ مُصْطَادِ
يَقْتُلْنَنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ
مَنْ يَتَّقِيْنَ، وَلاَ مَكْتُومُهُ بَادِي
فَهُنَّ يُبْدِيْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ
مَوَاقِعَ الماءَ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي[1]

وإذا كان الخَلْقُ وقفوا في بيت حافظ إبراهيم ففي بيت أبي الشيص، محمد بن عبدالله بن رزين، وقف الهوى، وأبو الشيص أراد الهوى بعيراً سائراً، ثم وقف، وحارت قدمه، فلا يقدم رجلاً ولا يؤخرها، وهذا كله من أجل الحب.

---

(١) الزهرة: ١/ ٤٧.

فالهوى بعير وقف وعلى ظهره الشاعر المحب، وحق له أن يقف، فحبيبته حيث وقف، هذه هي الصورة الحسية، التي سوف، عن طريقها، يدخل الشاعر إلى شرح ما يجول بنفسه من أمور المعاني، وهي معانٍ مبتكرة وبديعة؛ لأنه يقول عنها أنه يتلذذ بلوم اللائمين، لأن فيه ذكر الحبيب، ويحب الأعداء لأنه مُبعد عنهم، كما هو مبعد عن حبيبته، فهذه المشاركة في الجفوة حببت الأعداء إليه، وأهان نفسه، تقليداً لأهانة حبيبته له، فكيف يكرم نفساً أهانتها حبيبته:

وَقَفَ الهَوَى بِيْ حَيْثُ أَنْتِ فَلَيْسَ لِيْ
متَــأَخَّــرٌ عَنْــهُ، وَلاَ مُتَقَــدَّمُ
أجِدُ المَلاَمَةَ فِيْ هَوَاكِ لَذِيْذَةً
حبًّا لِـذِكْـرِكَ، فَلْيَلُمْنِـي اللُّـوَّمُ
أَشْبَهْتِ أَعْدَائِيْ فَصِرْتُ أُحِبُّهُم
إِذْ كَانَ حَظِّيْ مِنْكِ حَظِّيْ مِنْهُمُ
وأَهَنْتِنِي، فَأَهَنْتُ نَفْسِيْ جَاهِدًا
ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ[1]

---

(1) الزهـرة: ١/ ٥٣.

وتأتي، بسبب الحب، صورة مركبة، رسمتها ريشة شاعر، ، على مسرح مُعَدٍّ إعداداً دقيقاً، لِمُولَّهٍ، أضناه الحب، فقعد قعدة، هيأه لها الشاعر، فكأنك تراه قاعداً أمامك، حزيناً، رائحة الشُّواء تخرج من كبد تحترق، وعينه تبكي، ودمعه يسيح، يرفع يده اليمنى إلى ربه، يدعوه، ويستنجده، ويستغيثه، ويرجو منه العون، ويده اليسرى، فوق كبده الحرّى، الأليمة. لا يعي ما يقال له إذا كُلِّم، لغياب ذهنه، وذهول عقله، ونفسه غائبة لا تعقل؛ تراه، وأنت تكلمه، تظنه يسمع، وهو لا يسمع، وقلبه ليس معك، بل هو ملتفت إلى جهة أخرى، ومنشغل بأمر ثانٍ:

«قال ماني: (الموسوي، محمد بن القاسم المصري):

مُكْتَئِبٌ ذُوْ كَبِدٍ حَرَّى
تَبْكِيْ عَلَيْهِ مُقْلَةٌ عَبْرَى
يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إِلَى رَبِّهِ
يَدْعُو، وَفَوْقَ الكَبِدِ اليُسْرَى

يَبْقَــى إِذَا كَلَّمْتَــهُ بَــاهِتًــا

وَنَفْسُــهُ مِمَّــا بِــهِ سَكْــرَى

تَحْسَــبُــهُ مُسْتَمِعًــا نَــاصِتًــا

وقَلْبُــهُ فِــي أَمَــةٍ أُخْــرَى»[1]

الحب عند غير الشاعر شعور يقف عند حد الزفرات الحرى، مكتوم لا يظهر، وإذا ظهر فبعبارات جامدة، تصف الأمر وصفاً مجزياً، لا زيادة فيه، ولا تزويق ولا خيال؛ أما الشاعر فالحب عنده أمر شريف، يحتاج إلى الشريف من القول، والشريف من القول الذي يتقنه الشاعر هو الشعر، والشعر وحده، لا يكفي، فلابد أن تلعب فيه الاستعارة، ويخالطه المثل، ويشوبه البيان، ويحيط به الإبداع، من صورة مقتنصة، وفكرة جديدة؛ لهذا رسم ماني هذه الصورة لهذا الحبيب الذاهل، ولن تجد حبيباً آخر عند أي شاعر ثانٍ، له هذه الصفة، ويقف هذا الموقف؛ وإن جاء شاعر آخر، وحام حول هذه

---

(١) الزهـرة: ١/٥٦.

الصورة، فسوف يغير بعض المعالم، حتى يوهم أن وحيه في صورته لم يأته من شاعر آخر، ولم يستقه من خارج نفسه. فقد يكون «ماني» اختلس بطرف عينه بعض أبيات مجنون بني عامر، واستفاد من معانيها فيما قاله، وجاء بجزء منها، وأضاف جزءًا من عنده؛ وبيتا مجنون بني عامر هما:

«وَشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الحَدِيْثِ سِوَى
مَا كَانَ فِيكِ، وَحَبُّكُم شُغْلي
وَأُدِيْـمُ نَحْـوَ مُحَـدِّثِـي نَظَـرِي
أَنْ قَدْ فَهِمْتُ، وَعِنْدَكُم عَقْلِي»[1]

ويرسم شاعر صورة مبتدعة للحب الذي سكن فؤاده، ويأتي بقول ينفرد به، ويدخل باب الشريف من القول، والمعنى المتخيل، ويوسع لنفسه مكاناً مع المبتدعين للأقوال في الحب، الراسمي صوراً متخيلة جميلة، تشد، وتسبي، يقول هذا الشاعر إنه أحب قلبه، لأنه أحب حبيبته، ورضي أن يسير خلف قلبه،

(١) الزهـرة: ١/ ٥٧.

يأخذه حيث شاء، راضياً، مطيعاً، متمتعاً، متلذذاً؛ ولما يكابده بسبب هذا، وللعناء الذي يركبه إياه قلبه، وللجهد الذي يجده عليه، وهو لا حول له، ولا قوة، فإنه يكاد يقول لهذا القلب تعساً لك، ويدعو عليه لما جره إليه، ولما قاده نحوه، دون إرادة، أو اختيار.

إنها صورة متراكبة، وشعور متداخل، والبيتان هما:

«أَحْبَبْـتُ قَلْبِـي لَمَّـا أَحَبَّكُـمُ
وَصَـارَ رَأْيِـي لِـرَأْيِـهِ تَبَعَـا
وَرُبَّ قَلْـبٍ يَقُـوْلُ صَـاحِبُـهُ
تَعْسًا لِقَلْبِي، فَبِئْسَ مَا صَنَعَا»[1]

والذهول بسبب الحب، وغياب الذهن، وجنوحه، رغم حضور الجسم، جاء ضمن أبيات مجنون بني عامر، وقد صور هذا الذهول بصورة بديعة، أحسن فيها نقل فكرته، وجاء بما لم يأت به غيره من الصور، وإن كان المعنى يتواصل فيه مع غيره، في

(١) الزهـرة: ١/ ٦٠.

الخطوط العريضة : الذهول . يقول المجنون :

«أُصَلِّي فَمَا أَدْرِيْ إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
أَثِنْتَيْنِ صَلَّيْتُ الضُّحَى أَمْ ثَمَانِيَا»[1]

إن هذا هو السهل الممتنع ، فهذا القول قريب من كل ذهن ، ولكن ليست كل ريشة تستطيع أن ترسم هذا المعنى بهذه الصورة الناطقة المحسوسة .

ومواقف الحب فيها مجال للوصف الدقيق ، والإبداع المتناهي ، سواء جاء القول مختصراً ، أو مطولاً ، وما المهم إلا إبداع الصورة ، وحسن تقديمها ، وهذا سهل على الشاعر المجيد ، لأنه يعرف أنفس السامعين ، ويعرف الطريق إلى ما يعجبهم ، وعنده منه شيء كثير ، وما عليه إلا أن يختار ، ومن هذا قول الشاعر ، راسمًا موقفاً له مع حبيبته ، وكيف تتابع المشهد :

«تَمَنَّيْتُ مَنْ أَهْوَى فَلَمَّا لَقِيْتُهُ
بُهِتُّ ، فَلَمْ أُعْمِلْ لِسَانًا وَلاَ طَرْفَا

(١) الزهـرة : ١/ ٦١ .

فَـأَغْضَيْـتُ إِجْـلاَلاً وَمَهَـابَـةً
وَحَاوَلْتُ أَنْ يَخْفَى الَّذِيْ بِيْ، فَلَمْ يَخْفَ»[1]

ويصور الشاعر موقفاً له مع قلبه، وقد ألبسه روح الإنسان، وصار يأخذ منه ويعطي على هذا الأساس، ففؤاده عندما لم يطعه في ترك حب ليلى، والإقلاع عن الهيام بها، ورغم ما بُذل له من المال، وما حاول أن يتسلى به من وجود الأهل، والاستعاضة بهم، وشغل وقته، وقلبه، بالبقاء معهم. واختياره امرأة أخرى يشغل وقته بها، فيفرغ قلبه من ليلى، لتحتله هذه الجديدة، وهي أقل صدوداً ودلالاً، إلا أن هذه أمور كلها لم تُفِدْه ولم يفده إتصاله بأخرى، والتفكير فيها، لأنها تذكره بليلى، فالدواء أصبح يثير الداء، ويزيده:

«وَلَمَّـا أَبَـى إِلاَّ جِمَـاحًـا فُـؤَادُهُ
وَلَمْ يَسْلُ عَنْ لَيْلَى بِمَالٍ وَلاَ أَهْلِ
تَسَلَّى بِأُخْرَى غَيْرَهَا فَإِذَا الَّتِي
تسَلَّى بِهَا تُغْرِيْ بِلَيْلَى وَلاَ تُسْلِي»[2]

---

(١) الزهـرة: ١/ ٦٤.

(٢) الزهـرة: ١/ ٦٩.

ومع تمجيدنا لفصاحة الشاعر، ومقدرته على جودة التعبير، وحسن اختيار المعاني، التي تخدم غرضه، وما نعرفه عنه من تحليق في سماء الخيال، وإلباسه الشيء لباس غيره، وما يأتي في هذا المجال من صور بديعة، يضغط على الألوان فيها، حتى لتكاد تصرخ بما وضعه فيها، وبما أراده منها؛ إلا أن الشاعر نفسه، في قدرته هذه، وهو بعيد عمن يهواه، وإتقانه القول، واستعداده به للقاء، يصاب بالعي، الذي لم يكن يعرفه، لأن لقيا الحبيبة يأخذ لُبَّه، ويستولي على تفكيره، فينفرط أمام عينه ما نظمه في ذهنه، وهيأه في عقله، وحفظه، ليتسلح به وقت اللقاء.

وهذا معنى من المعاني التي عالجها أغلب الشعراء وهم يتناولون أمور الحب، لا لأنهم يحبون، ولكن في كثير من الأحيان يجارون غيرهم من المحبين، لأن الغزل باب من الأبواب التي يفخر الشعراء بالإجادة فيها؛ لأنها تدل على وصف شعور صادق، ليست مثل المدح الذي قد تكون دواعيه مفتعلة، وليس مثل

الهجاء الذي قد يتلمس له الشاعر من التهم ما لا يؤمن به، ولكنه يفيده في تعميق الإيذاء، وهزيمة الخصم.

والعيّ يقع فيه الفصيح أمام حبيبته أمر مجرب، من الشاعر، ومن غير الشاعر، لأن الحبيب يبني لحبيبته في ذهنه هالة، تتسع وتكبر مع الوقت، وتتجهم مع الغياب، فإذا رآها، تكالبت عليه الصور جميعاً، في وقت واحد، وترك ما كان في يده مما أعده؛ واستسلم للرهبة، والهيبة، والانبهار، ودخل في عالم آخر، غير العالم الذي كان فيه، هادئ البال، يؤلف القول بطمأنينة، ويرص الكلمات والمعاني بهدوء، وخلو بال، إلا من صورة الحبيبة، التي تصور أنه يناجيها.

ومن المعاني في هذا المجال، ومما رسم بصورة جذابة، قول أبي صخر الهذلي:

«وَإِنِّي لآتِيْهَا وَفِي النَّفْسِ هَجْرُهَا
بَيَاتًا لأُخْرَى الدَّهْرَ مَا طَلَعَ الفَجْرُ
فَمَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً
فَأُبْهَتَ لاَ عَرْفٌ لَدَيَّ وَلاَ نُكْرُ

وَأَنْسَى الَّذِيْ قَدْ جِئْتُ كَيْمَا أَقُوْلَهُ
كمَا قَدْ تُنَسِّي لُبَّ شَارِبِها الخَمْرُ»(١)

وآخر من الشعراء عبر عن مثل هذا المعنى بالبيتين الآتيين:

مَا يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي مُذْ هَوَيْتُكُمُ
أَطِيْقُ إِظْهَارَ مَا أَلْقَاهُ باللَّفْظِ
كَمْ قَدْ تَحَفَّظْتُهُ حَتَّى إِذَا نَظَرَتْ
عَيْنِيْ إِلَيْكِ، أَزَالَتْ هَيْبَتِي حِفْظِي(٢)

وقال آخر، ويبدو أن في هذه الصورة جاذبية، تجعل الشعراء يتبارون في رسم خطوطهم، التي تظهر شخصيتهم، ومقدرتهم، وعدم قصور ذهنهم عن أي معنى يخص الحب، والغزل:

«أُفَكِّرُ مَا أَقُوْلُ إِذَا الْتَقَيْنَا
وأُحْكِمُ، دَائِبًا، حُجَجَ المَقَالِ
فَتَرْتَعِدُ الفَرَائِصُ حِيْنَ تَبْدُو
وَأَنْطِقُ حِيْنَ أَنْطِقُ بِالْمُحَالِ»(٣)

---

(١) الزهرة: ١/ ٧١.
(٢) الزهرة: ١/ ٧٣.
(٣) الزهرة: ١/ ٧٤.

ويبدو أن الشاعر، إن كان صادقاً في هذه الأقوال، ولم يقلد فيها غيره، قد فكر، قبل رؤية الحبيبة، فيما سوف يقوله لها، كأن يحاجها في حبه، أو يعاتبها في هجرها، معتمداً على ما ينفعه في القول، ومتخذاً الحجج التي تريحه، والتي تجعل الحق معه؛ ثم يفاجأ منذ أن يفتح فمه أمامها ليتكلم، أنه غاب عنه أن حبيبته أيضاً عندها حجج، تركز فيها على مصلحتها[1]، من هنا يضيع القول عليه، ويتبدد ما عقد منه، ونظم، ويتلاشى ما أعد وهيأ.

وأبو العباس، أحمد بن يحيى، ثعلب، أنشد أبياتاً في هذا المعنى، ساهمت في طرق هذا الجانب الجذاب للشعراء، وهذه هي الأبيات:

«وَإِنِّي لأَخْشَى أَنْ أَمُوْتَ فُجَاءَةً
وفِيْ النَّفسِ حَاجَاتٌ إِلَيْكِ كَمَا هِيَ
وإِنِّــي لَيُنْسِيِنِــيْ لِقَــاؤُكِ كُلَّمَــا
لِقِيْتُـكِ يَـوْمًـا أَنْ أَبُثَّـكِ مَـا بِيَـا

(١) أو لعله الانبهار برؤيتها لا أكثر.

وَقَـالُـوا بِـهِ دَاءٌ عَيَـاءٌ أَصَـابَـهُ
وَقَدْ عَلِمَتْ نَفْسِيْ مَكَانَ دَوَائِيَا»[1]

ومن الصور الجميلة، التي اعتنى برسمها الشاعر، صورة رسمها الفتح بن خاقان، وجاء فيها بمنظر مادي بديع، يقول الفتح:

قَدِرْتِ عَلَى نَفْسِيْ فَأَزْمَعْتِ قَتْلَهَا
عَلَى غَيْرِ جِدٍّ مِنْكِ وَالنَّفْسُ تَذْهَبُ
كَعُصْفُوْرَةٍ فِيْ كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا
وُرُوْدُ حِيَاضِ الْمُوْتِ وَالطِّفْلُ يَلْعَبُ[2]

ومن الصور التي تفننت فيها ريشة الشاعر، فاستقامت أمامنا، صورة سمحت بقبول التناقض الذي جاء فيها، والغرابة التي اتسمت بها:

قال الشاعر:

«مَاءُ المَدَامِعِ نَارُ الشَّوْقِ تُحْدِرُه
فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَاءٍ فَاضَ مِنْ نَارِ»[3]

---

(١) الزهـرة: ١/ ٧٤.
(٢) الزهـرة: ١/ ٧٧.
(٣) الزهـرة: ٢/ ١٣.

لم نسمع إلا مثل ما سمع الريفي عن «السَّمَوَّر» عندما قيل له: إن هناك وعاءاً تجتمع داخله النار والماء، فاستغرب، ثم قال: صدق الله العظيم: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (١)

وتأتي المغالاة مقبولة من الشاعر «ماني» لأنه وضعها في صورة «قربت حاجبا من حاجب» من العجب والدهشة، وتأتي الصورة في البيتين الآتيين:

«أَمَا تَرَيْنِي نَاحِلَ الجِسْمِ
أَصِيْرُ مِنْ هَمٍّ إِلَى هَمٍّ
أُنْقَلُ مِنْ ثَوْبٍ إِلَى دُوْنِهِ
حَتَّى كَأَنِّي بَدَنُ الكُمِّ»(٢)

ويُحْجَرُ الشاعر المحب في ركن ضيق، لما بدا منه مما يخفى، رغماً عنه، فيتنهد وتدمع عينه، فيلفت النظر، فيخرج بالسؤال عن هذين المظهرين المريبين، الموحيين بالحب المخفي، فيعطي تعليلاً بديعًا، يتقي خلفه، مما بدر منه، وظهر:

(١) سورة النحل، الآية: ٨.
(٢) الزهرة: ٢/ ١٨.

«شَيَّعْتُهُمْ فَاسْتَرَابُوْنِيْ، فَقُلْتُ لَهُمْ
إِنِّي بُعِثْتُ مَعَ الأَجْمَالِ أَحْدُوْهَا
قَالُوا فَمَا نَفَسٌ يَعْلُو كَذَا صَعَدًا
أَمْ مَا لِعَيْنِكَ مَا تَرْقَى مَآقِيْهَا
قُلْتُ التَّنَفُّسُ لِلآدَابِ نَحْوَكُمُ
وَمَاءُ عَيْنِيْ جَارٍ مِنْ قَذًى فِيْهَا»(١)

وإذا كان سائلوا الشاعر هذا لم يكذبوه، ولم يقولوا إنهم لم يصدقوه، فقد يكونوا ستروا عليه، خاصة إن كان السائل الحبيبة، ولكن شاعراً لم يسلم عندما أعطى عذراً، اعتبر واهياً، وَجُوْبِهَ بِما ظُنَّ أنه الحقيقة، وهي لم تخف على الحبيبة، أو العواذل:

فَقَالَتْ قَدْ بَكَيْتَ فَقُلْتُ كَلاَّ
وَهَلْ يَبْكِيْ مِنَ الشَّوْقِ الجَلِيْدُ
وَلَكِنِّي أَصَابَ سَوَادَ عَيْنِي
عُوَيْدُ قَذًى لَهُ طَرَفٌ جَدِيْدُ

---

(١) الزهـرة: ٢/ ٢٨.

فَقَـالُـوا مَـا لِـدَمْعَتِهَـا سَـوَاءٌ
أكِلْتَـا مُقْلَتَيْـكَ أَصَـابَ عُـوْدُ؟
فَقَبْـلَ دُمُـوعِ عَيْنِـكَ خَبَّـرَتْنَـا
بِمَا جَمْجَمْتَ زَفْرَتُكَ الصَّعُوْدُ»[1]

ولعل الشاعر الحبيب لم يرد أن ينفي، وإلا لقال إن العين تجاوبت مع الأولى تضامناً وتعاوناً، ولكنه لم يفعل، وأبقى صور الاعتذار بمراحلها التي أراد لنا أن نقبلها.

وتأتي صورة فيها حركة متتابعة، وفيها جهد وفيها محاولة لإنجاح أمر، ولكن الإخفاق يصر على أن يكون هو الغالب، والأبيات ثلاثة، ولكن فيها قصة متكاملة لحدث، ذي مراحل نشطة:

«قال أحمد بن أبي فنن:
وَلَمَّا أَبَتْ عَيْنَايَ أَنْ تَسْتُرَ الْهَوَى
وأَنْ تَقِفَا فَيْضَ الدُّمُوْعِ السَّوَاكِبِ

---
(١) الزهـرة: ٢/ ٢٨.

تَثَاءَبْتُ كَيْلاَ يُنْكِرَ الدَّمْعَ مُنْكِرٌ
وَلٰكِنْ قَلِيْلٌ مَا بَقَاءُ التَّثَاؤُبِ
أَعَرَّضْتُمَانِي لِلنَّدَى وَنَمَمتُمَا
عَلَيَّ لَبِئْسَ الصَّاحِبَانِ لِصَاحِبِ»[1]

وتطل الشعرات البيض، ثم يزيد عددها، ثم ينتشر جيشها، ثم يغمر السهل والجبل، فلا ترى إلا ثلجا أبيض ناصعاً، يخيف من يخيف، ويزعج من يزعج، ومن جملة من يؤرق الشعراء، الذين غنوا للحب، وتغزلوا ما شاءت الحقيقة، أو الخيال، أن يتغزلوا، ثم يصحون للواقع، فيجفلون، فيجعلون شعرهم في الشيب، مربوطاً بالحبيبات، فهن سلوتهم في الشباب، ومجال شعرهم، وتفننهم فيه، وإذا كان لهم أيام الشباب صور مختلفة معينة عن الحب، فهم اليوم لا يستطيعون أن ينتزعوا صورة المرأة من ذهنهم، ولكنها اليوم مصدر ذعرٍ لهم، لأنها ترفضهم، وأحياناً بعنف؛ وتذكرهم

(١) الزهرة: ٢/ ٣٧.

بشمسهم الغاربة؛ ويخلو الميدان منهم لغيرهم، جيل يتلو جيلاً، وزمن يعقب زمناً، ولم يبق إلا الحسرة، تقطر أسىً في شعرهم.

يقول أحمد بن يحيى النحوي:

قَعَدَ الشَّيْبُ بِيْ عَنِ اللَّذَّاتِ
وَرَمَانِي بِجَفْوَةِ الفَتَيَاتِ
فَإِذَا رُمْتُ سَتْرَهُ بِخُضَابٍ
فَضَحَتْهُ طَلائِعُ النَّاصِلاَتِ
مَا رَأَيْتُ الخِضَابَ إِلاَّ سَرَابًا
غَرَّنِيْ لَمْعُهُ بِأَرْضِ فَلاَةِ
لَسْتُ بَعْدَ المَشِيْبِ أَلْتَذُّ بِالعَيْـ
ـشِ، فَدَعْنِي وَغُصَّةَ العَبَرَاتِ
إِنَّ فَقْدَ الشَّبَابِ أَنْزَلَنِيْ بَعْـ
ـدَكَ دَارَ الهُمُومِ وَالحَسَرَاتِ[1]

ويقول محمد بن حازم من أبيات، ويبدع حين يجعل الشيب ثالثهما، هو وحبيبته، وجعل الشيب

---

(١) الزهرة: ٢/ ٥٧.

يجانب مع الحبيبة، ويتهكم بصاحبه، صورة بديعة، رسمها ابن حازم، وهي هكذا:

لَمَّا أَضَاءَتْ بِالمَشِيْبِ مَفارِقِيْ
صَدَّتْ صُدُوْدَ مُجَانِبٍ مُتَجَمِّلِ
فَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا مُتَلَطِّفًا
وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَلاَّ تَفْعَلِي[1]

جمال البيتين، وما قبلهما، مما لم ننقله، في الشطر الأخير من البيت الثاني، فهو الذي فيه الحياة، وفيه الإبداع، وفيه الطرافة، وفيه أيضاً مفاجأة.

ونكتفي من هذا اللون من الصور في هذا اللون من الأدب، وفي هذا اللون من الأغراض الشعرية.

هذه بعض الصور، التي رسمتها ريشة كتّاب أو شعراء، استعاضوا عن ثياب المعاني الأصل، ثيابًا متخيلة، فاستعاروها لها، بطريقة أكسبتها جمالاً، وجعلتها أكثر تأثيراً، وأبعد قبولاً.

---

(١) الزهـرة: ٢/ ٦٠.

والتراث مليء بأمثال هذه الصور، حتى لا تكاد تحصى، ولا تكاد تغيب عن أي صفحة من صفحات كتب الأدب في التراث، وحتى أصبحت الاستعارة، وغيرها من أسلوب البيان والبديع، قريبة المتناول، متفق على مقدرتها على إيصال المعاني بطريقة مؤثرة، وجميلة.

* * *

بلاغة الوصف[1]

الوصف وسيلة وافية في التعبير، وجسر موصل قوي، لنقل فكر من ذهن إلى ذهن، يجيد فيه شخص، ويتفوق، أو يقصر دون الغاية، ولكن هذه الوسيلة لا تفقد أهميتها، مقارنة بالوسائل الأخرى. واللغة العربية أخذت منها حقها وافياً، وثبتت أسلوباً في هذا المجال معترفاً به، ومرحباً به؛ وسعة اللغة العربية، وكمالها، وجمالها، جعلها توجد هذا، وتبثه، وتشيعه.

والوصف رسم صور، تقرب المعنى، وتلبسه ثوب المحسوس، أو تخرجه من محيطه المعنوي إلى محيط معنوي آخر، وهذه نظرة حضارية فكرية متقدمة، فيها احتيال على اصطياد المعنى النافر من ذهن، بشبكة ذهن آخر؛ ولو لم يحدث هذا لانطلق في صحراء الفضاء بين الذهنين، ذهن القائل، وذهن السامع،

---

(١) بدء الجزء المنشور في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٤٩) في ٣/ ٢/ ١٤١٦هـ الموافق: ١/ ٧/ ١٩٩٥م.

وهي دوّ قفر، إن دخلها القول تاه بمعناه!

والوصف يعطي صورة بديعة، قد يكون ثوب الوشي الذي ألبسته الحقيقة أجمل من الحقيقة نفسها، لما نثر عليه من ألوان متعددة من الخيال، حتى اختفت الحقيقة، وبقيت الزبرقة والحناء والخضاب. والأدب يقبل هذا، ويهديه فيقبل، ويتعود الناس عليه حتى تهتز ثقتهم بالحقيقة، ويرون أنها جافة عنده، والوصف يستعير أحياناً ثوب المجاز أو الكناية، وما إلى ذلك من محسنات بديعية، وهذا يجعل المجال للوصف واسعاً، قد لا يلتقي فيه أديبان، يحاولان وصف أمر واحد، وإن كانا في النهاية يصلان إلى الهدف ولكن من طرق مختلفة.

والوصف، وقد تكون لبنته من البيئة في الغالب، يختلف من بيئة إلى بيئة حسب موجود البيئة، وما يتوافر فيها من مواد، وحيوان، ونبات، وطير، وشجر، وبحر، وجبال، ورمال.

فالعصر الجاهلي بإبله، وخيله، وغزلانه، وذئابه،

وضباعه، وثعالبه، وحزونه، ورماله، وجباله، والتضاريس المختلفة، كانت المادة التي شكل منها الجاهلي وصفه، إن كان شعراً أو نثراً؛ والعصر الإسلامي توسع الأمر فيه، فأضاف إلى ما توافر في العصر الجاهلي ما تواجد في البيئة الإسلامية الجديدة، ببلدانها المختلفة، وما فيها من موجودات أضيفت إلى ما عرف من قبل.

ومن ذلك وصف مختصر للناقة يقول فيه راويه:

«وذكر عن أبي صالح الفزاري أنه قال في وصف ناقة:

إذا اكحالّت، وأللت أذنها (نصبتها)، وسجح خدها، وهدل مشفرها، واستدارت جمجمتها، فهي كريمة»[1].

هذا وصف دقيق للناقة الكريمة، جاء نتيجة معاشرة طويلة، ونظرة فاحصة، ومتابعة ملحة، جاءت بتجربة صادقة، وحكم صائب. والوصف

(١) البصائر: ٤/ ١٧٩.

مادي، سهل الفهم، سهل الاتباع والتطبيق. والصورة لا تخلو من جمال لمن يعرفون الإبل، ويقال إن الحيوان، وبالذات الخيل والجمال، تعرف نفسها إذا كانت كريمة جميلة، وتُدِلّ بهذه الصفة، وكأنها تطالب بالاعتراف بها.

والسبب في أن هذه الصفات تدل على الكرم في العنصر، أنها تتناسب وحياة الصحراء القاسية، وما تراد له الإبل، وما يمر بها، وتتعرض له؛ فالعين الكحلاء تدل على صحة البصر، وهو مطلوب للبعير، برقبته العالية، وهو يرى المسافة الطويلة أمامه، فيبصر ما هو آت، قبل أن يدركه راكبه، أو سائقه، وهي ميزة للنفع، وتجنب الضرر، قبل حدوث أي منهما، والعين من أهم الحواس للحيوان.

والتَّمر مادة حضرية بدوية، ومن أهم مواد الغذاء في بيئة العربي، ولهذا كثر وصفها، وتفنن الواصفون، وجاء كل واصف ببديع القول، وجميل الصور؛ ومهما قال في النخلة والتمر، فإنه يقر أنه لم يوفها

حِقها، فهي تستحق أكثر، وهذا حديث جاء فيه وصف التمر:

«قال رجل لشيخ بدوي:
تمرنا أجود من تمركم.
قال: تمرنا جرد فطس، كأنها ألسن الطير، تضع التمرة في شدقك، فتجد حلاوتها في عنقك». [1]

لابد أن هذا البدوي يصف نوعاً مضغوطاً، له عنده، وعند قومه ميزة في شكله الذي وصفه، أما الحلاوة فقد جاء في قوله عنها ما لا مزيد عليه من المدح.

والنخلة لأهميتها هدف للوصف من فصحاء العرب، يأتون عنها ببديع الوصف، وفائق الأقوال، ولحب الرسول ﷺ لها، ومدحه إياها، وحثه على العناية بها، حتى إنه كان يسميها العمة، تقرب الناس بوصفها وصفاً بديعاً، ومن بين من وصفها وصفاً أنيقاً، معتنى به، خالد بن صفوان، حيث قال:

«قال خالد بن صفوان، في وصف النخل:

---

(١) البصائر: ٤/٢١٨.

هن الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، تخرج اسفاطاً عظاماً، وأوساطاً، كما ملئت رياطا، ثم تنفري عن قضبان اللجين، منظومة باللؤلؤ الأبيض، وتصير ذهباً أحمر، منظوماً بالزبرجد الأخضر؛ ثم تصير عسلا فى نحاء، معلقاً في الهواء، ليس في مسك ولا سقاء؛ بعيداً عن التراب، لا يقربه الذباب، دونه الحراب، ثم يصير وَرِقاً في كيس الرجال، يستعان به على العيال» .[1]

وقد أثبت خالد تأثره ببيئته الحضرية، فاستعار في وصفه، الذهب، واللجين، والزبرجد، واللؤلؤ، والورِق، ووصفها في مكانها من مشابهة التمر في مراحل نموه المختلفة، وتلونه المتتابع.

وخالد من فصحاء العرب، المشهود لهم بالتأثير في القول، وقد يتحدث عن أمر فيقنع سامعه، ثم ينقض ما قال بفصاحة فائقة، فيقنع تالياً بخلاف ما اقنع به أولاً، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) البصائر: ٣/ ٣٧.

«قال خالد بن صفوان لجاريته:

يا جارية، أطعمينا جبنا، فإنه يشهّي الطعام، ويهيج المعدة؛ وهو يعد من حمض العرب.

قالت: ما عندنا منه شيء.

قال: لأعلمك إنه ـ والله ـ ما علمتُ، ليقدح في الأسنان، ويستولي على البطن، وإنه من طعام أهل الذمة» [1].

لقد أقنع نفسه خالد بفائدة الجبن، وأقنع جاريته، فلما تبين له أن لا وجود للخبز والجبن في البيت أقنع نفسه وجاريته بخلاف ما قال أولاً؛ في أول الأمر بين فوائد الجبن، ليبرر طلبه، حتى لا ينتقد في تنازله في تناول هذه الوجبة المتواضعة، ثم عاد فعدد أضرار الجبن، وعيوب أكله، حتى لا يظهر بمظهر خائب الأمل، أو النادم على فقده؛ وهذا هو السحر الحلال.

ويتقن وصف الرجال، ويجيد تحديد طباعهم، بما يملأ الأذن بهجة، والنفس راحة، يقول عن

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٤.

صديق له :

«قيل لخالد بن صفوان : مات صديق لك .

فقال : رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العين جمالاً ، والأذن بياناً ، ولقد كان يُرجى ، ولا يُخْشى ، ويُغشَى ، ولا يَغْشى ، ويُعطِي ، ولا يعطى ؛ لدى الشر حضوره ، سليما للصديق ضميره» . (١)

والتشبيه مركبة مفصلة للوصف ، لا يدانيه فيه وسيلة لغوية أخرى ، لأن التشبيه أقصر طريق لإيصال الصورة إلى ذهن المتلقي . ومن الأمثلة على ذلك وصف الحنطة على لسان شيخ من البادية ، هو أولى الناس بأن يحلي لسانه ، ويبخر فمه ، بذكر الحنطة ووصفها ، والتغزل فيها ؛ ومعها التمر :

«قال شيخ من البادية :

أضافنا فلان ، فأتانا بحنطة كأنها مناقير الغربان ، وتمر كأنه أعناق الوزّ ، يوحل فيه الضرس» . (٢)

---

(١) البيان والتبيين : ٤/ ٩٢ .

(٢) عيون الأخبار : ٣/ ٢٢٣ .

لقد وصف فجاء بالصورة من محيطه، فأحسن انتزاع الجزء الذي أراده للمشبَّه، فجاءت المغالاة معبرة عن طربه لما أكل من حنطة وتمر، وانتزاع شيء ملموس من البيئة خير وسيلة لرسم الصورة، دون إخلال بأي جزء من أجزائها، ودون إبهام لجانب من جوانبها.

وقد يأتي الوصف ذكيا، مستقى من تجربة طويلة، اتسمت بالمتابعة، والاستقراء، والتبصر، والمقارنة، حتى استقرت الصورة في الذهن، فعُبر عنها بتعبير صادق، مثل النص الآتي:

«قال أبو صواره، أو أبو دقة:

أطول الليالي ثلاث: ليلة العقرب، وليلة الهريسة، وليلة جدة إلى مكة». [1]

وكل مجرب، أو مفكر متدبر، يُؤمن على هذا القول، فَسُم العقرب يأخذ وقتاً، ولا حيلة ناجعة فيه إلا الانتظار، ولابد من السهر مع الألم، ملسوعاً

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٢٣.

أو مساهراً للمسلوع. وليلة الهريسة مثلها، لابد من انتظار الهريسة حتى تنضج، فمهما أوقدت تحتها من جزل الحطب، وأنت تحركها، فلابد أن تأخذ وقتها، ويدك وجسمك في نصب.

وليلة جدة طويلة للمسافر إلى مكة، حاجاً أو معتمراً، فالمؤونة على شفا جرف من النفاد، والجمال على شفا جرف من النَّفاق، والرجال على شفا جرف من السير والخدمة والتعب، وآخر المسير هو أطول المسير، للتطلع إلى النهاية، وعد الخطوات، حتى يتنفس المرء الصعداء. ألم يصف أبو فلان هذا وصفاً صادقاً ثلاث الليالي الطويلة؟!

ويأتي حكيم مجرب بوصف دقيق لأمور شاهدها، وأراد أن ينقل الصورة التي في ذهنه إلى الآخرين، فاختار الوصف الآتي:

«أكرم الخيل أجزعها من السوط، وأكيس الصبيان أشدهم بغضاً للكتاب، وأكرم الصفايا أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهاري أشدها ملازمة

لأمهاتها، وخير الناس آلفهم للناس» .[1]

هذا الحكيم يصف الطيب مما عدد، فكرام الخيل هي الأبية، التي تنفر من الإهانة، والسوط لها إهانة، والعبد يقرع بالعصا، والحر تكفيه الإشارة، والخيل يكفيها جذب لين على خطامها، ينبؤها برغبة راكبها، أن يتجه يمينا أو يساراً.

والطفل تكع نفسه عن الكتاب، وهو بهذا كيس، لأن الكتاب يحد من حريته في الحركة؛ ففي الكتاب يراد منه أن يتصرف تصرف رجل، وهو لا يزال طفلاً، ولكن الكبار ينسون هذا، وينساقون خلف حبهم لابنهم، ورغبتهم في أن يصبح بين عشية وضحاها رجلاً، يسامق الرجال؛ وطفل يخنع، ويستكين، وآخر يتمرد، ويظهر من المقاومة، مثل ما فعل المعتصم، عندما نَبَرَ قِدْره بكلمة دلت أباه الرشيد على بغضه للكُتّاب، فأعفاه من الذهاب إليه، وكان للمعتصم غلام يقرأ معه في الكتاب، فمات، فغبطه

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٣٤.

المعتصم على هذه الراحة من الكتَّاب، وكان ذلك سبباً في اراحته هو كذلك، دون حاجة إلى الموت!

وأكرم النياق تلك التي إذا فارقت الأوطان حنت إلى معاطنها فيها؛ وهي ثقيلة الخطو، وهي تتركها، سريعة الخطو في رحلتها عائدة، وهو أمر معروف عن كرائم الإبل؛ ولا غرو فهي في كل يوم تغرس جذر محبة في أرض وطنها، ومن الصعب أجتثاث جذور الحب العميقة هذه.

وكريم الخيل معروف، فالمهرة التي تلازم جنب أمها أكرم من تلك التي لا تفعل ذلك، ولعلها تلازم أمها حتى تكسب من عاداتها ما ينفعها في مستقبلها، ويمكن أن يقاس على هذا كل حيوان، خاصة الإبل، بعد الخيل، وإنه وإن كانت الفطرة قد تكفلت بتدريس الحيوان الصغير ما يلزمه في حياته، إلا أن الذكي يكسب من أمه أكثر.

ثم جاء الختام، وهو مسك، فالإنسان، وهو إجتماعي بطبعه ـ كما يقال ـ، أكثر الناس إلفا للناس،

وأكثرهم إختلاطاً بهم، وأكثرهم تعاوناً معهم، وأكثرهم مراعاة لهم، هم خير من المنطوين على أنفسهم، المتقوقعين في جلودهم؛ يجترون الوحدة، ويغذون الإنفراد. ينفرون من بني جنسهم، ويهربون من أندادهم، لا يعرف مجتمعهم لهم مشاركة، ولا يذكر لهم معاونة؛ وإذا حكم الزمن عليهم بشيء من هذا، جاؤا يجرون أنفسهم جراً، ولا يخفون أنهم مرغمون.

والإنسان في هذه الدنيا بإخوانه، وأعضاده، يساندهم ويساندونه، ويعضدهم ويعضدونه، هم في حاجته اليوم وهو في حاجتهم في يوم آخر.

-[1] ويأتي الوصف مركّباً ومتداخلاً، يخالف أوله آخره، ويتنافر طرف منه مع طرف آخر، يأتي الواصف بالوصف الثابت، المتوافر، الذي يسير على القاعدة، ويتماشى مع المعتاد، ثم يأتي بما هو خارق للعادة في كل أمر ثابت العادة، متواتر الحدوث حسب القاعدة؛

(١) بدء الجز المضاف إلى ما سبق أن نشر في «عكاظ».

وهو يأتي بهذا حاملاً معه دليله، ومثبتاً له، وموثقاً، بما لا يقبل الشك، والقصة كمايلي:

«قال أبو العيناء: قال أبو زيد البلخي: قال أبو عمرو بن العلاء:

ما رأينا شيئاً يمنع سؤدداً إلا وجدناه في سيد من السادات:

أول ذلك الحداثة، تمنع السؤدد، وقد ساد أبو جهل قريشاً وما طُرَّ شاربه، ودخل الندوة، وما استوت لحيته. والبخيل لا يسود، وقد ساد أبو سفيان ابن حرب. والعاهر لا يسود، وقد ساد عامر بن الطفيل. والظالم لا يسود، وقد ساد كليب وائل، وحذيفة بن بدر، والأحمق لا يسود، وقد ساد عيينة ابن حصن. وقليل القوم لا يسود، وقد ساد شبل بن معبد بلا عشيرة. والفقير لا يسود، وقد ساد عتبة ابن ربيعة» . [1]

عمرو بن العلاء استقرأ تاريخ العرب، ووجد أن

---

(١) البصائر: ٦/ ٢١١.

هناك أناسًا اتصفوا بصفات جرت العادة أن يلازمها صفات معينة، تمشي معها، وترتبط بها، ولا يفترق أحدهما عن الآخر؛ ولكنه وجد خرقاً لقاعدتها، وخروجاً عن المألوف عنها، وما عرفت به من التلازم؛ فركبت صفة على غير ما كانت تركب، وتوافقت صفة مع ما كانت تنفر منه؛ فخالطت الحداثة السؤدد، وخادنته، ومشت في ركابه؛ والبخل عاشر السؤدد، سارا في طريق واحد؛ والعهد لم ينفر منه السؤدد وإنما احتضنه وقربه؛ والظلم تآخى مع السؤدد على غير المعتاد، وتصاحبا؛ والحمق دخل دائرة السؤدد، ولم يخرج منها، ومن لا عشيرة له ساد، ولم يعارضه أحد؛ والفقر هادنه السؤدد، وقبله في معيته.

ويأتي الوصف صادقًا عندما يكون مبنياً على استقراء تام، وأناة وتؤدة مثل النص الآتي، وهو وصف مستكمل للجاهل:

«كان يقال ست خصال تعرف في الجاهل:

الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية

في غير موضعها، وإفشاء السرّ، والثقة بكل أحد، ولا يعرف صديقه من عدوه» .[1]

هذا وصف متقن للجاهل، الذي لا يعرف منفعته، ولا منفعة غيره؛ فالذي يغضب في غير شيء، متعب نفسه، جان عليها، أعصابه محطمة، ونفسه مرتبكة؛ إذا كان يغضب في غير شيء، فماذا يفعل إذا جاءه الشيء المغضب؟ هذا رجل لا تمييز عنده، يزن الأمور بميزان واحد، والحياة طويلة إذا أمد الله للإنسان الأجل، وحياة مثل هذا سوف تكون شقية، وفرق بين هذا والحليم، وبينه والصبور.

والكلام الذي يأتي لا نفع له هذر ضائع، ومتعب لقائله وسامعه، والكلام الذي لا نفع له، كالغذاء الذي لا فائدة منه، خسارة وإجهاد؛ والثرثار منبوذ، ولا يقتصر الأذى على صاحبه، بل يشمل من حوله، ممن يضطرهم الأمر إلى تفاديه، والبعد عنه؛ لأن حديثه سوف يكون غير ذي معنى، لأنه يزيد عن

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٣٧.

الحاجة، ويأتي دون طلب، وقد يضطر صاحبه لكثرته إلى التناقض.

وللسان فائدة، يجب أن يقف عندها ولا يتعداها، فإذا فعل انقلب النفع إلى ضرر، والفائدة إلى خسارة؛ والجاحظ يحدد دور اللسان في القول الآتي:

«اللسان أداة يظهر به البيان، وشاهد يعبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ ينهى عن القبيح، ومبشر ترد به الأحزان، ومعتذر تذهب به الأضغان، ومُلْهٍ يونق الأسماع، وزارع يحرث المودة، وحاصد يستأصل العداوة، وشاكر يستوجب المزيد، ومؤنس يسلي الوحدة». [1]

وأداة الكلام هي اللسان، واللسان كما قيل: «جوارح الإنسان». [2] فإذا لم يُخْزَمْ، ويحدد له الكلام

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٠٢.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٠٤.

في حدود ما رسم الجاحظ، فقد يُسيل دماءًا لم يكن بالحسبان سيلانها، ويَقْطع رؤساً لم يكن يُظن أنها تقطع، وقد قال بعض العرب لرجل، وهو يعظه في حفظ اللسان، وما تعدى بهذه النصيحة الحق: «إياك أن يضرب لسانك عنقك». (١)

والصمت عن مزيد القول مطلوب، وقلة الكلام إلا في حدود البيان ينصح به عقلاء الرجال، ويرون فوات النفع مع قلة الكلام خير من جلب النفع مع كثرته، لأن هذا يسير مع المبدأ الممدوح، فإذا ضاع الغرض عذر صاحبه وحمد، وإذا جاء النفع من كثرة القول، فِالمكسب فيه ما ينقصه من مخالفة القاعدة المعتبرة، ولهذا قال بعض السلف:

«الندم على الصمت خير من الندم على القول». (٢)

«وقال ابن المعتز:

من أخافه الكلام أجارهُ الصمت». (٣)

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٠٤.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٠٦.
(٣) اللطائف والظرائف: ١٠٦.

وقال أيضا:

«الخطأ بالصمت يختم، والخطل بمثله لا يكتم».[1]

ويأتي شعر في صميم ما قيل من أن الجاهل يُعرف بالكلام في غير نفع، وهو قول الشاعر:

الصَّمْتُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ صِدْقَ الْمَوَدَّةِ والْمَحَبَّهْ
والْقَوْلُ يَسْتَدْعي لِصَا حِبِهِ المَذَمَّةَ والمَسَبَّهْ
فاتْرُك كَلامًا لاَ غِنًا وَلاَ يَكُنْ لَكَ فِيْهِ رَغْبَهْ[2]

والعطية في غير موضعها ضياع، والهبة في غير محلها هدر، وتدل على سوء في الاختيار، وتدنٍّ في التمييز، وخلط للأمور، وعلى غشاوة الرؤية، وعمى البصيرة؛ ومردودها مفقود، وعائدها معدوم؛ وهي نبتة زرعت في غير أرضها، وبضاعة جلبت لغير طالبها؛ فسوقها كاسد وثمنها بخس.

ووضع العطية في غير موضعها صرف لها عن موضعها، فهي عطاء في غير محله، وصرف عن

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٠٦.

(٢) اللطائف والظرائف: ١٠٦.

مستحقه؛ وفي هذا من النزق ما فيه. والإنسان أعطي العقل ليميز بين الأمور، ويفرق بينها، فلا يضع الخطأ محل الصواب، ولا يجلس الصواب مكان الخطأ، ومن فعل هذا أوجب الحيرة، وقاد إلى التيه.

وإفشاء السر دليل الجهل، وعنوانه، فإفشاء السر إخراج له عن طبيعته، ولا يخرج الأمر عن طبيعته إلا جاهل، يسير خلافًا للتيار، ومن فعل ذلك جرفه، ولذة السر في حفظه، وصيانته من الإفشاء، وفي حفظ السر رعاية لمؤتمنه، وزيادة في الثقة في حافظه؛ وإفشاؤه خيانة للأمانة، وتعريض صاحبه للأذى الذي لا يُدرَى مدى فداحته، والألم الذي لا يعرف مداه، وعمق ضرره.

أما الدين فينظر في إفشاء السر في ضوء قول الرسول ﷺ: «من أسر إلى أخيه سرّاً لم يحل له أن يفشيه عليه». [1]

وليس بجاهل الشاعر الذي يقول:

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٥٩.

لِكُلِّ أمرئٍ يَا أُمَّ عَمرو طَبِيْعَةٌ
وَتَفْضِيْلُ مَا بَـيْنَ الرِّجَالِ الطَّبائِعُ
فَلا يَسْمَعَنْ سِـرِّي وسِـرَّكِ ثَالِثُ
أَلاَ كُلُّ سِـرٍّ جَاوَزَ اثْنَين ضَائِعُ
وَكَيْفَ يُشيْعُ القَلْبُ سـرّاً وَفَوْقَهُ
حِجَابٌ وَمَا فَوْقَ الِحجَابِ إلاّ ضَالِعُ[1]

أما الجاهل حقاً في رأي صاحب النص الذي أوردناه، فالأعرابي الذي يقول:

«أنشد الأصمعي قال: أنشدني أعرابي:

لاَ أَكْتُـمُ الأسْـرارَ لٰكِـنْ أَبُثُّهَـا
وَلاَ أَدعُ الأَسْـرَارَ تَقْتُلُنِـي غمَّـا
وَإِنَّ سَخِيْفَ الرَّأيِ مَنْ بَاتَ لَيْلَهُ
حـرِيبًـا بِكِتمَـانٍ كَـأَنّ بِـهِ حُمَّـى
وفِي بَثِّكَ الأَسْرار لِلْقَلْبِ رَاحَةٌ
وتَكْشِفُ بالإِفْشَاءِ عَنْ قَلْبِكَ الهَمَّا»[2]

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦١.
(٢) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦١.

وهذا لم يسمع تشديد الرسول ﷺ في إفشاء السرّ، ومثله أيضاً سحيم الفقعسي الذي يقول:

لاَ أَكْتُمُ الأَسْرَارَ لٰكِنْ أُذِيْعُهَا
وَلاَ أدَعُ الأَسْرَارَ تَغْلِيْ عَلَى قَلْبِيْ
وَإنَّ ضَعِيْفَ العَقْلِ مَنْ بَاتَ لَيْلَهُ
تقَلِّبُهُ الأَسْرَارُ جَنْبًا إلٰى جَنْبِ[1]

ونعود إلى النص مرة أخرى، فنجد أحد عناصره الثقة بكل أحد، وهي صفة من صفات الجاهل، الذي لا يفرق بين الناس، ومن منهم يمكن أن يكون محل ثقة، ويعتمد عليه، ومن ليس كذلك، والواجب عدم الاطمئنان إليه. وهذا أيضاً في جهله تنقصه نعمة التمييز بين الأمور، المتناغي منها والمتنافر، وجهله في هذا الأمر يرديه، ونقص علمه يودي به، فيضيع منه النافع، ويبقى له الضار ملازمًا مقيماً. ولا يدري متى يقع في الضرر، ومتى يفقد النافع، ولا يدري إلا عندما يقع المحذور، وتحصل الكارثة، والتمييز بين

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٢.

من يوثق به، ومن لا يوثق به، ملكة يضعها الله فيمن يشاء، ويسلبها ممن يشاء، هي نعمة يمن بها على من يريد من خلقه.

والجاهل في الخلط وعدم التمييز لا يفرق بين صديق وعدو، مثل الذي لا يفرق بين الخطو تجاه غزال أو لبؤة، ويمكن أن نتصور فداحة الأمر، والمهلكة التي يمكن أن يقع فيها هذا الجاهل. والذي يخلط هذا الخلط يقع في التناقض، فهو يعادي الصديق ويصادق العدو، فيفقد في الحالتين، ويخسر في الأمرين، كل خطوة له فيها شقاء، وكل التفاتة له فيها تعاسة.

والصفات المركبة، والنعوت المتداخلة تأتي بصفة أخرى في نص جميل، جاء أيضاً نتيجة استقراء وتبصر، وخروج بنتيجة صادقة، والنص كمايلي:

«كان يحيى بن خالد يقول:

ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها:

الكتاب على مقدار عقل كاتبه، والرسول على مقدار

عقل مرسله، والهدية على مقدار عقل مهديها». [1]

فتوفر العقل في حكم يحيى بن خالد يعرف بعلامات محددة، ويستدل عليه بصفات هي من مستلزمات توافره، ويحيى وصل إلى حكمه هذا بعد استقراء لصيق، ومتابعة ملحة، فتبين له ما يطمئنه إلى إصدار حكم، يطمئن إلى صدقه، ولا يشك في عدله.

وعند فحص ما قال نتبين صحة ما أدلى به، فنشهد له بصواب ما قال، ونتخذ قوله قاعدة نحكم بها على الناس، إن كانوا أصحاب عقل، أو فاقديه، أو ناقصيه، فنتعامل معهم ببصيرة، إن أخذاً، أو عطاءًا.

فالكتاب إن ألف، أو اختير للقراءة، فهو يدل على عقل صاحبه، ويدل على تخصصه، ويكشف نيته، ويهدي إلى هدفه، ومنهجه في الحياة، ونظرته إليها، وهذا يفيدنا في التعامل معه، ويحدد صلتنا به؛ لأن اختياره للكتاب يكشف ما بداخله، مما قد

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٣٧.

لا يتعمد إظهاره، بل قد يجهد في إخفائه، لسبب يراه يكمل ما يشعر به من نقص، ويوصله إلى ما يريد أن يصل إليه من كمال.

والرسول ميزان عدل على عقل مرسله، فإن كان رزينا فمرسله مثله رزين، وإن كان لم يكن كذلك، وجاء تصرفه مهزوزاً مضطرباً انعكس هذا على سمعة مرسله، وفي الغالب تتأثر الرسالة بهذا الجو الذي يحيط بها، وتعاني المهمة من هذا المحيط. وقد اهتم العرب بالرسول اهتماماً كبيراً، وجاءت نبذ متفرقة في التراث عن رسل أرسلوا، ووصف تصرفهم، وما جاء على يديهم من خير، أو ورد على يديهم من شر، ولعله يأتي من يقوم بجمع هذه الأمور المتفرقة، يوماً من الأيام، فيضعها في كتاب، ولن يكون هو الأول في هذا الأمر، وقد سبقه حسب علمي على الأقل عالم اهتم بهذا الجانب، وألف فيه كتاباً تحدث بتركيز معجب عن بعض الأمور التي تلمس الرسول والرسالة. والمؤلف هو ابن الفرّاء الحسين بن محمد

في كتابه: كتاب رسل الملوك، ومن يصلح للرسالة والسفارة.[1]

وبدأ فيه بالرسل في كتاب الله عز وجل، ودخل في حال الرسول، وحدود تصرفه، وما يجب أن يكون عليه عقلاً وجسماً، وما يجب أن يتصف به من حلم، وكظم غيظ، وتحدث عن الرسول الناجح، والمحروم من النجاح، وعن التقاليد في إرسال الرسل، وأعطى بعض الأمثلة من حوادث معينة، والحالات التي يحتاج أن يُرسل فيها مع الرسول كتاب. وهو كتاب قيم. ويدل ما فيه على أهمية اختيار الرسول، ودوره في الاصلاح بين أمتين.

ونأتي إلى الهدية التي ترمي ظلها وصفاً على المُهدي، فهي تدل عى عقله الذي قاده إلى اختيار الهدية، وتبين ذوقه في تحديث نوعها دون غيرها؛ ثم تبين مكان المُهْدَى من نفسه، وموقعه منه، فالهدية تبين مكانه الذي يجلسه فيه من قلبه؛ وهي حبل يصل بين

---

(١) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ونشر دار الكتاب الجديد - بيروت. وطبع مرتين: الأولى عام ١٩٤٧م بالقاهرة، والثانية عام ١٩٧٢م في بيروت.

اثنين، ورابط يربط بين قلبين؛ فإن كان هذا الرباط مختارًا بعناية، فملمسه الحريري يوثق ويثبت، وإذا كان ملمسه خشناً جافاً فإنه يجرح ويؤلم.

ولا يبعد كثيراً عن نمط الصفات التي ذكرناها ما سنأتي به دالاً على صفات حميدة، لأنها الصفات التي تليق بالصديق، وبدون توافرها يكون الصديق مخدوشاً في صفحة صداقته، ويصيب وجه الصداقة كلف يقلل من بهائها، ويرمي عليها ظلاً داكناً، يمنع السعادة المتوقعة في العلاقة بين صديقين، والنص كمايلي:

«قال أبو العتاهية:

قلت لعلي بن الهيثم: ما يجب على الصديق؟

قال: ثلاث خلال: كتمان حديث الخلوة، والمواساة عند الشدة، وإقالة العثرة». (١)

وإذا ما تبصرنا في هذه الأمور الثلاثة أدركنا أن علي بن الهيثم حكيم في رده، لأن إطار الأمور الثلاثة

(١) البصائر: ٤/ ١٦٠.

عدم الأثرة، وعدم حب النفس، وتقديم مصلحة الصديق، وكبح جماح النفس الذي عادة ما يأتي مغرياً للمرء، ينسى معه الآخرين؛ فإذا ما راعى الصديق مصلحة صديقه، وقدمها على نفسه، عامله صديقه المعاملة نفسها، وأصبح هناك سباق خيرّ بين اثنين، لا ينتهي إلا بالراحة والسعادة لهما.

والصديق يفتح قلبه لصديقه، ويطلعه على ما في داخله مما حجبه عن الناس، وشح به عليهم، وترك متعة الانفراد به لنفسه ولصديقه؛ وفي البوح بالسرّ لذة، لا يقدر على مقاومتها إلا صاحب العزم الشديد، والإرادة المكبوحة. ولهذا أوجب علي بن الهيثم على الصديق أن يبرهن على صدقه بكتمان السر، وتحمل غليان مِرْجَله في صدره، والسرّ لا يكون سرًّا إذا أُفشي، وإفشاؤه إخراج له من طبعه، وفي هذا تجن على الخبر المودع ومودعه، وقد قيل عن هذا على لسان الرسول ﷺ ما يأتي؛ وهو ما سبق أن ذكرناه:

«من أسّر إلى أخيه سّرا لم يحل له أن يفشيه» .[1]

والشعر يمجد الحفاظ على السر على لسان قيس ابن الخطيم الذي يقول :

أَجُـوْدُ بِمَضْمُـونِ التِّـلاَدِ وإِنَّنـي
بِسِـرِّكَ عَمَّـنْ سَـالَنِـيْ لَضَنِيْـنُ
وَإِنْ ضَيَّعَ الإِخْوَانُ سرًّا فإِنَّنِي
كَتُـومٌ لإِسْـرارِ الخَلِيْـلِ أَمِيْـنُ
يَكُونُ لَهُ عِنْدِي إِذَا ما ائْتُمِنْتُهُ
مَكَـانٌ بِسَـوْداءِ الفُـؤادِ مَكِيْـنُ
إِذَا جَـاوَزَ الإِثْنَيْـنِ سِـرٌّ فَـإِنَّـهُ
بِنَشْرٍ وَإِفْشاءِ الحَدِيْثِ قَمِيْنُ[2]

وعندما قلنا إن للسّر لمرجلاً يغلي في الصدور ، ولا يستطيع تحمله إلا ذوو العزم ، والصديق الحميم ، فإننا لم نبتدع ذلك ، بل استقيناه من بعض ما يشعر به بعض الناس ، فبعض يتحمله ، وبعض يُنَفس عن

(١) بهجة المجالس : ٢/ ٤٦٠ .
(٢) بهجة المجالس : ٢/ ٤٦١ .

صدره بإفشائه، فهذا الأصمعي يروي عن أعرابي هذه الأبيات:

لاَ أَكْتُمُ الأَسْرَارَ لٰكِنْ أَبُثُّهَا
وَلاَ أَدَعُ الأَسْرَارَ تَقْتُلُنِي غَمَّا
وَإِنَّ سَخِيْفَ الرَّأْيِ مَنْ بَاتَ لَيْلَهُ
حَرِيْبًا بِكِتْمَانٍ كَأَنَّ بِهِ حُمَّى
وَفِي بَثِّكَ الأَسْرار لِلْقَلْبِ رَاحَةٌ
وَتَكْشِفُ بِالإِفْشَاءِ عَنْ قَلْبِكَ الهَمَّا[1]

وأمام هذا الأعرابي وأمثاله قال علي بن الهيثم عن كتمان السرِ ما قاله.

وبعض الناس يعرف فضيلة هذه الصفة في الصديق، فيصبح همه المحافظة عليها في أدق صورها، وأبهاها، وهي درجات ولعل من أعلاها الدرجة التي أتصف بها صديق كما في الخبر الآتي:

«أسر رجل إلى رجل سراً، فلما فرغ قال له: حفظت؟

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٢. وقد مرّت هذه الأبيات في ص: ٢٣٤.

قال: لا، بل نسيت» .[1]

والصفة الثانية التي يجب أن تتوافر في الصديق في رأي علي بن الهيثم، هي المواساة عند الشدة، أي وقت الضيق، وهو الوقت الذي يحتاج فيه الأمر إلى أخ مخلص له، يقف بجانبه، يتحمل معه وقع الشدة، ويخفف عنه صدمتها، ويتلمس الأقوال والأفعال التي تفتح له الجوانب المضيئة فيما ادلهم من الأمر، ويبذل من راحته وماله وجاهه ما يعود على صديقه بتخفيف الحزن والعناء.

والإنسان قد يخطئ، فإذا لم يغض الصديق طرفه عما قد يأتي من صديقه من عثرة فإنه لا يبقى له صديق، والحياة ملأى بالأخطاء التي لا يستطيع الإنسان تفاديها.

هذه صفات كما رأينا تسم الإنسان بميسم لا يستطيع أن ينفك منه. وننتقل من الإنسان في صفاته إلى الصفات التي يسم بها الإنسان الأرض التي يقف

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٤.

عليها، وهو أعرف الناس بها:

«قال أعرابي: نحن بأرض لا نريد بها بدلا، ولا نبتغي عنها حولا؛ لا يملولح ماؤها، ولا يتمعر جنابها، ليس فيها أذى ولا قذى، ولا وعك ولا حمى، فنحن بأرفه عيشة، وأخصب معيشة» .[1]

هذه الصفات التي كالها الأعرابي لأرضه بمكيال وافٍ، أضفت عليها من صفات المدح ما يجعل السامع يغبطه على أرضه، ويتمنى لنفسه أرضاً مثلها؛ إذا كانت كما ذكر، فقد انعكس طيبها على عقله، حتى استطاع أن يقول ما قال، وأن يأتي بهذا الوصف البديع، والقول المشرق.

وتأتي صفات بصيغ مبتدعة، فيها جدة وتميز، مثل الوصف الآتي:

«ذم بعض الحكماء رجلاً فقال:

يجزم قبل أن يعلم، ويغضب قبل أن يفهم» .[2]

(١) البصائر: ٤/ ١٦٦.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٤١.

إنه لذم عميق، ووصف قادح، وصم الموصوف وصمة جارحة، إن الموصوف جمع رذائل في مقدمتها الحمق والغباء، إنه متسرع غير متأن، يعمد إلى النتيجة قبل أن يستقرئ المقدمة، ويصل إلى النهاية قبل أن يكمل البدء، يترك مهماً، وهو بهذا لا يستفيد مما يصل إليه، بل يأتيه منه الضرر، غضبه قبل أن يفهم بدء الحديث يجلب له الأذى، والغضب أذى في ذاته، وأذى فيما يوصل إليه، وأذى في ما يحيط به، والغضب شعبة من شعب الجنون، لا يلجأ إليه الإنسان وهو في كامل هدوء العقل، وصفاء اتزانه؛ الغضب يقود صاحبه بلجام ملح، لا يستطيع منه فكاكا، ولا يرجو خلاصاً. إن الموصوف متسرع أحمق. وكفى بهذا ذماً.

هذه بعض الصفات التي رأينا منها صوراً مختلفة تبين ما في التراث من طرق تأتي بها ومنها، والتراث مليء بالصفات التي فيها متعة للمستقرئ، لما تحتوي عليه من مدلول، ولما يتميز بها بعض عن بعض في

الأسلوب، وفي المعالجة، وما أوردناه منها قصدنا منه أن يعطي نموذجاً، ولم نكثر حتى لا يتسرب الملل إلى القارئ.

***

نظرة إلى الأعراب[1]

الأعراب هم الأرض التي بذرت فيها بذرة الإسلام، وهم الأداة الأولى التي نشرت الإسلام، وحملت على عاتقها عبء الفتوح، وتوسيع رقعة أرض الإسلام؛ فكان لهم وجود في المجتمع من أول إشعاع للإسلام على رقعة الجزيرة؛ وهذا ما جعلهم مادةً لما كتب في كتب التراث؛ تناقلت أخبارهم الألسن، وسجلت في الكتب، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو مركب، أما ما هو صحيح فهو صورة صادقة لحياتهم، وما جاء منهم محموداً أو منتقداً، جدًّا أو هزلاً، وأما المختلق فتسرب من عدة مسارب، منها الشعوبي الذي أريد منه أن ينال منهم، وأن يصمهم بما يعيبهم، ومنها ما هو قبلي، يرمي في نهر الفخر، وفي غدير الاعتزاز؛ ومنها ما هو قبلي يرمي في مستنقع الطعن، وفي الماء الآسن من الهجو واللمز،

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٥٦) في ١٠/ ٢/ ١٤١٦هـ الموافق: ٨/ ٧/ ١٩٩٥م.

ومنها ما هو متصل بالنزاع على الحكم مما يرمي إلى ترجيح كفة على كفة؛ ومنها ما هو أدبي أو فكري، أدت إليه فكرة طارئة، أو علم أراد صاحبه أن ينشره عن طريق صياغته في قصة ألبسها أحد الأشخاص المشهورين، واختار لها من يتناسب الأمر مع ما عرف عنه من طبيعة جادة، أو هزلية، أو جانب كرم أو بخل، أو رد صلف، أو إجابة هادئة؛ والأسباب للنحل والوضع لا تقتصر على هذه الجوانب، ولكنها تتعداها إلى أمور أخرى كثيرة.

ولكن أبرز ما يأتي من الأعراب يكاد يتركز في أمور معينة، ومواضيع ذات اتجاه محدود؛ فالقصة سواء كانت حدثت أو ركبت، ترمي إلى وصفهم بالذكاء الخارق، وسرعة البديهة، وصفاء الذهن، والصراحة التامة، أو إلى الغباء المفرط، والسذاجة المتناهية، والخشونة في القول والفعل، وعدم اللباقة، ونقص التشذيب والتهذيب. وفي هذا الإطار أو ما حوله تدور القصص والحوادث المدونة في التراث، يصدم

بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، ويخالف بعضها بعضاً، تسير واحدة منها بجانب الأخرى، وتتجه واحدة ضد الثانية، هذه تذهب يميناً وتلك شمالاً، توغل هذه في اتجاه، وتوغل الأخرى في اتجاه آخر.

أحياناً ينسب الأمر إلى أعرابي، ويبقى الأمر مجهولاً، في كل أطوار الحديث عنه، وأحياناً يُذكر الراوي ويُترك الأعرابي مجهولاً، وأحياناً يعلق الخبر على أعرابي معروف باسمه ولقبه، وأحياناً بنسبته إلى قبيلته، حتى يلصق الفخر أو الطعن بالقبيلة عن طريق سب أحد أبنائها.

وقد ازدهر في وقت من الأوقات مجال الوضع والنحل، يحرك جانب من الجانب الآخر، فإن فخر الفرس بأمر لم يكن لهم، رد العرب بأمر مماثل؛ وإن ظهر للعرب فضل في قصة أو حادثة سارعت الشعوبية بقصة أخرى تعدل الكفة، والحرب في هذا المجال حامية، ونتيجتها سجال؛ وبعض هذا واضحُ النحل فيه، بيِّنٌ التكلف في طياته؛ وأحياناً يأتي ذلك

متقناً حتى لا تكاد معالم الوضع فيه تعرف.

وبعض ما يروى عن البادية يأتي من بيئتهم، مصوراً لحياتهم، وكاشفًا عن بعض جوانبها، متعة أو معاناة، ولابد أن يكون فيه جانب طرافة، حتى يستحق التدوين، ويكون فيه مجال للتداول، وفسحة للاستشهاد؛ يعمرون به سمرهم في مجالسهم، ويزينون به كتبهم عند التأليف، والمثل الآتي أحد هذه الأخبار:

«قيل لأعرابي: ما تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ، وحمي، وَمَتَعَ الحَرُّ؟

قال: يمشي أحدنا ميلا، حتى يرفض عرقاً، ثم ينصب عصاه، ويلقي عليها كساءه، ويجلس في قبة، يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى». [1]

هذه الصورة المتناسقة، التي أزالت كربة، وأرت الوسيلة للتغلب عليها، صورة معتادة، ولكنها تؤتي أكلها فيما استعملت له؛ لم يتعن صاحبها اقتناصها

(١) البصائر: ٤/ ٢٤٣، ربيع الأبرار: ١/ ٢٠٧. المحاسن والمساوئ: ٣٠٢.

من بعيد، ولم يتكلف في الوصول إليها، وإن ما أطفأ نار الحرّ متوافر فيما هو في متناول اليد لإخماد أجيجها؛ والصورة واضحة وجميلة، واستحقت أن تُدَوَّن، وأن تَرِد في عدة كتب من كتب الأدب، لا يمر بها أديب إلا ويقف عندها، ولا يتعداها دون أن تمتد يده، فتقطف هذه الزهرة، لتستقر في مِكتل هذا الأديب، ليأتي آخر فيرى فيها ما رآه الأول، فيأخذها نصيباً مختاراً، وهكذا حتى أصبحت بين أيدينا، ولن نكون آخر من اختارها فاحتازها.

ومن البيئة كذلك تأتي صورة أخذت فرشتها وألوانها وطرسها من محيط الأعرابي، فلم يمد يده بعيداً ليتناولها، ولم يلق بطرفه إلى الأفق ليقتنص شاردها، هي مما يكاد يكون بين عينيه ليل نهار في بعض فصول السنة، وجاءت نصيحة من أب لابنه، ولابد من الاطمئنان إلى فهمها، ولذلك لابد أن تكون موادها معروفة للابن، ليسهل نقل الفكرة من رأس الأب، وهي نابعة من القلب إلى رأس الابن، في طريقها إلى

القلب والقصة كمايلي:

قال إسحاق الموصلي:

«أوصى بعض العرب ابنه، فقال:

يا بني، كن كالضب، ولا تكن كالجراد؛ فإن الضب يلتزم جحره، فلا يفارقه، وإن الجراد يسرح، فيأكله كل شيء». [1]

وهذه وصية تحتاج إلى دراسة دقيقة، حتى يتبين مدى صوابها من خطئها، فهل الأفضل أن يبقى الإنسان في بيئته، لا يتحرك منها، أو أن في الاندياح في أرض الله ما يكون سبباً لتيسر الرزق، ورفاهية العيش؛ وهل البيئة الصحراوية يناسبها الركود، أو التنقل الدائم، طلباً للمرعى والكلأ. أو أن المراد عدم الانفراد عن الجماعة، وهو ما لا يتفق مع الصورة، إذ أن الجراد لا يأتي منه منفرداً إلا القليل. على أي حال، إسحاق الموصلي من الذين أشعر في بعض الأحوال، أنه يقال على لسانه طرائف، ربما كان

(١) البصائر: ٣/ ١٧٨.

بريئًا من وضعها أو روايتها. هذه صورة من الصور التي تقال عن رجل البادية، راسمة حالة من حالات معيشته في صحرائه، وكاشفة عن طبقة من طبقات فكره.

وإذا كانت القصتان السابقتان صورتين مضيئتين إلى حد ما، وليس فيهما ما يخدش الأعراب، أو يسيء إلى سمعتهم، فالقصة الآتية تمثل الجانب المظلم من نظرة أهل الحاضرة إلى أبناء البادية، ومحاولة إظهارهم بمظاهر السذج، المغفلين:

«قال الأصمعي:

رئي أعرابي، في حزيران، على شاطئ نهر، يغوص غوصة ثم يخرج، فيعقد عقدة في حبل، فقيل له: ما هذا؟

قال: جنابات الشتاء أقضيها في الصيف» . (١)

فكرة لمع جمالها في ذهن مفكر، فرواها زوراً، في الغالب، على لسان الأصمعي، صاحب النوادر،

---

(١) البصائر: ٢/ ٩٨.

المقتنصة غالباً من حياة أهل البادية، ووجد الناحل أن الأصمعي، وهذه صفته، هو خير من يجعل مشجباً، تعلق عليه هذه القصة، وطرافتها سوف تسكر القارئ، أو السامع، عن أن يفكر في صحة مصدرها، أو دقة الرواية فيها، فجاءت كما رأيناها، خادشة لذكاء الأعراب، وحانية حنياً آثماً مجرى تفكيرهم؛ رمى الشيطان بذرة الفكرة في ذهن الكاتب، فتحركت «تروس» فكره، فركب الفكرة على الأعراب، ووجد الأصمعي دَلاَّلاً عاطلاً، قاعداً ينتظر من يأتيه ببضاعة مزجاة، يدلل عليها، ليجد من في قلبه مرض حول الأعراب، ليتباعها، أو في قلبه حيز، لقبول الطرائف، فيْفتح لها أبواب متجره، أو نوافذ بيته، ليخزنها مع مخزون سابق، وجد في جمعه متعة، وفي تحصيله لذة، سواء كان ذلك عن الأعراب أو غيرهم. وبعض الناس يقبل القصة الطريفة، حتى لو كانت عن أقرب الناس إليه، ولو كانا والديه، أو كانت عن نفسه.

ويوضع على لسان الأصمعي، في الغالب قصة فيها أيضاً رائحة السذاجة والغفلة، وهي تسير على قضيب القطار الذي سارت عليه سابقتها، وتجري بالمجرى عينه، وتقصد الهدف نفسه، وهي كمايلي:

«عن الأصمعي قال:

اشتكى رجل من الأعراب، فجعل الناس يدخلون عليه، فيقولون:

كيف أصبحت؟ وكيف كنت؟

فلما أكثروا عليه، قال:

كما قلت لصاحبك». (١)

وصاحب عيون الأخبار يلحق بها قصة أخرى، لأنه مصدر جمع القصص في باب من أبواب كتابه عن عيادة المرضى، ولكن القصة عن أهل الحاضرة، وصورتها أسطع نوراً من سابقتها، وإنه وإن لم يقصد المقارنة، كما يبدو، إلا أن المقارنة فرضت نفسها، لمجيء هذه بعد تلك، ولتماثل سؤال العائد للمريض

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٥٥.

في كليهما، وكانتا في ذلك متقاربتين، ولم تتباعدا إلا عندما جاء الجواب؛ وفيه لنا المثل، مما أظهر رجحان ابن المدينة على ابن الخيمة والشراع:

«وقع رجل من أهل المدينة، فوثئت رجلاه، فجعل الناس يدخلون عليه، ويسألونه، فلما أكثروا عليه، وأضجر، كتب قصته في رقعة؛ فكان إذا دخل عليه عائد، وسأله، دفع إليه الرقعة».[1]

وتلمع فكرة مرة أخرى في رأس أديب، وهي فكرة ذات بعد عميق، وأدوار مختلفة، تحتاج إلى مسرح واسع، يتسع لكل من له دور في التمثيلية، ولابد من اختيار الممثلين بعناية وإتقان، حتى يكتب لها القبول، وينتهي أمرها بالنجاح، والاستحسان. وقد اختير الموضوع بعناية أيضاً، وعُين الممثلون باتقان، وتحرك الممثلون جميعاً بدقة وإتقان، ونجح الكاتب في بيع رأي خطر بباله على القراء، ورأى ابنة فكره، وأيدي الخُطاب تمتد إليها، كل يريدها

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٥٥.

لكتابه، والوراقون بهذا راج سوقهم، وارتفع سعر بضاعتهم، والقصة كمايلي:

«أدخل أعرابي على كسرى، ليتعجب من جفائه وجهله!

فقال له:

أي شيء أطيب لحماً؟

قال: الجمل.

قال: فأي شيء أبعد صوتاً؟

قال: الجمل.

قال: فأي شيء أنهض بالحمل الثقيل؟

قال: الجمل.

قال كسرى: كيف يكون لحم الجمل أطيب من البط، والدجاج، والفراخ، والدراج، والجداء؟

قال: يطبخ لحم الجمل بماء وملح، ويطبخ ما ذكرت بماء وملح، حتى يعرف فضلُ ما بين الطعمين.

قال: وكيف يكون الجمل أبعد صوتاً، ونحن نسمع الصوت من الكركي من كذا وكذا ميلا؟

قال الأعرابي: ضع الكركي في مكان الجمل، وضع الجمل في مكان الكركي، حتى تعرف أيهما أبعد صوتاً.

قال كسرى: كيف تزعم أن الجمل أحمل للحمل الثقيل، والفيل يحمل كذا وكذا رطلاً؟

قال: ليبرك الفيل والجمل، وليحمل على الفيل حمل الجمل، فإن نهض فهو أحمل للأثقال». [1]

هذه أفكار تجمعت في ذهن الكاتب، فأتى بها في هذه الصورة، التي كرّمت الأعرابي، وكرمت الجمل، والأعراب وجمالهم في ميدان الفخر متلازمون، ما مدح به أحدهما مشى المدح فيه إلى الآخر، كما في هذه الحالة، فالأعرابي غلب كسرى في فكره، وبرهن على ذلك بما صور بأنه الدليل القاطع، والجمل غلب الفيل والكركي، وهما من مفاخر البيئة الحضرية في بلاد فارس.

لا شك أن من جمع شتات أفكار هذه القصة في

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٢١.

قلبه عاطفة نحو الأعراب، إما بدءاً منه، أو دفاعاً عما رأى أنه يوضع في سوق القصص عنهم، وتزخر به دكاكينه، مما فيه غمز ولمز على الأعراب ولاشك أنه أديب متمكن من علمه، إذا استطاع أن يختار لهذا أحد أطراف الأفراد في حقارة المنزلة عند المستهزئين، وأحد أطراف الأفراد في علو المقام عند المقدرين، وأعطى كل واحد سيفاً، وأعطى إشارة البدء للبراز، بعد أن وضع الإرشادات لطريقة النزال وأصوله، فأتى بالأسئلة متتالية، وجعلها ملابسة للمادة التي أختارها: فقد اختار اللحم، والصوت، والحَمْل؛ وترك البدء في الإجابة إلى ما بعد اكتمال الأسئلة، حتى تتم الدهشة بأول سؤال وجوابه، ثم تتراكم طبقات الدهشة بعد ذلك مع كل سؤال وجوابه؛ ثم بدأ، بعد أن عقّد العُقد، في نقض مبرمها، وحل ما أدهش منها، واحدة واحدة؛ فجاء بعد دهشة بالإجابة المطلقة، دهشة القبول للتفسير، والتدليل.

ولو جاء بكل تبرير بعد السؤال والإجابة لما كان للقصة جمالها، ومجرى حوادثها تأثيرها؛ لأن الدهشة الأولى تكون قد خبا أوارها قبل أن يستفحل ويتراكم، ويعرف السامع أو القارئ مجرى تفكير المتحدث أو الكاتب، فتضيع بذلك لذة أريد بها أن تكتمل، ومتعة خطط لها أن تبلغ القمة.

ولعلها من القصص التي ولدت في وقت كان الصراع على أشده بين العرب والفرس، وكانت سيرة كسرى، الحقيقية والمصطنعة، ترفل في حلل المفاخرة في المجتمع الإسلامي الجديد، خاصة في العراق، فجاء العرب، ومن والاهم، يضعون في كفة الميزان الأخرى، كفة العرب، وخير من يمثلهم أبناء البادية، ما يعدل هذه الكفة ويثقلها، حتى ترجح على كفة الفرس، وملوكهم، والقصص في هذا المجال، ولمثل هذا الغرض، كثيرة.

ـ[1] منها قصة لأحد العرب مع كسرى، وفي هذه

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

المرة حُدد اسم العربي، وهي قصة تُروى دلالة على فطنة العربي وذكائه، وسرعة بديهته، وحسن تصرفه، وبراعته في مخاطبة الملوك:

«وفد حاجب بن زرارة على كسرى، فاستأذن عليه، فقال كسرى لحاجبه:

سله، من هو؟

فقال: رجل منهم.

فلما مثل بين يديه، قال له: من أنت؟

قال: سيد العرب.

قال: ألست زعمت أنك رجل منهم؟

قال: منذ أكرمتني، وأجلستني، صرت سيدهم.

فحشا فاه لآلئ». [1]

وبعض القصص يروي حياة ابن البادية، فيكشف عن شيء مما أثر عنهم في صحرائهم، وتأثير هذه الصحراء على أخلاقهم، وكيف كانت معيشتهم في ظل هذه الأخلاق، فتروي هذه القصص الشجاعة

(١) محاضرات الأدباء: ١٤٢. الكشكول: ٢/ ٢٩٣.

أو الكرم، أو الإباء، وعدم قبول الضيم، أو عزة النفس، والترفع عن الدنايا.

وكانت هذه القصص وهي عن الجاهلية أحياناً تدور في مجتمعاتهم، وهي سلوتهم فيها، وعمار سمرهم، يقدمون راويها، ويكرمون جامعها؛ وما جمع منها جاء عن طريق هذه المجالس، وهذه المنتديات، والقصة الآتية فيها تفصيل لبعض جوانب الحياة في الصحراء، وما كان عليه الأعراب من المحافظة على العادات التي سنوها فألفوها، فحافظوا عليها، وعضوا عليها بالنواجذ، وحموها بالسلاح:

«قال زياد لغيلان بن خرشة:

أحب أن تحدثني عن العرب وجهدها، وضنك عيشها، لنحمد الله على النعمة التي أصبحناها.

فقال غيلان:

حدثني عمي، قال:

توالت على العرب سنون تسع في الجاهلية، حطمت كل شيء، فخرجت على بكر لي في العرب،

فمكثت سبعاً ولا أطعم شيئًا، إلا ما ينال منه بعيري، أو من حشرات الأرض، حتى دفعت في اليوم السابع إلى حواء عظيم، فإذا بيت جُحِشَ عن الحي، فملت إليه؛ فخرجت إليّ امرأة طوالة حسّانة، فقالت:

منْ؟

قلت: طارق ليل، يلتمس القِرى.

فقالت: لو كان عندنا شيء لآثرناك به، والدال على الخير كفاعله، حِسّ هذه البيوت، ثم انظر إلى أعظمها، فإن يك في شيء منها خير ففيه.

ففعلت، حتى دفعت إليه؛ فرحب بي صاحبه، وقال:

مَنْ؟

قلت: طارق ليل، يلتمس القِرى.

فقال: يا فلان.

فأجابه، فقال:

هل عندك طعام؟

فقال: لا.

فوالله ما وقر في أذني شيء كان أشد منه .

قال : فهل عندك شراب؟

قال : لا . ثم تأوّه، فقال : بلى، قد بقّينا في ضرع الفلانة شيئًا لطارق، إن طرقك .

قال : فأت به .

فأتى العطن، فابتعثها .

فحدثني عمي، أنه شهد فتح أصبهان، وتُستر، ومهرجان، وكور الأهواز، وفارس، وجاهه عند السلطان، وكثرة ماله وولده، قال :

فما سمعت شيئًا قط كان أشد من شخب تلك الناقة في تلك العلبة .

حتى إذا ملأها، وفاضت من جوانبها، وارتفعت عليها شكرة (رغوة) كجِمّة الشيخ، أقبل بها، يهوي نحوي، فعثر بعود، أو حجر، فسقطت العلبة من يده؛ فحدثني أنه أصيب بأبيه وأمه، وولده، وأهل بيته، فما أصيب بمصيبة أعظم من ذهاب العلبة .

فلما رأى ذلك رب البيت خرج شاهراً سيفه،

فبعث الإبل، ثم نظر إلى أعظمها سناماً، ودفع إليه مدية، وقال:

يا عبدالله، اصطل، واحتمل (أي اشو اللحم).

فجعلتُ أهوي بالبضعة إلى النار، فإذا بَلَغَتْ إناها (نضجها) أكلتها؛ ثم مسحت ما في يدي من إهالتها (أثرها) على جلدي، وقد كان قَحِل (يبس) على عظمي، حتى كأنه شنّ. ثم شربت شربة ماء، وخررت مغشيًّا عليّ، فما أفقت إلى السحر.

وقطع زياد الحديث، وقال:

لا عليك ألا تخبرنا بأكثر من هذا. فمن المنزول به؟

قلت: أبو علي عامر بن الطفيل». [1]

إن هذه قصة جميلة، متناسقة الأجزاء، متتابعة الحوادث، كشفت جوانب متكررة تحدث في حياة الأعراب، وتصور شظف العيش المرعب في أوقات الجدب، وسنين المحل، وترسم معاناة الناس، وما يلقونه من الجهد، وترسم معالجة العادات والتقاليد

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٦٩.

لمثل هذا النقص في إمداد الطبيعة، فهذا الذي بقي سبعة أيام يعيش مقتاتا على ما يأكله جمله من يابس العشب، وما صوح منه، وما جف من أغصان الشجر، ودواب الأرض، يُشفي بعد ذلك على شربة حليب، فيحرمه سوء حظه منها. والمضيف قبل ذلك حسب حساب الضيف ـ كالعادة ـ فترك في ضرع الناقة قليلاً، ليقابل ما يطرأ في الليل.

ويشعر المضيف أنه آن الأوان أن يشمر عن ساعده ويجتث المشكلة من أساسها، فيعمد إلى أسمن ما عنده من الإبل فيذبحها لرجل واحد، ليعدل كفة ضياع الحليب، ويترك ضيفه يغيظ الجوع، ويقهر شدته، وينعم بنعمة ساقها الله إليه، فيأكل ويأكل، حتى يضيق بطنه عن أن يتحمل نَفَسَه، فينام ملء عينيه، حتى يستيقظ في آخر الليل، وقد شبع من النوم، ومن الأحلام الجميلة، مثلما شبع من لحم الناقة الوافر.

لقد كان زياد يعرف القصة من قبل، ولقد كانت تعجبه هذه الصور من شظف العيش، فأراد ـ وهو

الحاكم ـ أن يذكر الناس حوله، بما هم فيه من نعمة، يوقظهم من غفلتهم عن ذلك، ويريهم درجة الفقر والعوز، التي كان فيها الناس في صحرائهم، والنعمة التي جاءتهم، يطفح إناؤها، ويطيش زبد درتها، فانتقلوا بهذا من تلك الحياة إلى ما وصفه عم غيلان من الخير العميم، الذي جاءهم من فتح بلدان ملأى بالخير والنعم، وبما أصبحت عليه حال عمه من قربه من السلطان.

ولقد جاء غيلان بما أراده زياد، فأوقفه عند الحد الذي قصده، ولم يبق مما يهمه، ويهم السامعين، غير اسم الكريم الذي ينحر الكوم لأضيافه، ليرد له معروفه ذكراً حسناً، وسمعة مضيئة؛ ولعل السامعين لم يدهشوا من سماع اسم عامر بن الطفيل، فاسمه معروف لهم، ولقد كان أهلاً لما يقال عنه، وما يمدح به.

هذه صورة تتراكب في داخلها صور، فيها ذم للصحراء، أم العربي، الرؤوم حينًا، القاسية حينًا

آخر، ولكن على متنها قومًا يضيء الخير في نفوسهم، إشعاعا تخلل الأجيال، وسارت بذكره الركبان. ولعل العربي بهذا يتفكر، فيقر بأن حالة الضنك والشدة التي كان فيها العرب لم يقض عليها إلا الإسلام بتعاليمه، وباختياره العرب حاملي مشعله إلى الأمم المجاورة، فكافأهم على جهادهم وكفاحهم، ونشرهم الدعوة، بالعيش الرغيد؛ وأبدلهم بحياتهم القاسية حياة لينة رخية.

ونأتي إلى قصة تتأرجح النظرة إليها بين القبول والرفض، وبين اعتبارها وقعت فعلاً؛ لأن وقوعها ممكن، وليس مستحيلاً أو أنها لم تقع، وإنما هي تشبه أسلوب النحل في الأعراب، لأن فيها عنصر الاستثارة، والرد السريع، واللسان الخشن الجاف، وهي ما يقدمه بين أيديهم القصاص، لينسجوا قصصهم عليه، والقصة كمايلي:

«قال المدائني:

كان للمغيرة بن عبدالله الثقفي، وهو على الكوفة،

جدي، يوضع على مائدته، بعد الطعام، لا يمسه هو ولا غيره، فقدم أعرابي، فأكل لحمه، وتعرق عظامه.

فقال: يا هذا، أتطالب هذا البائس بذحل؟

هل نطحتك أمه؟

قال: وأبيك[1]، إنك لشفيق عليه، هل أرضعتك أمه؟». [2]

لا ندري ما الحكمة في وضع جدي على السفرة، بعد الانتهاء من الطعام، ولا يزين المائدة جدي مشوي يوضع بعد أن يأكل الناس، وهذا مما يضيف إلى اهتزاز القصة، وإذا كان هذا وُضع ليأكل منه النساء فيما بعد، أو العاملون، فالعادة أن يوضع في وسط المائدة، بعيداً عن أن تطوله الأيدي، ويستحي الناس أن يقسروا أيديهم فتمتد لتطوله.

وتأتي استعارة جميلة على لسان أعرابي، تستحسن

---

(١) هذا حلف بغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ والحلف بغير الله شرك؛ وهذا من بقايا الجاهلية، بقي عالقاً على ألسنة الناس، يقولونه دون أن يقصدوا مدلوله، أو يفكروا في مؤداه.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٨٣.

وتتداول، فتجد طريقها إلى التدوين، فتطل إلينا لامعة أو ملمعة! والجملة هي:

«نظر أعرابي إلى رجل جيد الكدنة (الشحم) فقال له:

يا هذا، إني لأرى عليك قطيفة من نسج أضراسك مُحْكَمَة» .[1]

وجاءت لهذه الجملة الشهرة من هذه الاستعارة الجميلة، التي جعلت الصورة ملفتة للنظر؛ ووصل إغراؤها إلى العامة في زمننا، فكثيراً ما قالوها للسمين تفكهاً وتنذراً ومزاحاً معه.

والجملة تأتي مروية على لسان الأعراب، تتميز بالاختصار والاقتضاب، وحسن التصوير، وصواب الحكمة، ودقتها، ومثل الجملة السابقة الجملة الآتية، وهي جملة صادقة المعنى، دقيقة المؤدى، الواقع يعضدها، والتبصر في الناس يؤكدها، تصلح لكل زمان، وترى واضحة عند حدة بحث أمور الأوطان:

(١) البصائر: ٢/ ٩٢. عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٨.

«قال أعرابي:

من كان ابن بلدك، فهو كولدك» .[1]

وتتبين صحة ذلك عندما يكون المرء بعيداً عن وطنه، فيرى أحد أبناء وطنه، فيفرح به، ويرى فيه صورة أهله وولده، فيعامله معاملتهم، ويستقبله استقبالهم، خاصة إذا كانت غيبته عنهم سنين طويلة، مما راكم الشوق إلى أهله، ووطنه في نفسه.

وهذا الأمر صادق في الأزمان الأولى، عندما كان الناس يتغربون، ويبتعدون عن بلادهم، ويسعون بجد واجتهاد في طلب العيش، والسعي الملحف في طلب الرزق، والبقاء خارج بلادهم مدداً طويلة، وسنين عديدة، يتشوقون أثناءها لأخبار أهلهم وبلادهم، وما جد عليها وعليهم بعد سفرهم؛ أما اليوم، وذهاب الناس للسياحة والمتعة، والاستجمام، والابتعاد عن العمل، فكثير منهم يزهدون في رؤية ابن بلدهم، لأنه يهدم ما رتبوه من برنامج الرحلة،

---

(١) البصائر: ٤/ ١٣٦.

وقد يحرجهم بتصرفاته، في زمن اختلفت فيه نظرة الناس للأمور؛ فتجد ابن بلد يتحاش أن يراه ابن بلده، أو يلتقي به، وهو شعور متبادل من الاثنين، والهدف واحد، والقصد متشابه. وبهذا تبطل إلى حد ما حكمة الأعرابي التي ذكرناها.

ومن الجمل القصيرة الصادقة، المليئة بالحكم، المجربة في ضوء نتائج لم تفشل، الجملة الآتية، وقد جاءت على لسان أعرابي:

«قال أعرابي: الحسود لا يسود». [1]

والحسد نار متأججة، والسيادة برد وسلام، فكيف يتفقان، وسيد القوم من يقدم مصلحة قومه على نفسه، ولا يرضى لهم إلا الجميل المفيد، ويسعى ليوفره لهم، فإذا نالوا ما طلبوا، وحصلوا على بغيتهم، أثلج صدره ذلك، وكلما استطاع أن يكسب لهم زرع في قلوبهم دوحة اعتراف لمعروفه؛ فهو ينسى نفسه، وتغيب عن باله مصلحته، يتفانى في السعي فيما

---

(١) البصائر: ٤/ ١٧١.

يسعدهم، ويجهد فيما فيه غنم لهم؛ فإذا حل محل هذا حسد لهم على ما حباهم الله، فإنه غير خليق أن يتقدم صفوفهم، ومكانه يصبح خلف الصفوف منبوذاً.

إن كلمة الأعرابي هذه منتقاة، ودقيقة في معناها، تصور واقعاً في مجتمعه، وتصح عن كل مجتمع، وتنطبق على أمة؛ كل أمة ينطبق عليها هذا في حدود نظامها، وفيما أرتضته من عاداتها، وتقاليدها؛ ومن هذا ساد الكريم، وفي ظل هذا تقدم الحليم، وبهذه الفضيلة برز الشجاع. وعين القوم دائماً على من يعطي من نفسه أكثر ممن يأخذ لها؛ وعدم الأثرة عندهم مقدر، وحب النفس مرفوض مجانب.

وللأعراب ذهن صاف يرون به ما يستطيعون أن يصفوا به مظاهر مجتمعهم، فإذا وصفوا جانباً من جوانبه، أو أمراً من محتوياته، جاؤا بصورة مطابقة، محاطة بجمال اللفظ، وحسن الرسم، ودقة المعنى؛ ولهم في الاستعارة والتشبيه، وبقية أنواع البديع،

ما يخدمهم في هذا، ويأتي لنجدتهم ورفدهم؛ يقلبون القول على وجوهٍ، كل وجه ينافس الآخر في البهاء والرونق، ويزاحمه قصب السبق في التصوير البارع، مع دقة في المعنى، وإبداع في الفكر.

وصف أحدهم التمر والحنطة فقال:

«قال شيخ من البادية:

أضافنا فلان، فأتانا بحنطة، كأنها مناقير الغربان، وتمر كأنه أعناق الوز، يوحل فيه الضرس» .[1]

وأهل الحاضرة يحتقرون أهل البادية علناً، أو داخل نفوسهم؛ وأهل البادية كذلك يحتقرون أهل الحاضرة علناً، أو داخل أنفسهم؛ ولكن لابد لكل طرف أن يتعامل مع الآخر، لما توجبه أسباب المعيشة والاجتماع؛ ويبدو أن هذا في طبيعة البشر، فالذي في المدينة ينظر نظرة متدنية كذلك إلى ابن الريف، وابن الريف كثير الانتقاد لما يأتي به ابن المدينة؛ وكل مجتمع مغاير للآخر في درجة الحضارة علواً، أو

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٢٣.

انخفاضًا، ينظر إلى الآخر باحتقار يرتفع كثيراً، أو يهبط؛ ولهذا تأتي حوادث بين الفريقين، تُصعد على السطح ما كان راسباً في القاع؛ ويحدث هذا عند أي إثارة، وبأدنى الأسباب، لأن المُخَبَّأ كان يغلي في الداخل، يغذيه عند هؤلاء وهؤلاء، ما يدور في مجالسهم ونواديهم، وهذا يقربه من باب الخروج، ويغري بالتنفيس عندما تأتي الفرصة. والقصة الآتية تمثل هذا:

«جاء على لسان فتى من أهل الكتّاب:

كنا في طريق مكة بالخزيمية، فأتانا أعرابي بكمأة في كساء قدر ما أطاق، فقلنا:

بكم الكمأة؟

قال: بدرهمين.

فاشتريناها منه، ودفعنا الثمن إليه، فلما نهض قال له بعضنا:

في است المغبون عود.

قال: بل عودان.

وضرب الأرض برجله، فإذا نحن على الكمأة» .[1]

نظرة الاحتقار عند هؤلاء الكتّاب جعلتهم يظنون أنهم غلبوا هذا الأعرابي، لأنهم قارنوا ثمن الكمأة في الأسواق عندهم، فاعتقدوا أن الثمن الذي دفعوه للأعرابي متدن، وأنهم شروا منه في غير صالحه، مما جعل أحدهم يأتي بعبارة بذيئة، التفت معها الأعرابي، فقبل ما فيها من تحد ورهان، وضاعفه، وسارع يريهم غباءهم وذكاءه، فرفس الأرض برجله فإذا هم على روضة ملأى بالكمأة، ولم يزد الأعرابي عن أن جمع بضاعته منها، وهو زرع لم يتعب في بذره، ونبت لم يخسر في سقيه، وما الثمن الذي دفعوه إلا لمجهود بذله في جمعه، فما أقله من مجهود، وما أكثره من ثمن.

إن كان هؤلاء الكتّاب قد أضمروا من قبل احتقار هذا الأعرابي، وعرضوا عليه ما ظنوه ثمناً بخساً، فقد أضمر هو احتقارهم بعرضه كمأة بمال، وهم جلوس عليها، ما كان عليهم أكثر من أن يجنوها

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٠٥.

كما يجنى الفلاح ثمرة ناضجة.

ويرد في هذه القصص ما يظهر الأعرابي بالمؤمن، المُسلِّم بقضاء الله وقدره، فإذا جاء الأمر على ما يريد قبله، وتصرف في ضوء ما يدبره الله عليه من حسن التصرف في مقابلة ما حدث، لا يسخط ولا يتذمر؛ لأنه رجل يؤمن بالواقع أنه وقع، ولابد من معالجة الأمر في ضوء ما يرشده الله إليه من تدارك ما بقي، أو الاستفادة التامة مما حدث، وهذا أعرابي سقط جمله، وهو أداة تنقله إلى رزقه، وهو أداة رئيسة مهمة، فماذا فعل؟ الجواب في القصة الآتية:

«بينا أعرابي يسير، وهو يوضع بعيره (يحثه على العدو)، إذ سقط بعيره، فنحره، وأكله، فأنشأ يقول:

إِنَّ السَّعِيْدَ مَنْ يَمُوتُ جَمَلُه
يَشْبَعُ لَحْمًا وَيَقِلّ عَمَلُهْ»[1]

لقد سلّم أمره، أمام هذه الكارثة، لله، ونظر إلى الجانب المقبول من الأمر، وإلى الإشعاع الخافت في

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٣٥.

هذه الظلمة، وركز تفكيره ـ حسب الفطرة ـ على ما في الأمر من نفع، إيمانًا بأن ما يأتي من الله لابد أن الخير فيه، فتلمس بعض ما تبين له من الخير، فنسي خسارته، وذكر ربحه من طعام يشبع بطنه، وفقد يريح من الكدح والكد. هذا الأعرابي وهو يقابل هذه الشدة بهذا الإهمال جدير الاّ يحزن.

وعندما يريد ابن المدينة، أن يداعب ابن البادية، يأتيه الرد مغموساً بالإدام الذي اختاره الحضري، فيأتيه من حيث لم يظن أنه يأتيه، ويتبين أن الأعرابي أهل لأن يسأل وأهل لأن يرد، ويكيل الصاع صاعين في لمز جاءٍ عرضاً، والقصة كمايلي، إن صحت:

«قيل لأعرابي: أتحسن أن تأكل الرأس؟

قال: نعم، أبخص عينيه، وأسخي خديه، وأفك لحييه، وأرمي الدماغ إلى من هو أحوج مني إليه.

وكانوا يكرهون أكل الدماغ ولذلك يقول قائلهم: أَنَا مِنْ قَبِيْلَةٍ تبقي الُمخّ في الجَمَاجِمِ». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٣.

وأهل المدن يأكلون المخ، ويجدون لذة في ذلك، ولهذا سارع الأعرابي يعلل أسباب أكلهم له أنه تدنٍ في أدمغتهم يحتاجون إلى مخ الحيوان ليكملوا به نقصها!

وعندما يجد الحضري لدى البدوي ميزة، فإنه يندهش لوجودها، ويتساءل مستكثراً إياها على البادية، عن أسباب وجودها فيهم؛ وتدفعه دهشته إلى أن يجمع هذه الأمور المدهشة له، فيوجهها سهاماً منطلقة إلى أحدهم، علّه يكشف له ما كمن من أسباب خلفها، لم يعرف كنهها، ولم يستشِفّ حقيقتها:

هذا هو العتبي يعن له ثلاث ملاحظات مدهشة فيسأل أعرابياً عنها، والقصة كمايلي:

«قال العتبي:

قلت لرجل من البادية: يا أخي إني لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا، وعوامّكم أظرف من عوامّنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا؟

قال: وما تدري لِمَ ذاك؟

قلت: لا.

قال: من الجوع، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لخلوّ جوفه». [1]

لا أدري ما الجزء الذي أوجب تدوين هذه القصة! أهو رجحان الظرف في الأمور الثلاثة التي عددها العتبي؟ أم هو جواب الأعرابي، والمثل الذي جاء به؟ وهل اقتنع العتبي بهذا التعليل، وقَبِل الرد.

ورد الأعرابي نظرياً منطق، ولكن هل الجوع فعلاً يأتي بالظرف؟ الجوع كافر، ويقلب المرح في الإنسان إلى مظهر حزن وترح، ولعله يشغل الفقيه بنفسه عن أن يجد القوة والميل للظرف، وجذب الناس؛ ولعله يزيد جنون المجنون، فيخرجه عن طور الجنون إن كان هادئاً إلى جنون مخيف.

على أي حال مظهر الجواب مقبول، خاصة أن الإنسان يوافق أنه لولا أن جوف العود أجوف خال، لما جاء منه الصوت المقبول الذي يأتي منه.

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٥.

ولاحظ حضري ملاحظة على الأعراب، وأراد أن يبديها لأعرابي، لأن صدره ضاق بها، إذْ لم يعرف سببها، ولم يدر ما خلفها، ورجا أن يكون سؤاله سبباً في إجابة تشفي الغليل، وتزيل اللبس، والقصة هكذا:

«قيل لأعرابي: ما لكم تأكلون اللحم، وتدعون الثريد؟

فقال: لأن اللحم ظاعن، والثريد باق». [1]

الثريد هو طعام الأعرابي المعتاد، يأكله كل يوم إذا كان الأمر ميسراً، وهو أقرب إلى التناول من اللحم. أما اللحم فهو لا يأكله إلا إذا حل به ضيف، أو أقيم عرس، أو طهر له ولد، أو قدم له غائب، أو ولد له مولود؛ ويأكله في الأعياد، وعند العودة من غارة، أو رد غارة، فهو أكثر ندرة في أكله من الثريد، أما عماد الثريد فماء يغلي، وسمن مخزون، وخبز دقيقه متوافر عنده إن كان ممن يقدر

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٩.

على ذلك.

لهذا فهو يعمد إلى أكل اللحم إذا قُدِّم، ولعله يفعل ذلك بنهم، وهو ما لفت نظر الحضري، أما الثريد فهو يقدم عليه أداء لِواجب بطنه في طرد الجوع، وإسكات عصافير المعدة إذا زقزقت، وضجت بطلب الطعام.

والنهم في الأكل تظهره القصة التالية:

«قيل لأعرابي آخر:

ما تسمّون المرق؟

قال: السخين.

قال: فإذا برد؟

قال: لا ندعه يبرد». [1]

وحبهم للحم إذا حضر لا يلامون عليه، فالنفس تشتاق إلى ما تحرم منه زمناً طويلاً، والثريد أقرب إلى التناول، وقصصه في أحاديثهم كثيرة، ويبدو أن من تسلية الحضر الحديث عن الأعراب، والتركيز على

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٩.

بعض الجوانب عندهم، ومنها الطعام، وما يتصل به، ويمثل هذا، ويرمى إشعاعاً على ما سبق، القصة التالية:

«عن الأصمعي قال:

كنا عند الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال، يا أصمعي:

حدثنا حديث مزرد.

فقلت: إن مزرداً، أخا الشماخ، كان غلاماً جشعاً، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعام عليه؛ وكان ذلك يحفظه، فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها؛ فدخل مزرد الخيمة، وعمد إلى صاعي دقيق، وصاع من تمر، وصاع من سمن، فجمعه، ثم جعل يأكل ويقول:

وَلَمَّـا غَـدَتْ أُمِّـي تَمِيْـرُ بَنَـاتِهَـا
أَغَرْتُ عَلَى العِكَمِ الَّذِيْ كَانَ يُمْنَعُ
لَبَكْتُ بِصَاعَيْ حِنْطَةٍ صَاعَ عَجْوةٍ
إلَـى صَـاعِ سَمْـنٍ فَـوْقَـهُ يَتَـرَبَّـعُ

وَدَبَّلْتُ أَمْثَالَ الأَثَافِي كَأَنَّهَا
رؤُوس نِقَادٍ[1] قُطِّعَتْ يَوْمَ تَجَمَّعُ
وقُلْتُ لِبَطْنِي ابْشِر اليَوْمَ إِنَّهُ
حِمَى أُمِّنَا مِمَّا تَحُوزُ وَتَرْفَعُ
فإِنْ كُنْتَ مَصْفُوراً فَهٰذَا دَوَاؤُهُ
وإِنْ كُنْتَ غَرْثَانًا فَذَا يَوْمُ تَشْبَعُ

فضحك الرشيد، حتى استلقى على ظهره، ثم قال:

كلوا باسم الله! هذا يوم تَشْبَعُ، يا أصمعي». [2]

هذه صورة، إذا صحت القصة بكاملها، من صور حياة الأعرابي في باديته، وهذا ما في مَخْزُونه، في داخل خيمته، وهذه الحراسة المشددة من الأم، وانتهاز غفلتها من ابنها، والأصمعي صاحب أخبار طريفة، في وقائعها ندرة، أتحف بهذه القصة هارون الرشيد، وفتح شهيته للفالوذجة، التي وضعت أمامه.

---

(١) النقاد: صغار الغنم.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٢٧.

وتنقل مصادر التراث قصة حتى لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب التراث، ولعل السبب أن معاوية طرف فيها. وهي تُري أنفة الأعراب، وعزة نفوسهم، وحدة رد الفعل عندهم، والقصة كمايلي:

«أجلس معاوية على مائدته رجلاً يؤاكله، فأبصر في لقمته شعرة، فقال:

خذ الشعرة من لقمتك.

فقال له الرجل: وإنك لتراعيني، مراعاة من يبصر الشعرة في لقمتي! والله لا أكلت معك أبداً.

ثم خرج الأعرابيّ، وهو يقول:

وللْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ
يُلاَحِظُ أَطْرَافَ الأَكِيْلِ عَلَى عَمْدِ»[1]

ولعل ما دعا الأعرابي إلى هذه الثورة الجامحة، دون سبب داع لها، هو خجله من الملاحظة، وكيف أنه لم يفطن للشعرة، دليل الجشع، وشدة النهم، وسرعة الالتقام. فأراد أن يغطي خجله بهذا التصرف

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٤.

الأرعن. هذا إذا صحت الرواية، ولم تكن مما يؤلف ضد الأعراب، وضد معاوية، من أعداء كثر، أو من أديب سنحت الفكرة في ذهنه، فسارع يقيد أوابدها، ويضع السلاسل في أقدامها، فيحبسها بالتدوين، والتسجيل.

وقصة مماثلة أعجبت المؤلفين، فتناقلوها، وأخذ الواحد منهم يرويها عن الآخر، وهي من القصص التي تروى عن ذكاء الأعراب، وفطنتهم، خاصة الصغار منهم، والقصة كمايلي:

«قيل لأعرابي: أيسرك أن تكون أحمق، وأن لك مئة ألف درهم؟

قال: لا.

قيل: ولِمَ؟

قال: لأَن حمقة واحدة تأتي على مئة ألف درهم، وأبقى بعدها أحمق». (١)

وإنه لصادق فيما قال، فكم مال جمعه العقل،

---

(١) البصائر: ٥/ ١٧٥. ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٥.

وفرقه الحمق والخطل، ولقد كان الرد من هذا الأعرابي، وهو في نصوص أخرى صغير السن، حكيما، وجاء سريعا، فيه بديهة وحكمة.

ويشهد شاهد عدل، وقاض منصف على الأعراب، بحكم مقبول، أقر لهم فيه بما لهم من فضل، ونبّه إلى ما ينقص من هذا الفضل، فأقر لهم بميزة، ونبه إلى ما يشوبها من كلف، يشوه صفحة وجهها، والقول ما جاء على لسان الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله:

«قال عمر بن عبدالعزيز: ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم». [1]

السلف فيهم صفاء النية، وهي في الأعراب، والسلف فيهم حمية، والأعراب كذلك، وفي السلف كرم، والأعراب للكرم عندهم أعلى منزلة، والصحابة بعيدون عن التكلف، والأعراب مثلهم في هذا؛ وفي ذهن السلف صفاء وفي ذهن الأعراب صفاء، وعرف

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٦٤.

عن الصحابة نشاطهم ودأبهم، وعدم اعتمادهم في أمورهم على غيرهم، وهذه صفة توافرت في الأعراب، وعرف عن الصحابة صراحتهم في القول، دون خدش ودون أذى، وعرف عن الأعراب الصراحة، ولكنه يشوبها خشونة أحياناً، تُضيع فائدتها، وتجعل بريقها يبهت، ونورها يخبو. والخشونة في الأعراب متوقعة، تنعكس عليهم من بيئتهم القاسية.

ونعود إلى معاوية والأعراب، والقصص التي تأتي مشوهة لسمعته وسمعتهم، وقد يكون وراءها الشعوبية، وما كانت تضعه لتشوه به سمعة العرب عموما، وبعض رجالهم خصوصاً، والقصة الآتية تصور هذا الأمر:

«شهد أعرابي عند معاوية بشيء كرهه، فقال معاوية: كذبت.

فقال: الكاذب والله مزمل في ثيابك.

فقال معاوية، وتبسم: هذا جزاء من عجل». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٦٥.

ومؤلف القصة ضرب عصفورين بحجر واحد، فالأعرابي ظهرت منه خشونة متناهية، وجلافة مغرقة؛ فلم يعرف للخليفة قدره، ولم يعط المجلس حقه من الاحترام؛ تصرف بحمق، وتعامل مع الموقف بصلف؛ أظهر بداوته، وكشف عن عدم تهذيبه؛ سارع إلى رد هو عنه في غنى، وبادر إلى قول لم يوزن، ولم يحقق.

ومعاوية أظهر على أنه عجل في الاتهام، وأنه استحق رد الأعرابي القاسي، فجاءته التهمة عائدة، ووصم نفسه بما أراد أن يصم به الأعرابي؛ وأُظهر على أنه أقر أنه أخطأ، وأنه قد عجل في قول ما قال، فناله السوء من جراء خطئه، ووقع عليه الأذى بسبب عدم صبره، وتأنيه.

ونأتي بصورة أريد بها أن تكون مضيئة في جانب الأعراب وحكامهم، وهي تسير على طريق مغاير، تمام المغايرة، مع القصة السابقة؛ فالأعرابي كان مؤدباً في قوله، لبقاً في منهجه، بذل جهده في أن لا يظهر

جهل الحاكم الذي خاطبه، والحاكم جاء ملء برديه، إذ لمح الخطأ، فلم يصر عليه، بل راح يصححه، وكأنه يتلذذ بتعويد لسانه على الصواب، بعد أن زل وأخطأ؛ ولم يكن عنده عقدة نفسية تمنعه من الإقرار بخطئه، وسعيه في وضع الأمر في نصابه، ولم تأخذه العزة بالإثم، فيغالط، أو يكابر، أو يخفي جانب ضعف بدا منه، وشعر أنه غير ملوم في الخطأ، واللوم يأتي في التواني عن التصحيح.

«قال أمير لأعرابي، وقد رأى معه ناقة، فأعجب بها:

هل أنزِيت عليها؟

قال: نعم، أيها الأمير، قد أضربتُها.

قال: قد أضربتَها، وقد أحسنت حين أضربتَها، نِعْمَ ما صنعت حين أضربتَها.

قال (الراوي): فجعل يرددها، فعلمت أنه يريد أن ينقف بها لسانه». [1]

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٢.

لم يكتف هذا الأمير العاقل بنطقها مرة، بل رددها عدة مرات، ليأمن الزلل من جانبين، الأول لتنبيه الأعرابي إن كان قد زل، أن يراجع نفسه، والثانية إن كانت هذه الكلمة هي الصحيحة في هذا المجال، فقد كررها ليحفظها حتى لا ينساها، لأنه إن كان أخطأ عندما لم يعرفها، فلا عيب عليه ولا لوم، أما إن أخطأ في المستقبل فسيكون ملوماً لأنه لم يحفظ، أو حفظ ولم يتذكر. وهناك أمر ثالث يجب ألا يغفل، وهو أن هذا الأمير، وهو صاحب مثل هذا العقل، وبهذا الحرص، لابد أنه يجد لذة في إضافة شيء ثمين إلى معلوماته، وإلى ثقافته، لأنه يوسع مداركه، ويزيد من اطلاعه، وفي هذا مكسب عظيم، فيه لذة متناهية، ومتعة فائقة.

ومن الأمور التي تروى عن البادية، والله أعلم بصحتها، أمر جميل، يكشف عن إضاءة لفظية، وإشعاع فكري، وصورة بديعة من البيئة الصحراوية، فالقمر أداة في البيئة مهمة، وجزء أساس من حياة

الصحراء، يهدي الأعرابي ليلاً طريقه، ويضاعف ساعات عمله، وهو أنيسه في وحشة الصحراء، وهو مقياس الزمن الذي يدور في فلكه، فلا غرو أن يقول فيه قولاً حسناً، وأن يتغزل فيه، أليس في ضوئه تغزل في حبيبته، وأليس بصفحته المشرقة طالما شبه وجهها الجميل، حتى الكلف في وجه القمر كان يعطيه وصفاً يخرجه من العيب إلى الحسن، ومن القبح إلى الجمال، ومن الانتقاد إلى الامتداح، والقول جاء كما في هذا الخبر:

«نظر أعرابي إلى القمر حين طلع، فأبصر الطريق، وقد خاف أن يضل، فقال:

ما عسيت أن أقول، إن قلت: حَسَّنك الله فقد فعل، وإن قلت: رَفَعَك الله فقد فعل» .[1]

إنه اعترف بالمعروف للقمر الذي أنار له الطريق، ففكر في أن يدعو له بما يناسبه، فوجد أن الله ـ سبحانه ـ قد أعطاه ما أراد الأعرابي أن يطلب من ربه

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٠٢.

أن يعطيه إياه. ولقد قدم شعوره نحو القمر في هذه الجمل الموزونة، القصيرة، الجامعة.

ويتعجب حضري من حياة البادية، ويندهش من قسوتها، ويحاول عن طريق هذه الدهشة، وهذا العجب، أن يصل إلى ما وراء ظاهر الأمر، فيعرف من أعرابي ما لم يتبين له، ويستفسر عما خفي عليه، فيأتيه الجواب من الأعرابي سيلاً مدراراً من القول، وأفواجاً متتالية من الصور، مُغَلَّفَةً لِمعانٍ تصف مظهراً من مظاهر الحياة، أكثر من أن تكشف بصورة فلسفية عن كنهها؛ ومجرد الظاهر وصوره المتعددة، التي جاء بها الأعرابي، تشفي الغليل، وتذهل عن الذهاب إلى ما هو أبعد، أو ما هو أعمق، والقصة جاءت على الصفة الآتية:

«قيل لأعرابي: ما أصبركم على البدو!

قال: كيف لا يصبر مَن طعامه الشمس، وشرابه الريح، لقد خرجنا في أثر قوم قد تقدمونا بمراحل، ونحن حفاة، والشمس في قلة السماء، حيث انتعل

كل شيء ظله؛ وما زادُنا إلا التوكل، وما مطايانا إلا الأرجل، حتى لحقنا بهم». [1]

لقد أجاد هذا الأعرابي وصف مظهر من مظاهر البادية، فجاء بصور واضحة عن عدة نواح في حادثة واحدة، مَثَّلَ كل ما فيها حياة الجد المتناهي، وقسوة المعيشة، وعزة النفس، والإباء، فلم يرض الضيم عندما أغار عليه المغيرون، فهب ليثأر لكرامته، ولم يبال بما عليه طقس بلاده، ولم يلتفت للشمس الحارقة في وسط النهار، ولم يبال بالحفاء، ولسع الأرض الجائر، وليس معهم ما يركبون، ولا بأيديهم ما يأكلون، فزادُهم التوكل على الله، وخيلهم وجمالهم أرجلُهم الخشنة، وعزمُهم الأكيد، حتى وصلوا إلى هدفهم، ونالوا بغيتهم.

ثم انظر إلى هذه التعابير المنيرة من أمثال: «طعامهم الشمس» و «شرابهم الريح» و «حيث انتعل كل شيء ظله» و «ما زادُنا إلا التوكل» و «ما مطايانا إلا الأرجل»،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٠٧.

فإن كان الأعرابي قال هذا فعلاً فقد أجاد؛ وإن كان قيل على لسانه، فلم يقصر من قاله عن إتقان التقليد.

ويروى عن أعرابي قصة غريبة، فيها إبداع، وفيها جدة، فإن نظرت إلى الحكم فيها، وقلت إنه غير عادل فقد صدقت، وإن قلت إنه اجتهاد موفق، أدى إلى الهدف، وأوصل إلى الغاية، فلم تعد الحقيقة؛ فإذا لم يكن عند هذا الأعرابي الوسيلة المعتادة التي يعرفها المتعلمون، المتفقهون في الدين، وليس عنده التجربة، فلابد له من وسيلة توصل إلى إنهاء الخلاف، بما يريحه، ويريح الخصوم؛ وقد اخترع هذا الأعرابي الوسيلة، فأوصلته إلى الغاية؛ فإذا كانت الغاية تبرر الوسيلة، فله أجر النجاح بقدر اجتهاده، ولكنه اجتهاد مبتدع، لفت إليه نظر من دون هذا الخبر، وقبله لفت نظر من رآه، أو سمع به ممن قد رآه، والخبر هكذا:

«كان باليمامة أعرابي، وال على الماء، فإذا اختصم إليه اثنان، وأشكل عليه القضاء، حبسهما حتى

يصطلحا، ويقول: دواء اللبس الحبس» .[1]

وإذا كان اللفظ الموجز المتقن، الذي لا يأتيه الخلل عن القتل والقصاص في الإسلام جاء في كلمات مختصرة، وَفَّتْ هذا الجانب من التقاضي بالعدل في أمور القتل، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ .[2]

فقد سعد بها المسلمون، وانتظمت بها أمور حياتهم، والعرب في الجاهلية كانوا يدركون أهمية اختصار الجمل وإتقانها في الأحكام، فكانوا يأتون بها مختصرة، وأحياناً مسجوعة، وعن القتل كانوا يقولون: «القتل أنفى للقتل» فجاؤا بهذه الجملة، ولكنها قصرت كثيراً عن معنى الآية الكريمة، ولم تف بما وفت به، فجاءت كلمتهم متحدثة عن نتائج القصاص، لا عن القصاص نفسه، وكررت كلمة القتل فأثقلت الجملة، وأبهمت المعنى، مما جعل

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

السامع يخمن تخمينا أن كلمة القتل الأولى هي القصاص؛ إذ قد يدخل تحت إطلاقها أخذ الثأر، وهو أقرب إلى طبيعة الجاهلية، والثأر يقود إلى ثارات، وهذه قد تلتحم فيها عشيرتان، أو أكثر، وقد تتصادم فيها قبيلتان أو أكثر، ولا يعلم إلا الله إلى ماذا ينتهي الأمر، وما حرب داحس والغبراء عنا ببعيد، وكذلك حرب البسوس.

وهذا الأعرابي في النص الذي سقناه، سار على نهج العرب وطريقة تعبيرهم، فجاء بجملة مختصرة، جعلها مادة مضيئة في قانون الماء ولائحته، يحكم بها على من اختصم، وادْلَهَمَّ الحل أمامه فيه، فقال: «دواء اللبس الحبس»!

وتأتي صورة ليست في صالح الأعراب، ولا ذنب لهم إذا أخطأ واحد منهم، هذا إذا صح الخبر، خاصة وأنه لا تفصيل في الخبر يبين الأسباب التي جعلت هذا الأعرابي يتصرف هذا التصرف المشين مع هذا الرجل الكريم، ويبقى الأمر ليس في صالح

الأعرابي، وسيق لطرافته، ولأنه مثل من الأمثلة التي أتت بحكمة أصبحت تردد على الألسن وهي : «ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه»، والنص كمايلي :

«بينا ابن عمر جالس إذ جاء أعرابي، فلطمه؛ فقام إليه وافد بن عبدالله، فجلد به الأرض، فقال ابن عمر :

«ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه» .[1]

لقد أصبحت هذه الكلمة على الألسن، لأنها صادقة، وتمثل ما تعنيه تمثيلاً صادقاً. ولا ندري ما الذي أثار الأعرابي حتى تصرف هذا التصرف الشائن، لابد أن هناك ما أثاره، إلا إذا كان هذا الرجل مجنوناً، ولا عتب على المجنون.

والأعراب لهم فخر متناه بلغتهم، يحافظون عليها، وينمونها، ويتأنقون عند الحديث بها، أدخلوا فيها أنواع البديع، وجعلوا لكل قسم منه هدفاً، ولكنها كلها تخدم البيان والفصاحة، وهم يعتقدون أن الله

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٦١.

يثيب من حافظ عليها، واعتنى بها، ودافع عنها، ولهذا عجب أعرابي من توفيق الله لأناس في عملهم، رغم إهمالهم لها، واللحن فيْها، والقصة كمايلي:

«دخل أعرابي السوق، فسمعهم يلحنون، فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون!».[1]

واللحن يهدم الفصاحة، والفصاحة هي وسيلة الإقناع، فكيف يستطيع البائع أن يعرض بضاعته، ويبين ميزاتها، ويغري المشتري، عن طريق لغة متدنية، عابها اللحن، والخروج عن القواعد الصحيحة، المعترف بها!؟

ويحاول حضري أن يعلم أعرابيًا كيف يتقن عمله، فيصحح له هذا الأعرابي خطأه، ويبين له موضع الضعف في رأيه؛ والحضري فيما ارتآه أخذه من بيئته، وقاس معاملة الإبل بما يعامل به الناس، والناس أصحاب عقول، تصغر وتكبر، تأتي فائقة، وتأتي متدنية، وكل ميسر لما خلق له؛ أما البعير فتسيره

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٣٤.

الغريزة أكثر مما يسيره العقل، والأعرابي أدرك هذا، من عمق تجربته، وتعددها، ومن صفاء ذهنه، وكثرة استعماله له. وقد أخذ الأعرابي في القصة الآتية قصب السبق على الحضري، لأن الأعرابي وقف عند تخصصه، وتكلم عما يتقنه، ووضع أمامه المقدمات، ثم ركب عليها النتيجة، فجاء قوله صواباً:

«قال عبدالملك لأعرابي: الناقة إذا كانت تمنع الحلب قومتها العصا.

فقال: إذاً تكفأ الإناء، وتكسر أنف الحالب». [1]

يخطئ من لا يعطي القوس باريها، ويتيه في الظلمات من لم يعط التجارب حقها، ويقدرها حق قدرها؛ ويصيب من يكون أمره بخلاف ذلك، فلا يلتفت للقشور، وإنما يعتبر المح والأس، ولا يهمل النظريات، ولكنه لا يقدمها على التجارب؛ ويراعي من تقدمت به السن، وحنَّكَتْه الأيام، وتركت الحياة من مرورها في ذهنه جَوَادَّ توصل إلى نتائج مؤكدة.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٥.

ولنعرف صفاء ذهن الأعراب، ووضوح الأمور في ذهنهم، وغوصهم إلى أعماق نفس الإنسان، وخروجهم منها بحقائق صادقة، يهدونها إلى من يحبون، وينصحون بها لمن يعطونه ولاءهم، برضًى واقتناع، نورد القصة الآتية:

«قال أسيلم بن الأحنف للوليد بن عبدالملك قبل أن يستخلف:

أصلح الله الأمير، إذا ظننت ظنًّا فلا تحققه، وإذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم، فإذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا ذلك بك فيما لا تعلم؛ ودُسَّ من يسأل لك عما لا تعلم». [1]

الوليد بن عبدالملك أمير مؤهل للملك، ومهيأ له بعد وفاة والده، وهو في حاجة إلى أن يبني له سمعة حسنة، وأن يقيم مجداً يفيده في المستقبل عندما يصبح خليفة، وأن يشيد صرح مهابة، يدخره لحكم الناس؛ وهذه النصيحة جاءت لتوفر هذا، وتساعده للوصول

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٩٦.

إلى بغية الحكام هذه .

فأسيلم لا يريد منه أن يكون ضحية للهمّ عندما يظن ظناً بأحد، أو يشك فيه، ولا يريده أن يكون ضحية للدساسين، الذين سيجدون فيه، إن أصبح أذناً، أداة طيعة لأهوائهم، ورغباتهم، ومطية لانتقامهم من أعدائهم، فنصحه أن يهمل ظنه، ولا يتبعه بالتحقيق والتمحيص .

ويريد أن يظهره بمظهر الفهيم، الذي يستوعب ما يقال من أول البدء بالشرح، بل ويعرف ما وراء ما يقال، ويستنبط ما قد لا تكون الكلمات قد أوحت به، وهذا يعطيه فضيلة حدة الذكاء، وسرعة الفهم، ويبعده عن تهمة الغباء، أو بطء الفهم، ويصبح بأخذه هذه النصيحة نابها لا كداً، وذكياً لا غبيا، وحراً تكفيه الإشارة، لا متكلا على من يشرح له شرحاً زائداً. وهذه السمعة تريحه، فتجعل محدثه يعمد إلى الفكرة رأساً دون محاولة لستر غرضه بكلمات مزوقة ومغالطة .

والأعرابيات، وهن بنات البيئة، التي أظهرت الرجال، فجاؤا فهماء بلغاء، لا ينقصن في فصاحتهن عن الرجال، فقد رضعن مثلهم لبان صحة اللغة، وطعمن مثلهم ثديها، وتمتعن بِدِرتها، وهذه أعرابية تقول، فيشهد لها ابنها بالفصاحة، وقوة المنطق، والقصة كمايلي:

«ومن الأسجاع الحسنة قول الأعرابية، حين خاصمت إبنها إلى عامل الماء، فقالت:

أما كان بطني لك وعاءًا؟ أما كان حجري لك فناءًا؟ أما كان ثديي لك سقاءًا؟

قال ابنها: لقد أصبحت خطيبة ـ رضي الله عنك ـ لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام المتخير، كما يبلغ الخطيب بخطبته». [1]

ولدينا بيان مدهش، وقول حق، ومنطق سليم، فيه جرأة، ومحاط بلباقة، تدرج فيه صاحبه من فكرة إلى فكرة؛ جاء فيه بما يقنع، وكشف فيه عن حاجة،

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٤٠٨.

ودل على طرق قضائها، فلم يقل إلا حقاً، ولم يطلب إلا عدلاً، والقول كمايلي:

«قال أعرابي لهشام بن عبدالملك:

أتت علينا ثلاثة أعوام: فعام أكل الشحم، وعام أكل اللحم، وعام انتقى العظم. وعندكم أموال، فإن كانت لله، فادفعوها إلى عباد الله، وإن كانت لعباد الله، فادفعوها إليهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا، فإن الله يجزي المتصدقين.

فقال: هل من حاجة غير ذلك؟

قال: ما ضربت إليك أكباد الإبل، أدّرِع الهجير، وأخوض الدجى، لخاص دون عام». [1]

هذا نصّ يكتب لهذا الأعرابي بماء الذهب، لحسن سبكه، ووصفه الحق الدقيق؛ والمنطق الحسن السليم الذي احتوته عباراته، والتدرج في الفكرة، والسير فيها بطريقة طبيعية: فالشحم أول ما يذيبه القحط والجوع، فإذا زاد استهلك اللحم، فإذا زاد

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧١.

نخر العظم وبراه، وهذا منتهى العسرة؛ فلما وصل في وصفه إلى هذه المرحلة، انتقل إلى الفصل الثاني من الموقف، وهو علاج هذه الحالة، ومقابلة هذه الشدة، بعد أن وطأ لها الأرض التي تجلس عليها، وهيأ لها الفراش الذي تقعد فيه؛ فأتى بما هو ممكن من الحل، وتساءل بأدب عن الأموال، ومن يملكها، فجعل كل احتمال في حيازتها يصب في النهر الذي حفره، وهو نجدة البادية، واسعافهم في محنتهم.

ولما أراد هشام أن يحصر الطلب في أضيق استجابة، لأنه لا يستبعد أن تكون العسرة التي يشكو منها الأعرابي قد وصلت محيط هشام، وأنه يشكو نسبيا مما يشكو منه، إلا أن نبل الأعرابي نطق بلسان ذرب، وقول شريف وأبان أن العناء الذي قاساه، والتعب الذي لقيه في رحلته، إنما هو لصالح قومه، أما لو كان لصالحه هو، لما تكبد السفر، وضرب أكباد الإبل، وصبر على حر الهجير.

هذه صورة مضيئة لهذا الأعرابي، وفخر له ولمن

نشّأه، وللمجتمع الذي تربى فيه، وللقبيلة التي جاء منها، فهو يمثل قول الشاعر:

فَلاَ هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلاَ بِأَرْضِي
سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلاَدَا

فإن العقل المضيء دله على تحبير القول الذي قاله، وأحسن فيه وأجاد، فالعقل بقي معه ليرد على السؤال المفاجئ بما هو أنبل من رص الكلمات، ورصف الأسلوب، وهو المعنى المشع الذي رد به، وأبان أنه أشرف من أن يطلب شيئاً خاصا به، ويترك قومه، يعانون الجوع والمسغبة، وأن حب النفس لم يكن في دمه أبداً.

والأحنف بن قيس، وهو ابن البادية، يصف المجتمع المتماسك، وفيه عزة العرب، وسؤددهم، ويبين العناصر الأساس في الإبقاء على هذا المجتمع القوي، ويبين السوس الذي يمكن أن ينخر في بدنه.

والأحنف من عقلاء العرب، ومن ذوي الأفكار

المنيرة، كلماته تروى، وأقواله تخطب، لا يرمي الكلام على عواهنه، وليس بالمهذار، فكل كلمة يقولها لها مدلول صادق، ومعنى صحيح، لأنه يستوحي العقل، ويخطب المنطق، ويغرف من نهر تجارب مدرار، وينزح من عين ماؤها نمير، والقول الآتي يدل على عقل وحكمة وتجربة:

«قال غيلان بن خرشة للأحنف:

ما بقاء ما فيه العرب؟

قال: إذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم، وركبوا الخيل، ولم تأخذهم حمية الأوغاد.

قال غيلان: وما حمية الأوغاد؟

قال: أن يعدّوا التواهب فيما بينهم ضيمًا». (١)

مرمى كلمته ومؤداها أن لا يتكاسل العرب، فيضيع منهم ما كسبوه بالعمل، وما حازوه بالجد والمثابرة؛ ويُفيدهم حرصهم على التكافل، بحيث ينقل بعضهم بعضا، يرفد الغني الفقير، ويعين القادر

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٨.

المحتاج، ويعضد القوي الضعيف، ويفعل ذلك عن اقتناع ورغبة، وإقبال ومحبة، ولا يفعله مجبراً أو محرجاً أو مغصوباً.

والتفكير السليم ليس غريباً على الأعراب، بل هو ديدن أغلبهم، فلا يفعلون شيئًا إلا ووراءه حكمة، لأن حياة الصحراء تقتضي ذلك، وشظف العيش يستوجبه، فبيئتهم لا تسمح بالإهمال، أو الغفلة، أو وضع شيء مكان شيءٍ، كل شيء يجب أن يكون في مكانه، كما تقتضيه طبيعته، لأن الطبيعة محيطة بهم تحكمهم، فالليل ليل، والنهار نهار، والقحط قحط، والخصب خصب، وليس عندهم من الوسائل ما عند ابن المدينة، الذي يقلب الليل نهارًا بالقناديل والسرج والشمع، ولا يقلب القحط جدباً بالادخار والخزن والمتاجرة بأصولها وغشها وخداعها، والمراوغة فيها والغبن، وما إلى ذلك من فنون كان يرى الأعرابي أنه لا يجيدها، ولا تتماشى مع طبيعته.

وفي أبسط الأمور تجد المنطق، وقول العدل في

تصرفه والقول الآتي أحد هذه الأدلة:

«قيل لأعرابي: ما لك لا تضع العمامة عن رأسك؟

قال: إن شيئًا فيه السمع والبصر لحقيق بالصون». [1]

لقد كان جواب الأعرابي على السؤال حاضراً، لأن وجود العمامة على الرأس اقتضته الضرورة، وهي التي استلزمت وجوده، وإذا كان السمع والبصر مُهِمًّا لكل إنسان، فإن حاجة الأعرابي إليه تفوق حاجة ابن المدينة، الذي لا يخشى غارة، وإذا جاءت فله بيت يحتمي به، ولمدينته سور يَقيها، وابن المدينة يستطيع أن يوفر خادماً في أغلب الأحيان، وتنقله محدود، بينما ابن البادية في سفر دائم. والسمع مهم لابن البادية لأنه عرضة للأعداء من الناس والسباع، وعليه أن يحتاط لنفسه عندما يسمع نبرة من بعيد، فقد يصرخ الصارخ إن كان هو أصماً، وتنتهي الغارة، وهو في ظل خيمته، نائم لا يدري عَمَّا دَهَا قومه؛ فلا يسمع النداء، ولا يسمع الاستغاثة، ولا يسمع

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٨.

التحذير. لهذا حمى مقر السمع والبصر.

ويؤكد جوابه أنهم لا يعبثون، وإن كان مظهر من مظاهر حياتهم يستوجب أن يكون جانب الجد هو المسيطر، فهذا استجابة لنداء بيئتهم القاسية، التي لا تسمح لهم باللهو واللعب الذي يخدم الجد، فإذا لعبوا ولَهُوا، فعلى ظهور الخيل، أو خلف الأقواس، ومع النبال. وهذه الأعرابية في الجدل الآتي تؤكد أن كل شيء يعملونه يجب أن يكون له فائدة ومردود:

«دفعوا إلى أعرابية علكا، لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها في ذلك، فقالت:

ما فيه إلا تعب الأضراس، وخيبة الحنجرة». [1]

ما يوضع في الفم، ويقضم بالأسنان، ويبتلعه الحلق، هو المفيد، أما الذي يتعب الأضراس، طحناً دون دقيق، ويهزأ بالمعدة، يمنِّيها ولا يعطيها، فهو الخداع بعينه، والأعراب لا يقبلون أن يُخدعوا، وتأبى عليهم أنفسهم أن يَخدعوا، إلا من استزله الشيطان.

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٩٥.

ويحاولون فيما يَمدحون به أن يكونوا عادلين في أحكامهم، فلا يحمِّلون ذمتهم إثم التحيز، في أدق الأمور التي يطلب منهم فيها حكمهم، وفي القصة الآتية مثل على هذا:

«سئل بعض الأعراب ممن رأى مسيلمة: كيف وجدته؟

قال: ما هو نبي صادق، ولا متنبئ حاذق». [1]

لقد صدق فيما قال، والحكم الثاني بني على الأول، فالنبوة لا تُحذق إلا إذا كانت صادقة، والصدق من أهم صفات النبوة، والكذب مهما أتقن في مجتمع ما لابد أن يكون من بين أفراد ذلك المجتمع من يكشف أمره، ويبين زيفه.

وتبرق فكرة في ذهن أعرابي فتمنعه من دعاء ربه، فيلفت ذلك نظر من حوله، فيسألونه، فيأتيهم بجواب لم يخطر على بالهم، ولكنه مقبول، لأنه ينبع من نبع صاف من الرغبة في عدم الكذب، وفي البعد

(١) الكشكول: ٢/ ٣٠٤.

عن النفاق والرياء، وهي أمور في رأي الأعرابي لا تليق، والقصة هكذا:

«حج أعرابي، وكان لا يستغفر، والناس يستغفرون، فقيل له في ذلك، فقال:

كما أن تركي الاستغفار مع ما أعلم من عفو الله ورحمته ضعف، كذلك استغفاري مع ما أعلم من إصراري لؤم». [1]

إلا أن قوله رغم أنه جاء نتيجة فضيلة عنده، فهو نابع من منبع جهل، لأن المسلم مطلوب منه أن يستغفر، والاستغفار عودة إلى الله بعد البعد عنه في ساعات الغفلة، وتسلط الشيطان، وكان بإمكانه أن يجعل دعاءه لله في هذا المقام المحمود مساعدته على التغلب على إصراره الذي يقوده إلى الموبقات، مادام أنه مقر أن الاصرار خطأ، وأول الدرجات المؤدية إلى التوبة هي معرفة الخطأ، والإقرار بأنه خطأ، لأن هذا يصبح ناقوساً يدق في أذن المرء، يذكره بما هو

(١) الكشكول: ٢/ ١٦٥.

عليه من خطأ، ومطرقة تضرب على أعصابه حتى يرعوي؛ وفي الغالب، وفي أول الأمر، يأتي بالخطأ، ثم يندم، ويتنغص عيشه، ثم تأتي موجبات الخطأ، والمغريات بالفحش والزلل، فينسى حالة الندم التي مرت به، فيعاود الإثم، ثم يأتي يوم يكون اللوم من نفسه قد تراكم، وأصبح تلالاً تسد طريق المخالفة الذي اعتاد عليه، فيتجه وجهة مغايرة، فينخذل الشيطان.

هذا إذا صح أن أعرابياً حدث له هذا الموقف، أما إذا كان الأمر فكرة مرت برأس مفكر، أو منظراً ركب عليه أديب هذا اللباس الموشى، فقد أجاد الأديب أو المفكر العرض.

ونحن وإن آمنا بصفاء ذهن الأعراب، وما يأتي منهم من أفكار نقية، تصيب المرمى، وتوصل إلى الهدف، إلا أن بعض الأمور العميقة في فكرها، الموغلة في أرض الفلسفة، تستوقف المتدبر؛ والأدباء أحياناً يحملون الأعراب في لغتهم، وأفكارهم،

ما نجد أنه أقرب إلى فكر المتعلم في زمن متأخر منه في زمن الجاهلية، أو أوائل الإسلام، خاصة إذا جاء اللفظ منتقى، والأسلوب بهي، والنص الآتي من هذه الأقوال التي نقف أمامها، ونحن غير جازمين أن الذي قالها أعرابي:

«قال أعرابي لابنه:

يا بني، الأدب دعامة، أيد الله بها الألباب، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب، والعاقل لا يستغني - وان صحت غريزته - عن الأدب المخرج زهرته، كما لا تستغنى الأرض - وإن عذبت تربتها - عن الماء المخرج ثمرتها». [1]

والأمثال والحكم تروى عن الأعراب في الجانب المنير مما يقال عنهم، وكتب الأدب ملأى بالأمثال والحكم، ولو دخلنا فيها، لدخلنا منها في غبة بحر لا نخرج منها، ونكتفي بقول واحد، يكون خاتمة لمقالنا هذا:

---

(١) الكشكول: ٢/ ١٣٣.

«تقول العرب:

كلب جوّال خير من أسد رابض.

وتقول أيضا:

من غلى دماغه صائفاً، غلت قدره شاتيا». [1]

هذا القول يرمي إلى امتداح العمل، وذم البطالة. جاء بصورة بديعة، وعليها مسحة المغالاة، وهو ما جعله مقبولاً، وملفتاً للنظر؛ فالأسد أقوى من الكلب بلاشك، وإذا اندفع صاد الكثير، وإذا بَطَش بَطَشَ بَطْش جبار، والكلب أقل منه قوة، وأدنى منه نشاطًا؛ ولكن الكلب يرجح على الأسد، إذا كان الأسد نائمًا كسولاً، لا يتحرك في طلب عيش، ولا في القيام بحراسة، وخير منه الكلب إذا كان نشيطاً، لا يقر له قرار في صيد وحراسة؛ وهو أنفع، لأن ما يصيده على صغره، سوف يكون متكرراً، ومتعاقباً، فيأتي منه الكثير من الحصيلة، بعد عدة جولات؛ وصوته سوف ينبه في الحراسة، مع يقظته، أهله

(١) المحاسن والمساوئ: ٢٨٥.

لمعرفة الطارق، فيقاومونه، إن كان عدواً، أو يرحبون به، إن كان ضيفاً.

والذي لا يعطى نفسه راحة في الصيف، ولا يأبه بالشمس تصهر جسمه، ويغلي منها رأسه ودماغه ويثابر على العمل والكسب، غير عابئ بما هو فيه من معاناة، صابر على قسوة الصيف وحره، فإنه سيجد الراحة في الشتاء، لما كسبه وما ادخره لبرده وشدته.

وقد يركن الحضري للراحة، لرفاهِ حياة الحضر، ولكن الأعرابي أبعد ما يكون عن ذلك، لقساوة الصحراء وشدتها، ولقلة ما فيها؛ مع ما يأتي فيها من سلب ونهب، وغارات وغزوات.

هذه لمحة عن الصور التي ترسم للأعرابي في كتب الأدب، وفي تاريخه، بعضها معه، وبعضها عليه، بعضها تمدحه، وبعضها تذمه، بعضها صادق، وبعضها كاذب، وتبقى هذه الصور تلون أذهاننا، وتؤثر على أفكارنا، وما قد أقبله منها قد لا تقبله

أنت، وما تراه أنت صحيحاً، قد يداخلني الشك فيه، فما في ذهني قد يكون في ذهنك صورة مثله عنهم، وقد تكون الصورة مختلفة، حتى لو كانت النصوص التي انطلقنا منها واحدة، فتبقى في ذهنك الصورة التي اقتنعت بها، وتبقى في ذهني الصورة التي اقتنعت بها. وهكذا الحياة في كثير من أمورها؛ ولابد أن يبقى الأمر هكذا، مادام أنه ليس هناك مقاييس ثابتة، موثوق بها، لمعرفة الصحيح من الأخبار من المدسوس، والوافي من الناقص، والذي روي كما هو من المُزاد فيه، ويبقى الأمر لله وحده أولاً وآخراً.

***

شعر يَشُدُّ[1]

الشعر في اللغة العربية فن جميل، وأداة ساحرة؛ فإذا جاء من شاعر قدير هز المشاعر، وحرك الأحاسيس، واستنزل العصم من قنن الجبال، واقتطف الثمرة التي هدف إليها، يُرضي قائلُه الغضبانَ، ويُغضب الراضي، يَقلب الحقائق، ويُعمي عن الواقع، يَنقل السامع من حال إلى حال، ومن حقيقة إلى خَيال، يحلّق به في أجواء لا يدري كيف صعد إليها، ويدخله في آفاق لا يدري كيف دخل فيها، وكيف وصل إليها.

لا تمل أذن الإنسان سماع الشعر، وتشتاق النفس إلى تكراره، يفرح الناس بمولد شاعر، ويحزنون لموته، فالشاعر جمال المجتمع، وبهجة النادي، هو ذخيرة وطنية، وثروة اجتماعية، إن كان وقت عيد أطرب سامعيه، وإن كان وقت حرب ألهب مشاعرهم،

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٦٣) في ١٧/ ٢/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٥/ ٧/ ١٩٩٥م.

وإن كان وقت تبرع هز أغصان دوحتهم، فأنزلت ثمرتها طائعة، مختارة، جذلة، وإن رضي ومدح جاء بالعجب العجاب، وقلب الرذائل فضائل، وأبان ما خفي من الزين، وأخفى ما ظهر من الشين، فضخم هذه، وصغر تلك؛ وكأن الأمر في يده عجينة يقلبها كما يريد، لسانه مقوله، وخياله معوله، ومخزونه مسنده وعضده. يبتدع المعاني، وينمق في الأسلوب، ويبدل في المنهج، ويغير في المعالجة.

وإن غضب وهجا، أرعد وأبرق، وكشر وأزبد، وسلّ سيوفاً مغمدة، وسنّ حِرَابًا صدئه، وشد نِبالاً، وأطلق سهاما، وجاء بكل هذا يهدر ويصهل، ويصيح ويزأر، لمجيئه غبار، تسبقه عاصفة، يرمي بالجلامد من أعلى، ويدحرج الصخور تتالى، لا يكل، ولا يمل، ولا يني. يقلب كل حصاة ليستخرج من تحتها أفعى، أو عقرباً، ويدخل في الأنساب، فيُدخل معه فيها شائبة، ويصور الخلق الحسن، بإلباسه أوصافاً متجنية، فيقلب جماله إلى قبح،

وحسنه إلى بشاعة؛ لا يهدأ حتى يشل حركة ضحيته، ويخرجه من نور المجد إلى سراديب الخزي، وظلمة العار، وهو عارف بخلود قوله، وشغف الناس برواية شعر الهجاء، وسرعة انتشاره، وإقبال الناس عليه، فيقبل على تغذية رغبة الناس إقبال من لا ينوى الإدبار، ويندفع اندفاع من لا يريد التوقف. ولا يهدأ باله، أو تنقشع سحابة غضبه، حتى يرى ضحيته حطاماً.

وإذا وصف جاء بما يسلب اللب، ويستولي على العقل، بالصور الصحيحة المعبرة التي يرسمها، والرسوم المبهجة التي يصورها، يلبس صورهُ لباسًا تفوق ما ألبسته إياها طبيعتها، فإذا كانت الطبيعة كما قال استاذنا عمر الدسوقي ـ رحمه الله:

تُبـــدِّلُ كُـــلَّ آوِنَـــةٍ لَبُـــوْســـاً
خَيَـــالُ العَبْقَـــرِيِّ بِـــهِ يَضِـــلُّ

فالشاعر يتعدى هذا، ويغلبها في تعدد الثياب، واختلاف الألوان، ويستلّ برسمه الأعجاب،

ويصيب المتبصر بالدهشة؛ وعند الشاعر القدرة لرؤية الأشياء بمنظار بهج ليس عند غيره، يتفنن في توجيه هذا المنظار، ويبدع في الاستفادة منه.

وإن تغزل سلب عقول الغيد، وجاء بالوصف راقصاً مرقصاً، وغالى مغالاة لا تقبل من غيره، وداخل بين صفات المرأة والحيوان، والنبات والجماد، دون لوم، فالمرأة ظبي، والظبية غادة، والورد شفاه، والقمر وجه حبيبته، ووجه حبيبته البدر.

وإن رثى أسال الدموع، حتى تحفر أخاديد في الخدود، وعَمَّق الحزن، ونشر لواءه، وقضى على بوارق الصبر والسلوى، وإن عزى هون المصيبة، وفتح طرق البهجة على القلوب، وأوجد مخارج واسعة للبعد عن الحزن، وهجر رفوف الكآبة، والدخول في صحاري النسيان، وقفار السلو؛ يأتي بالمبررات المقنعة، والصور الغائبة عن الذهن، المفيدة في هذا المقام.

والشعر شعور يطغى على الإنسان، فيضعه في قالب يقتضيه، ويتماشى معه، إن راقصاً، أو

وئيداً، هذا القالب هو الوزن، وتختمه القافية؛ وقد استقرت الأزوان مع مجاري الشعور، واستقرت القافية كذلك؛ فأصبح لهذا الفن أصول وقواعد، فرضت نفسها، وتبلورت إلى مظاهر لم يعد للإنسان فيها تصرف، ولا اختيار، يأتي الشعر على اللسان منساباً أو متقطعاً من الذهن، اختزنه من مردود اقتنصته العين، أو اختلسه السمع.

على أن تمرداً بين آن وآخر يتسلل بين الأوزان والقوافي، فيبرق فجأة، ويكون نصيبه القبول والبقاء، أو يموت في مهده، أو بعد أن يبدأ الحبو، وقبل أن يسير على قدمين ثابتتين. وقد شهدت حقب الازدهار في شرق البلاد العربية وغربها شيئاً من هذا، بقي بعضه، واختفى بعضه، وأصبح تاريخاً يروى، والموشحات وأمثالها تمرد جميل من أنواع هذا التمرد!

وإذا كان يدخل في أنواع الفراسة علمك ببقية جملة مخاطبك قبل أن يتم جملته، فالشعر يزيد هذه الملكة عند المستمع، فقد تحدس بقية البيت عند أول

سماعه، يساعدك، على هذا، الوزن والقافية، ومجرى القصيدة، فتشعر أنك مشارك للشاعر في قوله، وهذا يؤدي بك إلى مشاركته شعوره، أو العكس من ذلك.

والحالة التي عليها الشاعر عندما تغزو قلبه جيوش الفكرة الجياشة تحكم نغمة الشعر ولونه، فإن كان مرحاً جاء الوزن مرحاً، والقافية ضاحكة، والشعر راقصاً، وإن كان حزيناً، جاء الوزن ثقيلاً، والقافية قاتمة. وإن كانت الفكرة نبعت من انفعال داخل الشاعر جاء القول قوياً، ومؤثراً؛ وإن كان مفروضاً عليه، لمناسبة طرأت، أو ظرف عبر، فإن القول يأتي مفتعلاً، لا شعور فيه، ولا تأثير.

ولأهمية الشعر فقد أصبح له قواعد تحكمه، ودراسات مسهبة، تلمس كل جانب منه، بعضها يلمس الشعر، وبعضها يركز على الشاعر، وبعضها يجمع بينهما، وكتب في ذلك كتب، وألفت مجلدات، وما سوف نقوله ما هو إلا إطلالة غير مقيدة، تلتقط

بيتًا من هنا، وأبياتاً من هناك، تلمس جانباً من الجوانب التي ذكرناها، لمساً حنوناً، لا تتوغل فيه، ولا تتعمق.

في البت الآتي قلب للحقائق مقبول، وخروج عن القاعدة مرحب به، بل متحمس له، فيه إبداع، وفيه بهاء، يُظهر ضعف الحبيب أمام حبيبته، وهو أمر يجلب العطف، والمشاركة في الشعور؛ والجمال فيه أنه ترك الطريق التي يسلكها الناس، وأخذ طريقاً أخرى، لم يعتدها أحد، رضيها الشاعر لنفسه، ورضيها الناس له، مادامت المقدمة صحيحة، والأساس الذي بنيت عليه نال الرضى.

والمريض عادة يزار، وكل عُرْف دعا إلى ذلك، وأخذه في الاعتبار، حتى الدين حث عليه، ووعد بأجر عظيم لمن يعود مريضاً، ولكن للشعراء نظرة، وللحب نظرة، تختلف عن هذا كله، فالشاعر هنا مريض وذهب يزور صحيحاً، لأن الصحيح هذا هو حبيبته، فدافعه قوي، لا يستطيع له مقاومة،

ولا يقدر على مدافعته، فالحب جائر، ولا يعترف بالأصول، ولا يؤمن بالقواعد.

وجرت العادة أن المذنب يعتذر إلى من وقع الخطأ في حقه، ويبدي الأسف لمن تسبب في عنته وتعبه، ولكنها في نظام الشعراء المحبين تختلف، فعادتهم غير عادة الناس، فأحدهم يعتذر له مَنْ وقع عليه الخطأ، واقْتُرِف في حقه الذنب، ويمن عليه بهذا، أما من وقع عليه الخطأ فيجد لذة، لا تعدلها لذة، في أن يعتذر، لأن من سوف يساق إليه العذر حبيبته، يقول الشاعر:

إذَا مَـرِضْنَـا أَتَيْنَـاكُـمْ نَعُـوْدُكُـمُ
وَتُـذْنِبُـوْنَ فَنَـأْتِيْكُـمْ فَنَعْتَـذِرُ[1]

ويظهر قانون الشعر في صورة أخرى تماثل ما جاء في البيت السابق، وتشبه صورته؛ ففيها لحن عتب، وفيها نغمة مِنَّة مقبولة عند المحبين، وفيها موازنة، تبين فيها بعض التناقض الذي فتح للشاعر باب

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٣.

الحب، وطغيانه، والهيام وربقته؛ والحب يعمي ويصم، ويرى شيئاً، ويحجب أشياء، والبيت الممثل لهذا هو الآتي:

«قال عبدالله بن مصعب الزبيري:

مَا لِيْ مَرِضْتُ فَلَمْ يَعُدْنِيْ عَائِدٌ
مِنْكُمْ وَيَمْرَضُ كَلْبُكُمْ فَأَعُوْدُ»[1]

والغزل روضة الشعراء المبهجة، وشجرتهم المورقة، وفاكهتهم اليانعة؛ يجذبهم إليها شيء لا يُرى، وإنما يُحَس، مقره بين القلب والأضلاع، بينه وبين الفكر عداِء، وسيلته العاطفة، ومركبه الغرام والهيام، ولا تكاد تجد شاعراً لم ينفث من صدره حر لهب الوصل أو الهجر، هذا بلذته، وإراحته، وهذا بألمه وعناه، فبعد البيتين السابقين تأتي ثلاثة الأبيات التي يقول فيها الشاعر:

«بكَـتْ عَيْـنِي غَـدَاةَ البَيْنِ حُزْناً
وَالأُخْـرى بِالبُكَا بَخِـلَتْ عَلَـيْنَا

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٣.

فَجَازَيْتُ الَّتِي جَادَتْ بِدَمْعٍ
بِأَنْ أَقْرَرْتُهَا بِالْوَصْلِ عَيْنَا
وجَازَيْتُ الَّتِي بَخِلَتْ بِدَمْعٍ
بِأَنْ غَمَّضْتُهَا يَوْمَ الْتَقَيْنَا»[1]

ويرسم الشاعر هنا صورة بديعة، يقول فيها غير الحقيقة، وبما هو أجمل منها، وأكثر بهاء، لإلباسه غير الحقيقة لباسها، وتصويره ما يخالف المعتاد بما هو معتاد، فيجعله مقبولاً؛ ويجري على مسرح الغزل تمثيلية تشد، ويكون فيها هو المثل الرئيس، يلعب مع عينيه دور المكافئ لأحدى العينين، والمجازي المعاقب للعين الأخرى، لأن الأولى شاركته شعوره عندما افترق من حبيبته، والأولى لم تتحرك، وكأنها لم تدر عما حدث؛ وكأن الأولى منه، والثانية غريبة عليه؛ فعندما حدث اللقاء بحبيبته في يوم لاحق، وجد أن الوقت قد حان ليرد لهذه معروفها، وليعاقب الأخرى، فسمح للأولى أن تنظر إلى حبيبته، وحرم

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٤٧.

العين الثانية من ذلك اللقاء والنظر، فبقيت هذه مفتوحة تنظر وتتملأ وتتمتع، وتركت الأخرى مصرورة محرومة منبوذة!!

وإنها لصورة غريبة مهد الشعر لقبولها، وإلا كيف يكون منظر حبيب لحبيبته، وقد أضناهما البعد، وأمضهما الحرمان، فلما التقيا ظهر الحبيب بهذه الصورة البشعة، مفتوح العين اليمنى أو اليسرى، مغمض الأخرى؛ ترى لو لم تبكيا كلاهما، فهل كان سوف يقابلها مغمض العين، أعمى يقاد. ولكنه الشعر بسحره قلب القبيح جميلاً، والبشع جذاباً!!

لقد أوجد الشاعر هذا لأبياته مكاناً رحباً في كتب الأدب، ووسع مَفْحَصًا لبنات أفكاره هذه في الانتقال من فكر إلى فكر، ومن كتاب إلى كتاب، ومن زمن إلى زمن، حتى وصلت إلينا لامعة جميلة، لم يضعف الزمن قوتها، ولم يبل أديمها، يراها ابن كل زمن، وكأنها ابنة زمنه، وقبلت من أجل إعجابها وإمتاعها.

ويأتي «المتلمس» في ثلاثة أبيات قالها بما أصبح

على ألسنة الناس، يتمثلون به، ويأتون به في أقوالهم ومخاطباتهم، لأن إحدى قدميه دخلت حيّز الحكمة لصدقها، ولأن النغمة الراقصة قد شابت هذه الأبيات، فجاءت وثوبها زاه، وجبينها وضاح.

والمتلمس لم يأت بكلمة جديدة لم تعرف من قبل، ولم يأت بمعنى مصاد من بعيد، بعد مطاردة وعناء، ولكنه جاء بالسهل الممتنع في ثوب الشعر الذي لا يرد؛ وَبُرْدُهُ الذي يبقى زاهياً غالياً، ولا يقع بذلّة على الأرض، تشاركت عوامل في رفعه، فمد الأسلوب يده للمساعدة، وبادر معه النهج فعضد وعاون، ثم جاء الوزن الطرب وقال أنا ثالثكم، ورمت القافية المقبولة بثقلها، فارتفع البناء، وبلغ عنان السماء، والأبيات تشهد على ذلك.

«قال المتلمس:

إنَّ الهَوَانَ حِمَارُ البَيْتِ يَأْلَفُهُ
وَالحُرُّ يُنْكِرُهُ والفِيلُ وَالأَسَدُ

وَلاَ يُقِيْمُ بِدارِ الذُّلِّ يَأْلَفُهَا
إلاَّ الذَّلِيْلاَنِ عَيْرُ الحَيِّ وَالْوَتَدُ
هٰذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرِمَّتِهِ
وَذَا يُشَجُّ فَمَا يَاوِي لَهُ أَحَدُ»[1]

لقد أصبحت هذه الأبيات في متناول يد كل من تحدث عن الهوان أو الذل، وعلى لسان كل من جاء على لسانه أمر الاستكانة، والخنوع، ويكفي أن ينطق كلمة «الذليلان» فيعرف السامع القصد، ويدري عما ذا أشار، وإلى ماذا قصد. والصورة منتقاة من بيئة الشاعر، فالعير من بيئته، والأسد ليس غريباً عنه، والفيل من مخزون ثقافته؛ ولقد جاء بأقصى درجات الذلة، وقارنها بأعلى درجات العزة والمنعة، فكملت له الصورة، وضمن التأثير والفضل لله ثم للشعر وطبيعته.

والشاعر وقد نفر من الذلة، وأرى الجانب البشع فيها، وضمن النفرة عنها والبعد، لم يسلم ممن يخالفه

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٣٩.

مخالفة مقبولة، رغم أن هذه تأخذ يمينا وهذه شمالاً، فذم الشاعر الأول للذل جاء أمامه مدح الذلة والهوان في جانب الآخر، والذي مهد لهذا هو الشعر، وهو السحر الحلال؛ وقد عمد الشاعر إلى الدليل على قوله، فقدمه بين يديه، واستشفع بالأسلوب، وبالمثل، ليصل إلى هدفه، الذي ناقض غرض سابقه؛ وقد نبه الشاعر إلى جانب مهمل في المواقف التي يقفها الإنسان، فيقرر أي السبيلين يسلك: العزة والكرامة، ورفع الأنف، أو الذلة والاستكانة وطأطأة الرأس؟

والشاعر الذي وقف مغايراً في موقفه للمتلمس أعرابي وبيته:

«أَهِيْنُ لَهُمْ نَفْسِيْ لأِكْرِمَها بِهِمْ
وَلَنْ يُكْرِمَ النَّفْسَ الَّذِيْ لاَ يَهِيْنُها»[1]

لقد قالها الأعرابي عندما حُجب عند باب سلطان، ولعل هناك من نبهه إلى موقف الذلة هذا، ورأى أن العزة والكرامة توجب أن ينصرف إذا لم يجد الأبواب

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٤.

مفتحة له عندما يأتي، كما تعود في صحرائه، إلا أن الأعرابي قدر عادات الحضر وتقاليدهم، ورأى أن في الانتظار مكسباً، لا يأتي إلا عن هذا الطريق، وحقاً لا ينال إلا بالانتظار، وأنه إذا لم يهن نفسه بالانتظار عند باب السلطان وهو موقف شرف، فسيهينها مرات ومرات عند قوم أدنى منه، ويقف مواقف ذلة هو في غنى عنها، ومن مواقف العزة التي سوف تُفتح برؤيته للسلطان، ودخوله عليه الأبواب، احترام الناس له، وإعطاؤه حقه من الاحترام والتقدير، وسيكون في يده من المال ما يفتح أبواباً كثيرة، ويسهل له السير في طرق متعددة، لا يسلكها إلا من بيده ثروة، ولا يلجها إلا من قبله القوم، ووضعوا له في أنفسهم مقاماً.

والنفس أمارة بالسوء، فإذا ما نفخت أوداجه مغالطة، وملأته بعزة زائفة، ودعوى كرامة باطلة، وشوهت موقفه وقد حجبه السلطان، وأنسته الاعتبارات التي توجب هذا، واستمع إليها، وركب

رأسه، وتعلق بالأوهام، فإنه يقع في إهانتها بدل المرة مرات، وبدل الحجب صَفْع، وقد يؤدي به الفقر إلى السجن والأذى؛ ولقد أكرم نفسه بعصيانها، ونفعها بمخالفة رأيها، ووفر لها عزة صحيحة أمام عزة زائفة، كانت سوف تقوده إليها، لو أنصت لقولها، واستمع لهرائها، وأصم ذهنه عن سماع صوت الحق، وأغلق ذهنه عن تدبر صوت العقل. فكرامة نفسه جاءت مما يظن أنه إهانة، فكسب كرامات، وعتق عن إهانات.

ـ[1] والطفل يهينه والده بالتأديب، ويوجهه الوجهة التي يرى فيها نفعه، خلافاً لما يريده الطفل، أو الصبي، الذي قد يرى في هذا قسوة من والده، وبعداً عما يشتهيه ويريده، بعقله القاصر، وفكره المحدود، فإذا تمرد، وسار على ما تحسنه له نفسه، فإنه يبعد في الخطأ، حتى لا يجد الطريق إلى العودة، ويندم حين لات مندم.

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

والعامل في معمله أو في مصنعه، يأبى أن يقبل التوجيه، ويتمرد على صاحب العمل، جرياً خلف بريق فكرة العزة والكرامة، وعدم قبول الإهانة، تأتيه فيما بعد الإهانات تتلى، أرسالاً بعد أرسال؛ فهو إذا ترك العمل من أجل كلمة جاءته اعتبرها خادشة لكرامته، فكبر الأمر، وهو صغير، وجهم المشكلة، وهي ضئيلة، فقد يؤدي به السير خلف بغية نفسه، وقيادتها له، إلى ترك العمل، وقد يهين نفسه حتى يجد عملاً مرة أخرى، فيتذكر حينئذ أن عليه أن يقول لنفسه ما قاله الشاعر لنفسه.

والمرأة تأبى من زوجها ما قد تقابل بعده أضعافاً مضاعفة من العمل نفسه، وبدلاً من أن تحني رأسها أمام رغبة زوجها، أو إرشاده، أو تأنيبه، أو توجيهه لها وجهة هو يرى المصلحة لهما فيها، تجد نفسها فيما بعد تقبل ما هو أشد حدة، وأعظم وقعاً، فتشرب غصصاً متلاحقة، بعد أن رفضت أن تقبل غصة واحدة، وأن تقبل ذلك من أناس دونها، بعد أن

رفضت قبول مثلها من زوجها، ومن هو أولى بالعطف عليها؛ ولكنها النفس الأمارة بالسوء، تحسن القبيح، وتصرف النظر عن الحسن، وتشل الذهن عن التفكير في الأمر بما يستوجبه العقل، وتقتضيه المنفعة.

والموظف تأخذه العزة بالإثم، فلا يقبل من رئيسه بعض ما يعتقد أن فيه إهانة له، وهذا يقفل باب قبول الإرشاد، ونافذة التوجيه، ويبدأ الموظف يراكم الوهم في ذهنه، ويبعد عن فهم الأمر على وجهه، وربما انتهى في تفكيره إلى ترك العمل، ثأراً لكرامة متوهمة، وحق يظنه مهدراً، ثم يدخل باب البطالة، وإن وجد عملاً فبمنة، تهدر فيها الكرامة بحق، ويمن بالمعروف، وقد يجد في عمله الجديد إهانة تلو الإهانة، وكل إهانة بالغة الأثر، عميقة الوقع.

والطالب تأخذه العزة بالإثم، فيغضب مما يعتقده وهماً من قسوة مدرسه، وما يظنه ظلماً منه، فيتصرف بما يعقد الأمور، وينتهي بتركه المدرسة، أو طرده

منها، ثم تمر الأيام ويكبر، ويحتاج إلى أن يبحث عن لقمة العيش، وليس في يده شهادة تشق له طريقه إلى العمل، ولا إجادة حرفة، تسهل له الحصول على النفقة، فيبذل ماء وجهه، يبحث عن عمل، ويتعرض للإهانات المتتالية، قبل العمل، وأثناءه؛ ويصغر حينئذ ما جاءه من أستاذه، وهو طالب علم، عندما قابل وهو طالب عمل، ويبتلع ريقه غاصًّا به، وبما اختلط به من إهانات، ومن كسر اعتبار، ومن تصغير واحتقار، ويندم، وقد فات وقت الندم، وليس له بعد ذلك إلا الحسرة.

وهكذا تؤكد الحياة أن بيت الأعرابي صادق، وعادل، ولكن الناس لا يعتبرون، وقد أثبت هذا الأعرابي أنه عاقل، متبصر، ذو إرادة، ومقدرة على التغلب على صوت نفسه الخادع، ويشاركه هذا عبدالعزيز بن زرارة الكلابي، ويقف مثله هذا الموقف الرزين، ويأخذ القرار الحكيم، حينما تعرض لمثل موقف الأعرابي، فعالج الأمر بحكمة وعقل،

ويقول عن هذا:

«دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ صَخْرٍ
عَلَى حِيْن يَئِسْتُ مِنَ الدُّخُولِ
وَمَا نِلْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى
حَلَلْتُ مَحِلَّةَ الرَّجُلِ الذَّلِيْلِ
وَأَغْفَيْتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا
وَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى قَالٍ وَقِيْلِ
فَأَدْرَكْتُ الَّذِي أَمَّلْتُ مِنْهُ
بِمُكْثٍ وَالخَطَا زَاد العَجُوْل»[1]

هذا رجل حجب طويلاً حتى يئس من الدخول، ولم يدخل إلا بعد أن وطد نفسه على الذلة، بالصبر والانتظار، وغض البصر عما يقال من أمر العزة والكرامة، والثأر لهما، فنال مطلوبه، وحصل على بغيته، من جراء المكث محجوباً، والصبر على طول الحجب، وعدم التسرع في ترك ذلك، لأنه يعلم أن المزلة والخطأ تأتيان من الاستعجال في الحكم،

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٥.

والركض خلف أول فكرة يمليها الغضب، وأول بارق ذهن يلمع في الأفق.

وأبو سفيان، وهو رجل عاقل رزين، ورئيس قوم، أريد أن يُسَتفَزّ في أمر إطالة الحجب على باب الحاكم، فلم يقبل أن يقعقع له بالشنان، أو يقلقل ذهنه، وعقله، بأقوال جوفاء، لا تصمد أمام المحك، ولا تقف أمام الفحص، وردّ ردّاً بالغاً، دلّ على فكر صافٍ، وذهن مستنير، لم يخطر ببال المرجف، والخبر جاء عنه هكذا:

«استأذن أبو سفيان على عثمان ـ رضي الله عنه ـ فأبطأ إذنه، فقيل: حجبك أمير المؤمنين؟

فقال: لاعدمت من قومي من إذا شاء حجب». [1]

إن أبا سفيان نسي نفسه عند تفكيره في قومه، فهو لا يريد العزة لنفسه، وإنما يريدها لمجتمع أكبر؛ لقد سره أن يَقْدِرَ رجل من أسرته أن يكون له أمر نافذ عليه، وهو رئيس القوم، ومن أكبرهم، فلو أن مقامه

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٦.

طغى على مقام الخليفة، وعجز الخليفة عن أن تعطيه نفسه الحق في أن ينفذ أمره على أحد رعيته، فإن هذا مطعن واضح في مكان أبي سفيان، إذ أنه يخضع لحاكم هذا مبلغ ضعفه؛ أما الآن فهو يفخر أن من قومه، ومكانه هو ما هو، بهذا الحزم، وهذه السيطرة.

وما ذكرناه من الشعر الراقص يتمثل في أبيات قالها يحيى بن نوفل، وَزْنُهَا يطرب، وقد زادتها القافية ملاحة، وساهم الغرض منها أن يضيف لها خفة روح أحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم.

قال المدائني:

سقط عبدالله بن شبرمة، القاضي، عن دابته، فوثئت رجله، فدخل عليه يحيى بن نوفل، الشاعر، عائداً له، ومادحاً، وكان جاره، فأنشده:

أَقُولُ غَدَاةَ أَتَانَا الخَبِيْرُ
وَدَسَّ أَحَادِيْثَهُ هَيْنَمَهْ

لَكَ الوَيْلُ مِنْ مُخْبِرٍ مَا تَقُوْل؟
أَبِنْ لِيْ، وَعَدِّ عَنِ الجَمْجَمَهْ

فَقَالَ خَرَجْتُ وَقَاضِي القُضَا
ةِ مُنْفَكَّــةٌ رِجْلُــهُ مُــؤْلَمَــهْ
فَقُلْــتُ وَضَــاقَــتْ عَلَــيَّ البِــلادُ
وَخِفْــتُ الْمُجَلَّلَــة المُعْظَمَــهْ
فَغَــزْوَانُ حُــرٌّ، وَأُمُّ الْــوَلِيْــدِ
إِنِ اللهُ عَــافَــى أَبَــا شُــبْــرُمَــهْ
جَــزَاءً لِمَعْــرُوْفِــهِ عِنْــدَنَــا
وَمَــا عِتْــقُ عَبْــدٍ لَــهُ أَوْ أَمَــهْ

قال الراوي:

وفي المجلس جار ليحيى بن نوفل، يعرف ما في منزله، فلما خرج تبعه، فقال:

يا أبا معمر، رحمك الله! مَنْ غزوان وأم الوليد؟

قال: سنوران في البيت، فاستر عليّ». (١)

مثل هذا الشعر بنغمته المطربة هذه يشد، فلا تكاد تبدأ البيت الأول، حتى يسلمك للبيت الثاني، ولو لم يفعل، لذهبت إليه ركضاً! فالتّماسُك بين أجزائه،

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٤.

والانتظام البديع في الفكرة، لا يتركك تقف. وقد جاء القول كأنه قصة أو مسرحية تمثل أمامك، وكيف لا تكون الأبيات مرحة، وقائلها بهذه الصورة من خفة الروح، إلى الحد الذي جعله يوهم أن قطين غلام وجارية!

ويشد البيت القارئ أو السامع عندما يحمل قولاً صادقاً، وحكمة بليغة، لأنه يمثل صفحة خد الحقيقة، والحقيقة في ذاتها بيان، والبيان جمال وضوء. فبشار عندما يقول:

«يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلتَقَطُ الْحَبُّ
وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ»[1]

فهو يضع الحقيقة أمامنا، فيها إبداع من التشبيه، الذي أدخلها دنيا الحس، وجاء بصورة الطير، وهو يتجمع على الحب، وهو بغيته ومراده، ثم وضع أمامها مرآة تريك الكريم يغشى بيته الناس، ولما في هذا البيت من إبداع بقي مخلداً في الكتب، ومردداً

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٨.

على الألسنة، وهو من أوائل ما يعرف الإنسان من الشعر، لأنه يباشر سمعه في وقت مبكر من حياته.

والحكمة في هذا البيت اختلطت بالمثل، أو جاءت عن طريقه، كما جاءت في البيت الآتي:

يَـزْدَحِـمُ النَّـاسُ عَلَـى بَـابِـهِ
والمَشْرَبُ العَذْبُ كَثِيْرُ الزِّحَامِ

والمعنى يتماشى مع معنى البيت السابق، إلا إن الشاعر في هذا البيت بدأ بالناس، وازدحامهم على باب الكريم، ثم ذكر بأنه لا غرابة إذ أن الظمأى عادة يتزاحمون على المورد العذب، فبدأ بما انتهى إليه السابق، وانتهى بما بدأ به، مع إبداع ومقدرة في رسم صورة جعلت هذا البيت، خاصة شطره الثاني، مثلاً دارجاً على ألسنة الناس، عندما يتحدثون على الإقبال على أمر، بصورة تلفت النظر.

ونخرج من الحكمة والمثل، إلى الإرشاد والتوجيه، مما يشد، لأن في الشعر صدقاً، ولا يخرج عن الواقع

الملموس، وما يمر بالإنسان، ويدركه جيداً إذا كان من المتبصرين، وصالح بن عبدالقدوس، قال بيتين، جاءا عن تبصر وتدبر، وعن تجربة طويلة، أبرزت له صورة شدته، فقال وصفًا لها شدنا، يقول:

«إِذَا كُنْتَ فِيْ حَاجَةٍ مُرْسِلاً
فَأَرْسِلْ حَكِيْمًا وَلاَ تُوْصِهِ
وَإِنْ بَابُ أَمْرٍ عَلَيْكَ الْتَوَى
فَشَاوِرْ لَبِيْبًا، وَلاَ تَعْصِهِ»[1]

ونعود إلى الشعر الراقص، ذي النغمة الطربة، وإذا كان الوزن والقافية، كما هي العادة، قد تعاونا على إعطائه هذه الصفة، وهيّآه لأن يكون مقبولاً، يشد السامع، ويأخذ لبه، فيما يلمس سمعه، من جمال النبرة، وبهجة الموسيقى، فقد شد ذهنه بالمعنى العظيم الذي حمل، والاتجاه الذي قصد، ولعل السبب الذي يضاف إلى ما قيل، يكمن في أن الظلم بشع، وأمره مرفوض من كل منصف، ومردود من

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٧٩.

كل عاقل عادل، ولا يقبله إلا من شذ في خلقه، واضطرب في عقله؛ والناس إذا انجذبوا إلى هذا الشعر، فإنما هم يؤكدون موافقتهم لقائله فيما قال: واعتبروه معبراً عما في أنفسهم مما لم ينطقوا به، والأبيات الآتية في هذا لأبي العتاهية:

أَمَــا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْــمَ لُــؤْمٌ
وَمَـا زَالَ المُسِــيْءُ هُـوَ الظَّلُـوْمُ
إِلَـى دَيَّـانِ يَـوْمِ الـدِّيـنِ نَمْضِـيْ
وَعِنْــدَ اللهِ تَجْتَمِــعُ الخُصُــومُ
سَتَعْلَمُ فِي الحِسَابِ إِذَا الْتَقَيْنَا
غَـدَاً عِنْـدَ الإِلٰـهِ مَـنِ المَلُـومُ»[1]

ويشد الشعر عندما يأتي سهلاً ممتنعاً، يتحدث عما في نفسك مما لم تستطع أن تعبر عنه كما عبر الشاعر، بطريقته البديعة، وشعره المؤثر، ومن هذا قول الشاعر:

«دَنَوْتُ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُوْنَ قَدْ بَلَغُوا
جَهْدَ النُّفُوسِ، وَشَدُّوا دُوْنَهُ الأُزُرَا

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٦٨.

وَسَاوَرُوا المَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ
وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ وَفَّىٰ وَمَنْ صَبَرا
لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْراً أَنْتَ آكِلُهُ[1]
لَنْ تَبلُغَ الْمَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبِرا»[2]

هذه الصورة البديعة التي رسمتها ريشة الشاعر، تجعلك تلتفت كأنك ترى أناساً، قد وقفوا في صف طويل، ينتظرون متى يصلون إلى باب دكان المجد الموصد، فيغرفون من حوضه، ويشربون من نميره، وقد ملّ أكثرهم من الانتظار، فتركوا مواقعهم، وانسحبوا يائسين، ولم ينل بغيته من المجد إلا من صبر حتى ناله.

ثم يعقب الشاعر بحكمة أصبحت مثلاً على الألسن، فينبههم إلى ما قد يكونون غافلين عنه، فيبين ثمن المجد، وأنه ليس تمراً يؤكل بسهولة، ويستمتع بلذته، والإنسان على فرش وثيرة؛ وإنما هو طريق صعب المرتقى، بعيد المتناول؛ ولعق الصبر، وأكل الحنظل، أقل

---

(١) وفي رواية: زِقًّا أَنْتَ شَارِبُهُ».
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٣١٨.

مرارة من مرارة السعي له، والحصول عليه.

وننتقل إلى ما يشد من الشعر من لون آخر، فيه خفة روح، تجذب السامع إلى أن يصغى ويعجب، فالأبيات راقصة، ويكفي هذا وسيلة شد وجذب فيها؛ وفيها من مغالطات الشعراء ما يجعل المرء يدهش من قبول النفس ما فيه ضحك عليها، وهزء بها، فهذا الشاعر يدعي أنه سوف يتجنب شيئًا فيأتيه طائعاً، مقبلاً غير مدبر، والأبيات لذي الرمة، وهي في الهجاء:

«قِيْلَ لِيْ قَدْ هَجَاكَ مَوْلَى زِيَادٍ
فَأَجِبْهُ، فَقُلْتُ: لَيْسَ بِكُفْوِيْ
لَسْتَ أَهْجُوْهُ، إِنَّهُ خَامِلُ الذِّكـ
ـرِ، لَعَلَّ الخَسِيْسَ يَعْلُوْ بِهَجْوِيْ
هُوَ كَالكَلْبِ يَنْبُحُ اللَّيْثَ رُعْباً
فَـذَرُوْهُ، يَهِـرُّ بَعْـدِيْ ويَعْـوِيْ
هُوَ مِنْ سَطْوَتِي، وَبَأْسِ هِجَائِي
فِيْ أَمَانٍ، مَا بَيْنَ حِلْمِيْ وَعَفْوِيْ»(١)

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٣.

لقد سمع عن هجو مولى زياد، فوعد أنه لن يهجوه، ترفعاً وأنفة، لأنه خامل الذكر، لا يستحق الهجاء، لأن هجاءه له سوف يرفع من شأنه، لأنه سيعرف الناس عليه، وهم يجهلونه الآن، ولكن ذا الرمة لم يطاوع قوله، فهجا مولى زياد، ووصفه بأنه كلب، ومدح نفسه بأنه ليث، ووصف هجاء مولى زياد له بأنه مثل عواء الكلب على الليث، يفعل ذلك خوفاً ورعباً، ثم يعود ويكذب علينا، ويقول: إنه في أمان من هجوه، لأنه حليم ويعفو عمن اعتدى عليه، في حين أنه هجاه، وأوجع!

كل هذا الطلوع والنزول، والقول ونقيضه، مقبول، لأن قائله شاعر، جاء بِرُقًى ساحرة، بخورها الوزن، وبهرجتها الموسيقى، والتنويم المغناطيسي فيها حملته الأنغام الشجيّة، في هذا الشعر الشاد.

ويشدك شعر ساذج متواضع، لما فيه من عاطفة صادقة، ليس فيها تزويق أو تصنع، تأتي على لسان أعرابي، غسل أدرانه، واتجه إلى ربه، ذاهباً إلى

الحج، وجال في ذهنه معنى، واعتجرت في صدره نفثه، وطغى عليه شعور، فقال:

«يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَقْوَامُ واجْتَهَدُوا
أَيْمانَهُمْ إِنَّنِي مِنْ سَاكِنِي النّارِ
أَيَحْلِفُونَ عَلَى عَمْيَاءَ، وَيْحَهُمُ
جَهْلاً بِعَفْوِ عَظِيْمِ العَفْوِ غَفَّارِ»[1]

صدق هذا الأعرابي، وعرف الصدق بفطرته، وما يأتي على الفطرة يقبل، فثقته بالله، وقوة إيمانه به، جعلته يعرف طريق الحق، فإذا كان الناس قد رأوا منه ما اعتقدوا أنه مغضب لله، فقد حكموا بذلك على أنه من أهل النار، ونسوا أن الله غفور رحيم، وأنه يقبل التوبة من عباده، وأنه يتداركهم بلطفه. ولقد أدرك هذا الأعرابي بفطرته أيضاً أن هؤلاء الناس تعدوا على حق الله، وأنهم حدسوا أمراً لا تراه أعينهم، ولا تدركه بصائرهم، وهو حكم الله عز وجل، وهو صاحب الحق، يأخذه، أو يدعه، وقد

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٤.

ذكرهم الأعرابي ببعض صفات الله ـ جل وعلا ـ التي تمس أمره هو، ويحتاجها في قضيته هذه، وهي أن الله عفو غفور.

ويأتي الشعر صادقاً فيشد السامع إليه، والصدق يضيء، فيجذب الناس نحوه، ويبقيهم بجانبه، خاصة إذا كان ما يقال يلمس حياة الناس بين آونة وأخرى، ويمر بهم في معاشهم، وسعيهم له، ومثل هذا جاء في قول الشاعر:

بَـلاَءٌ لَيْـسَ يَعْـدِلُـهُ بَـلاَءُ
عـدَاوَةُ غَيْـرِ ذِيْ حَسَـبٍ وَدِيْـنِ
يبيحُـكَ مِنْـهُ عِـرْضًـا لَـمْ يَصُنْـهُ
ويَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونِ(١)

إنها صورة مفزعة، وهجاء لم يُرَكّبْ على أحد بعينه، فالمهاجم يهاجم وليس في جسمه موضع إلا وفيه مطعن خزي وعار، فعندما يهاجم شخصاً بريئاً من عيوب العار، فإن هذا هو البلاء بعينه، فالأول

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٨٤.

قد تبلد، وقد تكسرت نصال الخزي على جسمه، فأي سهم جديد لن يحس به، أما من لم يتعود على هذه السهام، لأنه لا يستحقها، فإن ما يأتي منها إليه مهما كان قليلاً، فهو مؤلم مزعج.

ومن لا دين له، فلا خوف عنده من الله، ومن لا يخاف الله فلا رادع له من الناس، إلا أن يشاء الله سبحانه وتعالى؛ ومن لا حسب له فقد نُزع منه الحياء، فلا يقف عند حد في تصرفه، فالسرقة لا تعيبه، وارتكاب الرذائل هو في مأمن من العتب عليها، والحسب أحياناً أعلى صوت في كبح جماح النفس عند الرذائل.

والشاعر موفق في الوقوع على بعض الأفكار البديعة، يتفوق في تصويرها، ويجيد في رسمها، مستغلاً مداخل الجمال اللفظي في الشعر، فيعمد إليه، ويأخذ منه ما يؤدي غرضه، فيأتي خياله جميلاً، يجتذب التصور، ويبهج السمع؛ فابن عائشة الشاعر يغبط الثريا على اجتماع شملها، في حين أنه

عجز أن يرقى حظه إلى أن يجمعه بحبيبته وهو واحد، وهي فكرة بديعة، كتب لها البقاء والتداول، لما رأى الناس فيها من جمال:

«خَلِيْلَـيَّ إِنِّـي لِلثُّـرَيَّـا لَحَـاسِـدٌ
وإِنِّيْ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ لَوَاجِدُ
أَيُجْمَعُ مِنْهَا شَمْلُهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ
وأَفْقِدُ مَنْ أَحْبَبْتُهُ وَهُوَ وَاحِدُ»[1]

ويأتي الشد في شعر بديع، يرسم صورة داخلها عدة صور، ويبدع الشاعر في معالجة كل فقرة من فقرات شعره، مفنداً أقوالاً، وواصفاً حالات، وآخذاً نفسه إلى أعلا ربوة وقف هو واعداؤه عليها، وإذا كان الوزن والشعور هما عماد الحكم في أن ما قيل شعر، فإن القافية لعبت دوراً، لتؤكد هذا، ولتضفي نغمة موسيقية مبهجة على هذه الأبيات، وهذه الأبيات هي:

«قال سويد بن أبي كاهل:

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤١٢.

كَيْفَ تَرْجُوْنَ سُقُوْطِي بَعْدَمَا
عَمَّـمَ الـرَّأْسَ بَيَـاضٌ وَصَلَـعْ
بِئْسَ مَـا ظَنُّـوْا، وَقَـدْ عَـرَّفْتُهُـمْ
عِنْدَ غَايَاتِ الْمَدَى كَيْفَ أَقَعْ
رُبَّ مَـنْ أَنْضَجْـتُ غَيْظًـا قَلْبَـهُ
قَـدْ تَمَنَّـى لِـيَ مَـوْتًـا لَـمْ يُطَـعْ
وَيَـرَانِـي كَـالشَّجَـا فِـي حَلْقِـهِ
عَسِــراً مَخْــرَجُــهُ مَــا يُنْتَــزَعْ
مُـزْبِـدًا يَخْطُـرُ مَـا لَـمْ يَـرَنـي
فَـإِذَا أَسْمَعْتُـهُ صَـوْتِـي انْقَمَـعْ
لَمْ يَضِرْنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسِدُنِي
فَهُوَ يَزْقُوا مِثْلَمَا يَزْقوا الضَّوَعْ(١)
وَيُحَيِّيْنِــــي إِذَا لاَقَيْتُــــهُ
وَإِذَا يَخْلُـوُ لَـهُ لَحْمِـي رَتَـعْ
قَـدْ كَفَـانِـي اللهُ مَـا فِـي نَفْسِـهِ
وَإِذَا مَا يَكْفِ شَيْئًا لَمْ يُضَعْ»(٢)

---

(١) طائر من طيور الليل يشبه الهام أو هو البوم.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٤١٢.

إنها أبيات جذابة صال فيها الشاعر وجال، راقصاً بها وبأبياتها، وكأنها أهزوجة حرب، فيها النغم، وفيها القوة، أثبت فيها عفته، وشاهده على ذلك الشيب، ودليله بياض لمته، مكتفياً بحيازته المجد عندما يأتي داعيه، ومنبهاً على حساده وغابطيه، وتمنيهم موته، ولكن تخيب آمالهم. ويبقى حيا شجا في حلوقهم؛ وهم شجعان في غيابه، أُسود إذا لم يحضر مجلسهم، ولكنهم فئران جبناء إذا ما حضر، ويبشون في وجهه، ويسلقونه بألسنة حداد إذا غاب، ولكنه مؤمن لا يخشى منهم، لأن من تولاه الله كفاه.

وتجمل الصورة الأبيات عندما تختلط الاستعارة بالحقيقة، فتنتج التأثير العميق، فتكون حكمة تخلد الفكرة التي تحملها، وتجعلها مقبولة مرحباً بها، والأبيات تحمل هذا اللون من الشعر:

«الحْـرَبُ أَوَّلُ مَـا تَكُـوْنُ فَتِيَّـةٌ
تسْعَـى بِـزِيْنَتِهَـا لِكُـلِّ جَهُـولِ

حَتَّىٰ إِذَا اشْتَعَلَتْ، وَشَبَّ ضِرامُها
عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ خَلِيْلِ
شَمْطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا، وَتَنَكَّرَتْ
مَكْـرُوْهَـةً لِلشَّـمِ والتَّقْبيـلِ»(١)

الحرب بشعة، ويكفي ذكر اسمها ليقشعر منها البدن، لما يأتي منها من الشر، وما تطحن من النفوس، وما تخرب من الممتلكات، وما تملأ به القلوب من الأحقاد، التي تؤدي إلى التربص والانتقام؛ سهل إضرامها، صعب إطفاؤها، قد يخطط لبدئها وانتهائها، ولكن المخطط يفاجأ أنه ليس في يده إلا البدء، أما النهاية فتلعب الظروف التي يديرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعبا لا يخطر على بال المخطط.

وهكذا تأتي مآسي الحرب، من قصر النظر، والتقدير الخاطئ، ويندم المشاركون فيها من كلا الفئتين أو الفئات، ولات حين مندم.

---
(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٩.

وهي تبدأ بشرارة، هي بذرة الفتنة، وقد تكون بكلمة، وقد تكون الكلمة كاذبة، أو وهماً بني عليه ما لا يتحمل؛ ثم يكبر الأمر قليلاً قليلاً، فيصبح دارجاً لا يستطيع أحد أن يوقف سيره، أو يقف في طريقه، بل يجرفه معه، حتى يُنهك الفريقان، وتبدأ عوامل طارئة، تجبر على الاستماع لصوت لم يكن مسموعاً من قبل، أو ينقطع نفس المتبارين، فيضطرون لإيقاف اللعبة، وإنهاء المهزلة.

فزاد الشاعر أصباغاً منفرة على الصورة الحقيقة البشعة، عندما صورها بصورة عجوز منبوذة، لا زوج يقبلها، ولا بعل يرضاها؛ وهذه العجوز الشمطاء قد أضافت إلى بشاعتها أنها جزت شعرها، وشعر المرأة جزء كبير من جمالها، وقبولها.

وتأتي قصيدة تفتر عن ثغر باسم، يطل منه الحق والعدل، ويشع الإنصاف، وقول الحق، فلا يغبط العدو حقه، ولا ينكر له فضله، وتفوقه، وهي صفات لا يقدر عليها إلا من ملك نفسه، ووثق من

موقعه؛ وعنده ما يفوق به غيره، من صواب النظرة، وصحة البصيرة؛ والقصيدة تجري مثل السلسبيل في سهولتها، ورقتها، وحسن تصويرها، وترابط أجزائها؛ تود أن لا تنتهي من قراءتها، للأفكار البديعة التي جاءت فيها، وهي صورة ملموسة ليس فيها إبهام أو غموض، ولا تحوجك إلى تصور مقتسر؛ كأنك قاعد على صخرة تنظر إلى المعركة، والسجال في الحرب، بل أنت أفضل ممن هو في هذا الموقف، لأن الشاعر كشف لك عما بداخله مما يجول بعضه في نفسه، فأطلعك على سره، وجعلك تشاركه في شعوره، والأبيات كمايلي:

«من أحسن ما قيل في الإنصاف في صفة الحرب واللقاء، والصدق في ذلك، قول عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني:

تَنَـادوا: يَـالَ بُهْثَـةَ يَـوْمَ صَبْـرٍ
فقُلْنَـا: أَحْسِنِـيْ ضَـرْبًـا جُهَيْنَـا

سمِعْنَـا دَعْـوَةً عَـنْ ظَهْـرِ غَيْـبٍ
فجُلْنَـا جَـوْلَـةً، ثُـمَّ ارْعَـوَيْنَـا

فَلَمَّـــا أَنْ تَـــوَاقَفْنَـــا قَلِيْـــلاً
أَنَخْنَـا لِلْكَـلاَكِـلِ فَـارْتَمَيْنَـا
وَلَمَّـا لَـمْ نَـدَعْ قَـوْسـاً وسَهْمـاً
مَشِيْنَـا نَحْـوَهُـمْ، وَمَشَـوْا إِلَيْنَا
تَـلأْلُـؤَ مُـزْنَـةٍ بَـرَقَـتْ لأُخْـرَى
إِذَا جَـاؤُوا بِـأَسْيَـافٍ رَدَيْنَـا
شَـدَدْنَـا شَـدَّة، فَقَتَلْـتُ مِنْهُـمْ
ثَـلاَثَـةَ فِتْيَـةٍ، وَقَتَلْـتُ قَيْنَـا
وَشَـدُّوا شَـدَّةً أُخْـرَى، فَجَـرُّوْا
بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ، وَرَمَوا جُوَيْنَا
وَكَـانَ أَخِـيْ جُـوَيْـنٌ ذَا حِفَـاظٍ
وَكَـانَ القَتْـلُ لِلْفِتْيَـانِ زَيْنَـا
فَـآبُـوا بِـالـرِّمَـاحِ مُكَسَّـرَاتٍ
وَأُبْنَـا بِـالسُّيُـوْفِ قَـدْ انْحَنَيْنَـا
فَبَـاتُـوا بِـالصَّعِيْـدِ لَهُـمْ أُحَـاحٌ
وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الكَلْمى سَرَيْنَا»[1]

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٧٣.

هذا التناسق في مجرى الأحداث، والتعادل في فعل الجانبين، جاء به الشاعر بطريقة سمحة سلسة؛ رسم الشاعر بدء الأمر بالمناداة والانتخاء بالقبيلة، والحث على الصبر، ودقة الضرب، وتساوى الفريقان في هذا، وتعادلا عندما جال الطرفان، ثم افترقا للراحة أو للمّ الصفوف، أو لتغيير الخطة، واختيار أسلوب آخر، بعد أن خبر أحدهما الآخر؛ فاختار الفريقان أن ينزلا، فيقاتلا على الأقدام، وبدأ عراك جديد، له أصوله، وله طرقه، وله سلاحه، فكان في أول الأمر القوس والسهم، لبعد موقع أحدهما عن الآخر. فلما استهلكت السهام، استوجب الأمر أن يقترب أحدهما من الآخر، ويلتحما، وسُلَّتْ السيوف، وبرقت، كأنها لمعان برق سحابة مثقلة، وأشرعت الرماح الردينية، واصطدم الفريقان، فقتل الشاعر ثلاثة رجال، والحق بهم عبداً، وقتل الفريق الثاني من فريق الشاعر ثلاثة ولكنهم قتلوا رابعاً، ولم يكن قينا، وإنما سيداً، حامي ذمار،

وهو أخو الشاعر، واسمه جوين، وفي هذه المرحلة من الوصف، وفي هذا الإقرار، يتضح الإنصاف في شعر الشاعر، ففي هذا التلاحم رجحت كفة آل بهثة، بقتلهم جوينا، ولكن هذا لم يحنق الشاعر، لأن قوانين الشجاعة تقبله، فموت الفتى في الحرب شرف.

وكانت حصيلة المعركة بين آل بهثة وجهينة متساوية، وكانت معركة حامية الوطيس، وكان الصدام قوياً، انتهى بأن الرماح تكسرت، والسيوف انحنت، مع الطرفين، وافترقا متباعدين في ميدان القتال، ولم يبرحاه في تلك الليلة، لضعف الجرحى، وعدم قدرتهم على السير، فهؤلاء لهم أنين، وهؤلاء بهم من الجراح ما منعهم من السرى.

ونعود إلى جوين وقتله، واعتبار أخيه له هذا زيناً، وأمراً يشرفه، لأن هذا يسمه بأنه مقدام، لا يخاف النزال، ولا يتردد في الاندفاع نحو العدو، بائعاً نفسه رخيصة، في سبيل قومه، وقبيلته، ولهذا

كانوا يتوقعون قصر أعمار السادة، وسراة القوم، وقد ورد ما يدل على هذا في بيتين مصورين تصويراً دقيقاً معبراً ومؤثراً.

قال عبيدة بن هلال:

«يَهْـوِيْ، وَتَرْفَعُهُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ
شِلْوٌ تَنَشَّبَ فِي مَخَالِبِ ضَارِ
فَيُرَى صَرِيْعًا، والرِّمَاحُ تَنُوشُهُ
إِنَّ السَّـراةَ قَصِيْـرَةُ الأَعْمَـارِ»(١)

وأبيات الحرب قوية، وتصف روح صاحبها المقاتل، وفيها جاذبية، ولنغمتها وقع، ومعانيها معبرة عن حياة الأبطال في لحظة العراك، يقول مهلهل:

«لَـمْ يُطِيْقُـوا أَنْ يَنْـزِلُـوا وَنَـزَلْنَـا
وَأَخُو الْحَرْبِ مَنْ أَطَاقَ النُّزُوْلاَ»(٢)

والنـزول كمـا في النصين السـابقين هـو عـلامـة

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٧٨.
(٢) بهجة المجالس: ٢/ ٤٧٩.

الشجاعة، والاستعداد للموت، وبيع النفس رخيصة، ومن العار ألا يَقْبَلَ النزولَ من طلب منه النزول، بل إن مجرد نزول أحد الجانبين يعني وجوب نزول الجانب الآخر، فإذا لم يفعل لحقه العار؛ بل إن الصورة للنزول أمر محتم، وقد رسمها الشاعر في قوله:

«قال ابن مقرم الضبي:

وَدَعَوا نَزَالِ، فَكُنْتُ أَوَّلَ نازِلٍ
وَعَـلامَ أَرْكَبُـهُ إذا لَـمْ أَنْـزِلِ»[1]

ويأتي شعر جميل يشد، لأنه فيه عاطفة في روحه، وصدقاً في معناه، ونغماً راقصاً في وزنه، وقُبَلاً تترى لأذن سامعه من القافية المختارة، والأبيات روي عنها مايلي:

«كان لأبي حمزة الضبي زوجتان، فولدت إحداهما ابنة، فعزّ عليه، واجتنبها، وصار في بيت ضرتها إلى جنبها، فأحست به يوماً في بيت صاحبتها، فجعلت ترقص ابنتها الطفلة، وتقول:

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٧٩.

مَـا لأَبِـيْ حَمْـزَةَ لاَ يَـأْتِيْنَـا
يَظَـلُّ فـي الْبَيْـتِ الَّـذِيْ يَلِيْنَـا
غَضْبَـانَ أَنْ لاَ نَلِـدَ البنينـا
تـاللَّـهِ مَـا ذاكَ فِـيْ أَيْـدِيْنَـا
بَـلْ نَحْـنُ كَـالأَرْضِ لِـزَارِعِيْنَا
يَلْبَـثُ مَـا قَـدْ زَرَعُـوْهُ فِيْنَـا
وَإِنَّما نَأْخُذُ مَا أُعْطِيْنَا[1]

ويقال إنه عندما سمع ذلك رأف بها، ورجع إليها، والأبيات مذكرة دفاع محبّرة، وحجة قوية مسكتة؛ ولم تقل إلا الحقيقة، وما زادت عن وصف الواقع، وقُدْرتها المحدودة، وعجزها الذي لا دخل لها فيه، وقد جعلت اللوم عليه، بطريقة مؤدبة، وكأنها تعرف أنه بعد قرون، سيعضد قولها العلم الحديث، وأن المرأة لا دخل لها في أن يكون الجنين ذكراً أو أنثى، وإنما هذا يرجع ـ بإذن الله ـ إلى جانب الرجل.

والأبيات وما جاء فيها عن زواج الاثنتين يؤدي

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٧٦٤.

بنا إلى قصة مشهورة بأبيات حيكت القصة فيها، وأصبحت لطرافتها في معناها، وخفتها على اللسان، وجرسها الموسيقي، على الألسن، فلا يكاد شخص يجهلها، خاصة من تزوجوا أكثر من واحدة، إن لم يأتوا بها جداً، أتوا بها هزلاً، والأبيات هي:

«قيل لأعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش، فتزوج امرأتين، ثم ندم، فأنشأ يقول:

تَـزَوَّجْـتُ اثْنَتَيْـنِ لِفَـرْطِ جَهْلِـيْ
بمَـا يَشْقَـى بِـهِ زَوْجُ اثْنَتَيْـنِ
فَقُلْـتُ أَصِيْـرُ بَيْنَهُمَـا خَـرُوفًـا
أُنَعَّـمُ بَيْـنَ أَكْـرَمِ نَعْجَتَيْـنِ
فَصِرْت كَنَعْجَةٍ تُضْحِيْ وَتُمْسِيْ
تُـدَاوَلُ بَيْـنَ أَخْبَـثِ ذِئْبَتَيْـنِ
رِضَى هٰذِيْ يُهَيِّج سُخْطَ هٰذِي
فَمَا أَعْرَى مِنْ إِحْدَى السَّخْطَتَيْنِ
وَأَلْقَـى فِـي الْمَعِيْشَـةِ كُـلَّ ضُـرٍّ
كَـذَاكَ الضُّـرُّ بَيْـنَ الضَّـرَّتَيْـنِ

لِهٰـذِيْ لَيْلَـةٌ وَلِتِلْـكَ أُخْـرَى
عِتَـابٌ دَائِـمٌ فِـي اللَّيْـلَـتَيْنِ
فَـإِنْ أَحْبَبْـتَ أَنْ تَبقَـى كَـرِيْمًـا
مِـنَ الخَيْـراتِ مَمْلُـوْءَ الْيَـدَيْـنِ
وَتُـدْرِكَ مُلْـكَ ذِيْ يَـزَنٍ وَعَمْـرٍو
وَذِيْ جَـدَنٍ وَمُـلْكَ الْحَـارِثَـيْنِ
وَمُلْـك المُنْـذِرَيـنِ وذِيْ نُـوَاسٍ
وَتُبَّـــــعٍ وَذِيْ رُعَيْـــــنِ
فَعِشْ عَزَبًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْهُ
فَضَربًا فِيْ عِراضِ الجَحْفَلَيْنِ»[١]

وتأتي أبياتُ القَافِيةُ فيها تُنافِس وزنَ الشعر في جذب السامع والقارئ، لما فيها من نغم مطرب، وجرس ممتع، وجمالها لا يستغرب إذا قرأنا النثر الذي سبقها؛ وقائل هذه الأبيات، وما جاء قبلها من تمهيد، شاعر دلت عليه أشعاره، وعضد ذلك نثره، والقصة ضافية، وهي:

(١) كتاب الأمالي: ٢/ ٣٥-٣٦. بهجة المجالس: ٣/ ٤١.

دخل عمرو بن حريث على أبي العريان، الهيثم بن الأسود النخعي، يعوده ويزوره، فقال:

كيف تجدك يا أبا العريان؟

قال: أجدني قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسودّ، وأسود مني ما كنت أحب أن يبيض، ولان مني ما كنت أحب أن يشتد، واشتدّ مني ما كنت أحب أن يلين.

وزاد غيره في هذا الخبر:

وأجدني يسبقني من بين يدي، ويدركني من خلفي، وأنسى الحديث، وأذكر القديم؛ وأنعس في الملا، وأسهر في الخلا؛ وإذا قمت قربت الأرض مني، وإذا قعدت بعدت عني:

ثم اتفقت الرواية على مايلي:

فَـاسْمَـعْ أُنْبِئْـكَ بِـآيَـاتِ الكِبَـرْ
تَقَارُبِ الخَطْوِ، وضَعْفٍ في البَصَرْ
وَقِلَّـةِ الطُّعْـمِ إِذَا الـزَّادُ حَضَـرْ
وَكَثْـرَةِ النِّسَيـانِ مَـا بِـيْ مُـدَّكَـرْ

وَقِلَّـةِ النَّـوْمِ إِذَا اللَّيْـلُ اعْتَكَـرْ
أَوَّلُــهُ نَــوْمٌ وَثُلْثَــاهُ سَهَــرْ
وَسَعْلَـةٍ تَعْتَـادُنِـي مَـعَ السَّحَـرْ
وَتَرْكي، الحَسْنَاءَ فِيْ وَقْتِ الطُّهُرْ
وَحَــذَرٍ ازْدَادُهُ إِلَــى حَــذَرُ
وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا يَبْلَى الشَّجَرْ»[1]

هذه بعض الأشعار التي تمثل قليلاً من كثير مما يشد في أشعار أبائنا، وهذه نماذج، وغيرها كثير، تغص به الدواوين، وكتب الأدب؛ وكثيراً ما عمد بعض الكتاب والأدباء، في اختيار ما أعجبهم، ووجدوا فيه لهم متعة، والاختيار والاعجاب يعتمد على ذوق الإنسان، وما تكون عنده من ملكة.

***

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٧.

نعمة العقل[1]

العقل زينة الإنسان، وبه ميزه الله على سائر الحيوان، وبه كرم الله ابن آدم، وجعل الأرض له، وما عليها، ميداناً للتدبر والتبصر، ليدرك عن هذا الطريق وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته، وليعرف صلته بالله، ومآله بعد هذه الحياة، وما أعد الله في الآخرة من ثواب وعقاب، وجنة ونار، والخلود في هذه، أو في تلك، والعذاب الشديد، والعذاب المنقطع بأمر الله. وبالعقل يستطيع، خلافاً للحيوان، أن يشكل ما حوله ويكيفه، بطريقة معقدة، تحتاج إلى تجارب، وملاحظة وترتيب، فتتطور الأمور به، وبما حوله، إلى ما يوجب التعلم، ومتابعة المستجد، والإضافة إليه، جيلاً بعد جيل.

وبالعقل سخر الإنسان ما حوله لصالحه، وقسره إلى منفعته، وجعل كل ما حوله يخدمه، وبتميز

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٧٠) في ٢٤/ ٢/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢٢/ ٧/ ١٩٩٥م.

العقل استخدم الإنسانُ الإنسانَ، وبالعقل استخدم الإنسان مقدرته في الحقول المختلفة، واستغل معرفته في شيء للسيطرة على شيء آخر. والعقل هو الأداة المرنة في يد الإنسان، ينحت بها صخر المعضلات، وجبال المشكلات، يوجهه الوجهة التي يريدها، ويسيره في الطريق التي يختارها؛ فالعقل هو الذي يستظهر كل ما في العقل من قدرة، وهو الذي يعرف مدى هذه القدرة، ونوعها، وما تصلح له، وما تقصر دونه، وما يأتي منها من جودة، وما يأتي من سداد حال، أو الاكتفاء بما يُجزي.

وعلى هذا فالعقل ضوء ينير الطريق لصاحبه، ويبدد له ما يعترض طريقه من ظلمة، ويقضي على ما يقف أمامه من دُجُنَّة وحلكة، فالسواد في الجهل يقلبه إلى بياض في العلم، فهو يقضي له على المشاكل بمعالجتها بما يزيل ما تأتي به من هم، وما يصاحبها من شغل للذهن والجسم. ويفتح له الطرق للاستفادة من الأمر إذا قصده، والمنفعة إذا خطبها؛ ويعطيه

الميزان الدقيق للإختيار بين أمرين نافعين، فيستفيد من أنفعهما، وبين أمرين ضارين، لا مناص له من أحدهما، فيأخذ جانب أقل الضررين.

بدون العقل يفقد المرء في الحياة كثيراً، والفقد هذا بقدر الفقد في العقل، فإن كان فقد العقل كثيراً، فمحصول الحياة من الانتفاع من الدنيا قليل، وإن كان الفقد قليلاً، فقد من الفائدة بقدر ذلك. والفقد تعارف الناس على تسمية له بقدرِه، فالبله صفة لنوع من نقص العقل، والسذاجة من مراتب ضعف العقل، وقد تكون قابلة للإزالة، وتنمية العقل، ليتغلب عليها؛ والجنون، وهو فنون، وأقسامه لا تكاد تحصى، وهي مبنية على مايأتي من المجنون من تصرفات، فقد يكون مظهرها من أقوال متضاربة متناقضة، وقد تكون من أقوال في غير موضعها، وقد تكون أقوالاً مؤذية لمن حوله، وقد تكون أفعالاً جارحة، أو تصرفات منتقدة.

ومن الجنون ما يأتي ويذهب، تثيره أمور، ويغيب

بغيابها، والأطفال أعداء هذا النوع، يحركون صاحبه شقاوة وأذى، يأتون بما يأتون به على سبيل المرح والتسلية، وقد يأتي منه عليهم ضرر صغير أو كبير.

وهناك من سموا عقلاء المجانين، وهؤلاء اختلط عندهم الجد والفلسفة بالشذوذ، وغرابة التصرف، وقد دون عنهم بعض الطرائف من أقوال الحكم المضيئة، والأشعار القوية، وكتب عنهم كتب، ومن أبرز هذه الكتب كتاب «عقلاء المجانين» للحسن بن حبيب النيسابوري.[1]

وهو كتاب ممتع، بما احتواه من معلومات عن هؤلاء الناس، الذين شذوا عما عرفه المجتمع من تصرفات منتظمة، ولكنهم عند الإختبار، يظهر منهم من العقل، وصدق المنطق ما يضفي عليهم صفة قوة العقل واتزانه.

والعرب في أدبهم أبرزوا أهمية العقل، وقدموه مع الصفات التي يقدرونها، فالعقل في أحاديثهم

(١) تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.

يقرن مع النسب، وهو من أشرف ما يتعلقون به، ويحرصون على نقائه وصفائه، والمروءة خلق أشادوا بمن اتصف به، وتوافر في نفسه، والنسب والمروءة أمور اقتضتها البيئة التي عاشوا فيها، فالنسب لحمة تفيد في المحافظة على النفس، وحماية العرض والمال، وهو يأتي بالقوة، والركن الشديد؛ ومن نتائجه التجمع في القبيلة، والتحزب أمام غارات الأعداء، وللإغارة لرد الاعتداء، والأخذ بالثأر، والكسب؛ والمروءة بسمة مجتمع في بيئة عبست فيها أفواه الجدب والقحط، وخشونة الحياة، والعقل وَزَنَ الأمور في المجتمع بالميزان الصادق العادل، وبه تُتفادى الأضرار، وتُكسب المنافع.

وقد جاءت النصوص، في ما أثر عنهم، جامعة هذه الثلاث الصفات، جمعاً يظهر حمدهم لها، وحرصهم على تواجدها في المرء ليكمل في مجتمعهم، فيقوم بواجبه على الوجه الأكمل، يقول مسروق:

«كنا عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فذكر

الحسب، فقال: «حسب المرء دينه، وأصله عقله، ومروءته خلقه». [1]

وعُمر هنا أراد أن يفسر ما كان ثمينا عند أهل الجاهلية بما يتماشى مع الإسلام، فلم يعد الحسب مقصوراً على النسب، وهو مهم في الإسلام لمراعاة صلة الرحم، وقد حث على المحافظة على النسب، ومعرفته، لأن في ذلك صلة الرحم، ولكن الأمر تعدى ذلك إلى الدين، فهو أهم آصرة، وأشرف عقداً. وعمر بعد ذلك يؤكد أن ما يوجد للمرء جذوراً في مجتمعه العقل، وإبزار ذلك المروءة.

نَسَبُ ابنِ آدَمَ فِعْلُهُ　　انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِي النَّسَبْ
حسْبُ ابن آدَمَ مَالُهُ　　إنْ طَابَ طَابَ لَهُ الحَسَبْ
زيْنُ ابنِ آدَمَ عَقْلُهُ　　والْعَقْلُ زِيْنَتُهُ الأَدَبْ[2]

وأهمية العقل تأتي مما يأتي منه من نتائج، تكون فيها الفائدة مما حبا الله المرء به من جوارح، ومن

---

(١) كتاب العقل وفضله: ٣٣.
(٢) كتاب العقل وفضله: ٣٣.

قدرة ذهنية، ففائدتها لا تظهر إلا إذا كان حاديها وقائدها العقل، وأبرز القدرات الذهنية العلم، ولا يتم نفعه إلا إذا كان العقل خلفه، وقد أكد على هذا أحد العقلاء، وهو قتادة في رواية تأتي هكذا:

«حدث همام بن يحيى، قال:
قلنا لقتادة: أي الناس أغبط؟
قال: أعقلهم.
قال: أعلمهم؟
قال: أعقلهم». (١)

فقتادة مصر على أن المرء يغبط على عقله، وقد حاول محدثوه أن يتأكدوا عما إذا كان يقصد ما قاله، أو أنها زلة لسان، أو غاب عنه ما ظنوه في العلم، ولكنه أكد لهم أن ما قاله عن العقل، وفضله، وتقدمه على العلم، قصده، وعناه.

وقتادة محق فالعلم بضاعة تخزن في مُجَتَمعٍ قد يحفظها، ولكنه لا يستفاد منها إذا لم تكن هناك

---

(١) كتاب العقل وفضله: ٤٢.

الوسيلة التي تُرِي كيف ينتفع بهذه البضاعة؛ أما العقل فملكة تسارع إلى نجدة صاحبها بما ينوب عن المعلومات المخزونة بالمعلومات المبتدعة، والمستنبطة من مجرى الحوادث، وبما قد يكون أعطي من الظواهر الحاضرة من تبصر وتدبر، قد يكون أساسه الفطرة والفراسة والذكاء.

وهناك قصة تروى، ولعلها رمزية عن سبق العلم للمعلومات، وهي هكذا:

يئس رجل من تعليم ابنه، ففي كل كُتَّابٍ يلحقه به لا يأتي منه بخير، فلما ضاق ذرعا بابنه، ونقص عقله، وضعف استيعابه لما يعطاه من علم، استشار عدة أشخاص، فأشار عليه أحدهم أن يأخذه إلى بلدة أخرى، فيها معلم مشهور بمقدرته على إدخال المعلومات إلى الرأس الأجوف.

أخذ الرجل ابنه، وعرضه على هذا المعلم، فوعده المعلم أنه سوف يبذل جهده في تعليمه، ونصحه بتركه عنده سنة، يرى بعدها مدى استفادته من تعليمه إياه.

وعاد الرجل بعد سنة، والأمل يحدوه أن يبشره المعلم بشرى تسره، وأن يجد أن ابنه استفاد من هذا المعلم، والمدة التي قضاها عنده.

فقال له المعلم: إن ابنك يعلم ولا يعقل، ويخزن المعلومات، ولكنه لا يستفيد منها في الاستنباط، فلم يفهم الوالد القصد، ولم يتصور أن هناك من يعلم ولا يعقل، وبدت الدهشة على وجهه، والتساؤل على لسانه.

فقال له المعلم سأريك عملاً ما قلته لك نطقاً ولفظاً. ثم أخذ من أحد شقوق الصفّة التي هو فيها خنفساء، وأخفاها في يده، واستدعى الابن من الردهة حيث يدرس التلاميذ؛ ثم سأله عما بيده، فقال الابن: صفه لي، فقال: إنه حيوان له أربع أقدام، وله قرنان في مقدمة رأسه، فما هو؟

فقال الابن: بقرة!

فقال المعلم لوالده: لقد رأيت أنه يعلم أن البقرة لها أربع أرجل، ولها قرنان، ولكنه لم يعمل عقله

ليعرف أن البقرة لا تخفى في اليد. فاقتنع الوالد بما قاله المعلم، ولعله وجه ابنه وجهة مهنية لا تحتاج إلى استعمال العقل، إلا استعمالا محدوداً، يتناسب مع قدرة عقل الصبي المتدنية[1]

ويعرف رجحان العقل عادة بما يأتي منه من نتائج، والمقارنة أحيانا تكون أوضح السبل، وأبينها، على رجحان عقل رجل على آخر، خاصة إذا تماثل الفعل، واتحدت الوقائع، ولم يكن هناك اختلاف إلا في المقدرة على الاستفادة من العقل، وإعماله الإعمال الحق، والمثل في هذا يتضح من القول الآتي:

«قال ابن أبي الزناد:

كنا لا نكتب إلا سُنّة، وكان الزهري يكتب كل شيء، فلما احتيج إليه، عرفت أنه أوعى الناس». [2]

---

(١) وعلى هذا القياس تأتي القصة الآتية: «وجه رجل ابنه إلى السوق، ليشتري حبلاً للبئر، ويكون عشرين ذراعاً؛ فانصرف من نصف الطريق، وقال: يا أبي في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبتي فيك» البصائر: ٤/ ٧٦.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٢٩٠.

هنا يتضح الفرق بين تفكيرَ ابن أبي الزناد، وتفكير جماعته، وتفكير الزهري، فابن أبي الزناد، ومن معه، فكروا تفكيراً قاصراً، فلم يدونوا إلا ما رأوا ضرورته، وأهميته، واقتصروا في ذلك على السنة، ولابد أنهم قرروا هذا دون تروٍّ وتفكير؛ أما الزهري فأدرك أنه ليس من الصواب أن يتخذ قراراً سريعاً، يحكمه من أول الأمر قبل أن يتدبر، وأن عليه أن يدون كل شيء، ثم فيما بعد، وعلى روية، يختار ما يختار، ويبقى جانباً ما لم يجد أنه مفيد في أول الأمر، ولكنه عندما يحتاجه، يجده بين يديه، خادماً طائعاً؛ فالزهري بهذا أعمل ذهنه بكل ما فيه من طاقة، وقوة هذا الحكم، في أن الزهري كان واعياً عاقلاً، جاءت من إقرار غيره، ممن يعتبر إلى حد ما منافساً له، بأنه كان أكثر منه توفيقاً في سلوك جادة الصواب.

وكل مفكر يتحدث عن العقل وتمييزه، فيأتي بوجهة نظر جاءته عن طريق التبصر، وعمق التفكير، وفي أحد الأقوال هذه قول قاله علي بن عبيدة،

ولصواب هذا الرأي، وملامسته الهدف، نال إعجاب أحد السامعين، ممن صفت أذهانهم، وأصابت نظرتهم، والقصة كالآتي:

«قال علي بن عبيدة:

العقل مَلِك، والخصال رعيته، فإذا ضعف عن القيام عليها، وصل الخلل إليها.

سمع هذا الكلام أعرابي، فقال:

هذا كلام يقطر عسلاً» .[1]

لقد أحسن علي بن عبيدة رسم الصورة بإعطاء هذا المثل، والأمثال خير صور التعبير، وقد قدم علي العقل فجعله ملكاً على الخصال والمواهب، وجعله هو صاحب الأمر والنهي، وهو الموجه لها، والحاكم لأفعالها؛ وقوتها من قوته، وعملها من عمله؛ إن جد جدت، وإن تراخى تراخت، هي تسير في ظله، وتمشي بتوجيهه، يدفعها فتندفع، ويرفعها فترتفع، هو لها الحافز، وهو لها المشجع، انتاجها من فضل قوته.

(١) البصائر: ١/ ٢٨.

ـ[1] وصافي عملها من هديه وإرشاده؛ فإذا دخله ضعف في جانب من جوانبه، تبين ذلك في الخصال، فوهنت بوهنه، وتدنى عملها بتدنيه، والخلل في العقل، والضعف فيه، قد يأتي من نقص، أو بلاهة، أو اعوجاج، أو تعقيد، أو طغيان غضب، أو سيطرة عاطفة، أو عاهة، أو جنون ناقص، أو جنون كامل؛ فيلعب هذا الخلل في الخصال كما يشاء، لا يحكمه منطق، ولا يسير على قاعدة، فيعدم بذلك صاحبه نعمة الحياة الحقة، ويعاني منه من حوله.

والعقل تتبين رزانة صاحبه بحسن التصرف الذي يأتي منه، تجاه أمر لم يرضه، واعتبره خارجاً عما كان يتوقعه، أو يتعشم في صاحبه. وغير العاقل قد يتصرف أمام هذا الموقف بما يزيده تعقيداً، ويضيف إلى الضرر ما هو أضر منه، وكان له عن ذلك غنى، وكان عليه أن يصبر على الأذى الأقل عما هو أكثر، والذي يدل على الطريق الصحيح في هذا هو العقل،

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

وهو مصدر الخير، لأنه يُصغِّر الهمّ الكبير، ويبرره بما يعزي المتألم، أو يهُدئ الغضبان، بما يأتي به من أقوالٍ، معانيها تنزل عليه برداً وسلاماً، فالعقل يدل على الصبر، ويزين طريق التحمل، ويعد وعوداً جميلة لمن التزم بذلك، ولدينا قصة لامرأة عاقل، رأت ما لم يعجبها، وشاهدت ما أزعجها، فلجأت إلى العقل تستفتيه في أي الطريقين تسلك، الصمت، والتغاضي، أو الثورة والمقابلة، ولقد هداها العقل، بتوفيق الله، إلى غض البصر عما رأت، وبلع الإهانة، رغم مرارتها، فأكسبها ذلك ملء يديها فائدة ونفعاً، والقصة كمايلي:

«أرادت حفصة بنت سيرين، أخت محمد بن سيرين، أن تدخل إلى بيتها، فإذا زوجها مع جارية له على فراشها، فأغلقت عليهما الباب، وانصرفت، فلما كان بعد أيام، ضرب الجارية، فقالت له: أتضرب العروس؟!

فضحك، وقال: قد علمت أنك قد عرفت،

والجارية لك» .[1]

بهذا العقل، وبهذا التصرف، وبرباطة الجأش هذه، وبالسيطرة على الأعصاب، بهذه الصفة، تعمر البيوت، ويسعد الأزواج، لقد حافظت حفصة بتصرفها هذا على زوجها، وكسبت في النهاية الجارية، ولم يعد هناك ما تخاف منه، وحملت زوجها جميلاً بسماحها عن تصرفه الذي لم يكن يتوقع منه .

والمستشار يتوقع منه أن يكون ذا عقل وفطنة، يزن الأمور بميزان دقيق، وفيه تبصر، وفي تفكيره عمق، واستقصاء؛ إذا قابله أمر قَلَّبه على وجوهه، وأدار فيه الفكر، واستدعى للقياس عليه التجارب؛ يُقلب أموره على وجوه، ويسلط عليه أدوات الذهن، يتأنى قبل أن يصدر حكماً، فلا يسرع مع أول بادرة ذهن، ولا يجري خلف سانحة بارقة فكر؛ والمستشار عادة لا يستشار إلا عند الحيرة، ولا يستعان به إلا عند الرزوح تحت ثقل الحمل؛ وعمر بن عبدالعزيز

(١) تحفة العروس: ٢٥١.

من الخلفاء الذين يعرفون ذوي العقل والدين والرزانة، ويعمد إلى أخذ رأيهم في أمور الخلافة، والاستعانة بهم في إدارة دفة الحكم، وقد وجد في إياس بن معاوية مستشاراً يركن إلى رأيه، وعارفاً بالناس وأخلاقهم، وقد استشاره في أمر فشفاه، ولجأ إليه في معضل، فأنار له الطريق، والقصة كمايلي:

«قال عمر بن عبدالعزيز لإياس بن معاوية:

دلني على قوم من القراء أُوَلِّهم.

فقال له: إن القراء ضربان: ضرب يعملون للآخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا، فما ظنك بهم إذا مكنتهم منها.

فقال: ما أصنع؟

قال: عليك بأهل البيوت الذين يستحيون لأنسابهم، ويرجعون إلى أعرافهم، فولِّهم»[1]

من جمال العقل أن القول الذي يأتي منه، والحكم

---

(١) يروى أن هذا القول جرى بين الحسن البصري وعمر بن عبدالعزيز. انظر البصائر: ٢/ ٢٦.

الذي يصدره، يأتي منظم الأجزاء، مرتب الخطوات، ولقد أجاد إياس بن معاوية، إجادة تامة، وأحسن عرض الفكرة، ووفق في الرد، ولو لم يستعمل عقله في هذا التقسيم الصادق، لما جاء القول مقنعاً بهذه الصورة البيّنة. وإذا لم يكن استجاب لطلب عمر بن عبدالعزيز، ورشح له أشخاصاً كما كان يؤمل، إلا أنه وضع له القاعدة، التي عن طريق اتباعها سوف يصل إلى بغيته، إذْ أصبح مجال الاختيار محدوداً؛ ولم يجد إياس أن القراء، كما كان يظن عمر هم من سوف يساهمون في مساعدة عمر، ولكن ذوي الأحساب، أصحاب البيوت الأصيلة، هم من يمكن أن يلتفت إليهم في هذا الأمر، لأن لهم شرفاً يحافظون عليه، فلا يهدرونه بخيانة في العمل، سرقة أو تقصيراً، وهم أهل الغيرة، والحريصون على منفعة بلادهم.

وإياس عندما قال هذا، قاله في زمن اختلاط أبناء البادية بأبناء المدن، وتداخلت المجتمعات، ودخل

في نطاق الدولة الإسلامية شعوبيون، ليس لهم من العراقة في المجتمع ما يردعهم عن فعل الناقص، وارتكاب المنتقد، وقد أصبحت الدولة مترامية الأطراف، بعضها بعيد عن مركز الحكم، ولا تراه عينا عمر، ودخلت هذه الأمم في الإسلام، ودخلت معها بعض عاداتها، وبعض تقاليدها، وليس عندها من العصبية، والالتفاف القبلي، ما عند الأعراب؛ وأبناء مكة والمدينة من الحاضرة، لهم ما لهم من المفاخرة بالابتعاد عما يجرح المروءة، ويلمس الشرف. وهذه القلة في زمن عمر، زادت قلة مع مرور الزمن، واختلاط العناصر وطغيان العادات، وضعف الدين.

إن إياس في قوله هذا أكد أنه مستشار عاقل، وأنه أهل لحسن الظن الذي أمله فيه عمر بن عبدالعزيز، فقد نبه عمر على الأساس الخاطئ الذي وضعه في ذهنه لكفاية العامل، وأرشده إلى أساس جديد يسعفه في مطلبه.

ويسأل رجل سؤالاً قد يكون الجواب عليه من بعض الناس صعباً، ولكنه ألقي على رجل متناه في عقله، فأجاب عليه جواباً موفقاً؛ وقد يكون في السؤال سوء قصد، وأمل في الإثارة، والاستعداء، وزرع بذور الغيرة والحقد، وقد يكون عن حسن نية، وحب استطلاع، وأمل في محو الحيرة، المهم أن الجواب جاء مقنعاً، مدهشاً، والقصة هكذا.

«قيل لمحمد بن الحنفية:

كيف كان علي ـ عليه السلام ـ يقحمك في المآزق، ويولجك في المضايق، دون الحسن والحسين؟

قال: لأنهما كانا عينيه، وكنت يديه، فكان يتقي بيديه عن عينيه.

هكذا الدر من البرِّ». [1]

لم يستطع صاحب البصائر كتم إعجابه، فصرخ بهذه الجملة: «هكذا الدر من البرِّ» وهذا القول جوهرة من البر بالوالد، وحسن صلة الرحم بالأخوة.

---

(١) البصائر: ١/١٤٨.

لا يأتي مثل هذا الرد إلا من عقل نير، حباه الله بالصفاء والنقاء، فجاء ما جاء منه صافي الأديم، نقي السريرة.

والصدق نور وهاج، وبذرة خيّرة، ومنجاة للمرء إذا التزم به، ولكن الصدق مثل أي صفة من صفات الخلق الحميدة، إذا لم يحكمها العقل، ويحيطها بإطاره الآمن، جاءت بالضرر، وعادت على صاحبها بالأذى، والقصة الآتية تؤكد هذا:

«قال ابن سيابة:

حضرتِ جنازة بمصر، فقال لي بعض القبط:

يا كهل من المتوفِّي؟

قلت الله ـ عزّ وجَل.

فضربت حتى مت». [(١)]

الناس تعودوا على أن يسموا الميت «متوفِّي» بكسر الفاء، وهو خطأ ألفه الناس، واعتبروه هو الصحيح، ويستنكرون غيره، وابن سيابة لم يستعمل عقله هنا،

---

(١) البصائر: ١/ ١٥٥.

فيبعد عن موطن شبهة تتصل بالله سبحانه وتعالى، أو بدينه، فالناس لا يتسامحون في هذا؛ فصحيح أن الصدق بذرة خيّرة، لكنها تضيع إذا وضعت في سبخة، ولو كذب هنا، وجارى الناس في كذبهم، الذي يعتقدون أنه الصدق، لسلم، لكنه اختار أن يتفلسف على العامة، فجاءه ما جاءه.

والعقل ينمو مع نمو الإنسان، ويزيد مع التجارب، ويستفيد مما يسمع الإنسان ويقرأ، إذا كان به استعداد فطري لذلك، أما متى يتبين عمل العقل، وما الأدلة في هذا، فمن أطرف جواب سمع في هذا قول رجل قال حكمة في القصة الآتية:

«قيل لزرعة بن ضمرة، متى عقلت؟

قال: يوم ولدت.

قيل: وكيف ذلك؟

قال: منعت الثدي، فبكيت، وأعطيتها فسكت».[1]

هنا تختصم الغريزة مع العقل، أيهما أقوى في

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٤٤.

هذه المرحلة، وقد تكون بذرة العقل بدأت تنمو مع ولادة الطفل، ولكنه من الصعب قبول أن صياح الطفل، وطلبه الأكل جاء من تفكير نابع من العقل. على أي حال هذا هو رأي زرعة!

أما العقل الناضج، فهو في الرجل الناضج، ويتمثل في قول معاوية، جواباً لسؤال سئله عن مبلغ عقله. والسؤال والجواب جاءا هكذا:

«قيل لمعاوية:
ما بلغ من عقلك؟
قال: لم أثق بأحد». [1]

إن معاوية غالى فيما قال، لا قصداً للمعنى الضيق الذي تعنيه الجملة، ولكن رسماً لصورة الحذر الذي يتخذه عادة مع الصديق مثل ما يراعيه مع العدو؛ ويأتيه مع القريب مثل ما يحرص عليه مع العدو؛ فهدفه هنا إظهار أهمية الحذر، ونفعه للإنسان، وأن الحياة تستوجبه، والتجربة تؤكده، والثقة المطلقة

---

(١) البصائر: ١/ ٢١٩.

فيها من الضرر ما قد يهزها، ويبين مدى الخطأ في الاعتماد عليها. وكثيراً ما قامت المشاكل بسببها، وكثيراً ما منع ذلك الحذر؛ وتزيد أهمية ذلك في الحقوق، وما يترتب عليها من مكاسب.

والحزم من الأمور التي تبرز في أقوال الحكماء، ويحمدون مراعي الحزم فيها، ويلومون المفرط، ويأتون بالأقوال المنيرة التي تؤكد رأيهم في هذا، ومن الأقوال التي حَظِيَ بها الحزم من ذهن الأعراب الصافي ما قاله أحدهم، وهو كمايلي:

«قال أعرابي:

لا ينبغي لأحد أن يدع الحزم لظفر ناله عاجز، ولا يرغب في التضييع لنكبة دخلت على حازم». [1]

والعقل دائماً في أقوال الحكماء، يأتي في صور مختلفة، ولكنها كلها مضيئة، ومن تلك الأقوال، قول بزرجمهر:

---

(١) البصائر: ٢/ ٤٠.

«لا شرف إلا شرف العقل، ولا غنى إلا غنى النفس». [1]

والعلم مما ينير العقل، وينمي قدرته على التفكير السليم، والعمل الشريف، وكان العرب في الجاهلية عقلاء، إلا أن هناك نقطاً سوداء في صفحة عقولهم، انعكست على بعض أعمالهم، فجاءت بعيدة عن العقل، الذي خدرته العادات، وأعمت بصيرته التقاليد، وقد وضع العقل حيال هذه الأمور على الرف، وعطلت قوته، فجاءت الأفعال متدنية، مثل عبادة الأصنام، ووأد البنات؛ وقد أزال العلم، ونور الدين الغشاوة عن قلوبهم، فصفت عقولهم، ورأوا الحق حقا، والباطل باطلاً، وتداركهم الله بلطفه، وقد أفلح من جعل الله له عقلاً، وشحذ بصيرته، وأزال الغشاوة عن قلبه.

والعقل أفضل هبة يعطيها الله سبحانه وتعالى للمرء في هذه الدنيا، لأنها أداة للسعادة، ووعاء

---

(١) البصائر: ٤/ ٨٠.

للخير، وللقمان مع ابنه قول منير في العقل:

«قال لقمان لابنه: يا بني اعلم أن غاية السؤدد والشرف في الدنيا والآخرة حسن العقل، وإن العبد إذا حسن عقله غطّى ذلك عيوبه، وأصلح مساويه». [1]

ولعل العقل أخذ من عقال الإبل، والسيطرة عليها، والتحكم بها، فهو الكابح لما قد يأتي به الإنسان من أمر يتعدى الحدود، ويتجاوز المقبول، فإذا فقد الإنسان العقل، فقد السيطرة على نفسه، وقد قال أحد الفلاسفة:

«إذا فقد الإنسان العقل، والتوفيق، لم يصلح له شيء من أموره». [2]

والعقل يجعل الإنسان في موقع وسط فيما لا يجوز فيه الغلو ولا التفريط، وهو الميزان لمثل ذلك، وعلى هذا كان جواب أحد الفلاسفة:

«قيل لفيلسوف: ما العقل؟

---

(١) العقل وفضله: ٤٩.

(٢) البصائر: ٤/ ١٧٤.

قال: اعتدال الطبائع». [1]

وإذا كان العقل يزيد بالعلم، وينمو بالتجربة، ويصقل بالتدبر، والتبصر، ويزيد صفاؤه بالمتابعة والحرص، فإن مجالسة الرجال، واحتكاك الأفكار، خير قادح للعقل، وخير مغذ له، وقد قيل:

«لكل شيء فحل، وفحل العقل مجالسة الناس»[2]

لأن في المجالسة علم، وفيها نهج في التفكير، وإيحاء لطرق جديدة لشخذ الذهن، وتعديل لما قد يكون لدى المرء من نهج وخط، وتصحيح لما قد يكون الإنسان اعتاد عليه، وأخذه مسلماً دون تفكير، فالمجادلة، والمحادثة، أيقظت ما كان نائماً عنده من فكر، وأنارت ما كان لديه مظلماً من ذهن.

وكلما كان المرء مجالساً لأناس أصحاب عقول مستنيرة ارتقى عقله، وصفا ذهنه، لأنه يغرف من معدن صاف، وخلاف ذلك ما لو جالس أناسًا

(١) البصائر: ٤/ ١٧٤.
(٢) البصائر: ٤/ ١٩٤.

عقولهم متدنية، وأذهانهم مظلمة، وأفكارهم مشوشة، وقد لاحظ الأحنف أنه يتأثر تأثراً ظاهراً بكل فريق من الفريقين، يقول عن ذلك:

«إني لأجالس الأحمق ساعة، فأتبين ذلك في عقلي».[1]

ويتبين العقل وكماله من حسن التصرف، وكمال الحيلة، ونجاح القصد، والوصول إلى الهدف، بطريقة متقنة، نتيجة فكر عميق، وتخطيط سليم، لعب العقل دوراً نابها في كل خطوة من خطوات العمل، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الإسكندر، في عقابه لشاعر قريب منه، والقصة كمايلي:

«غضب الإسكندر على شاعر فأقصاه، وفرق ماله في الشعراء، فقيل له في ذلك.

فقال: أما إقصائي له فلجرمه، وأما تفريقي ماله في أصحابه، فلئلا يشفعوا فيه».[2]

إنها لعبقرية من الإسكندر أن يفكر في هذا، وإنه

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٤.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٢٩.

لحزم منه أن ينفذ هذا، فالعقوبة كل يفكر فيها إذا غضب، والتنفيذ كل يقدم عليه إذا قدر؛ أما أن يبتدع ما ابتدعه الإسكندر في هذه الحالة، فإنه انفرد به، وجاءه عن طريق التجربة، ومعرفة أنفس الناس، وأمراضها، ودوائها؛ إن مال الشاعر إذا انتقل إلى زميله، شغل باله تملكه وحفظه، وأحجم عن أي عمل يفقده إياه، ويأخذه منه، فيرخص الصديق عند المال، بل لعل من أخذ يجد من المبررات ما يزيد الحطب على النار، حتى لا تخمد، ويضيف على غضب الإسكندر ما يجعله لا يفكر في الرضى عن الشاعر لو عنّ له ذلك. إن معرفة الأنفس، وما يدور فيها، وما يحكمها، ويسيطر عليها، أمر مهم في نجاح الأعمال، المبنية على معرفتها.

ومعاوية بن أبي سفيان عرف عنه الأناة والصبر وقوة التحمل، والحلم، وهذه الأمور لا تأتي إلا في ظلال دوحات العقل، وفي أفناء جناته، وفي فوح أزهار بساتينه؛ ولقد استطاع بهذه الصفات أن يدبر

مملكة مترامية الأطراف، في وقت شديد، بدأ الامتزاج فيه بين أجزاء من البلاد، وكانت البلاد بأجزائها أقرب إلى التنافر، والأمم التي دخلت إلى الإسلام أقرب إلى الغليان، لأختلاف الأمزجة، والعادات، والولاء، فاستطاع أثناء حكمه أن يدير السفينة بين شعاب هذا البحر المتلاطم، وهو وإن كان تغلب على بعضها بالسيف، فقد استطاع أن يتغلب على كثير منها بالحلم، وسعة الصدر، والكرم، وتحمل الأذى.

وفي هذا من العقل ما يطفح فيه الكيل، وترجح كفة الميزان، وله قول يدل على نضج هذا العقل، وهو:

«إني لا أحمل السيف على من لا سيف معه، وإن لم يكن إلا كلمة يشتفي بها مشتف، وجعلتها تحت قدمي، ودبر أذني».[1]

إن معاوية يمثل الحاكم العاقل، إنه يتفادى العقاب لأقل سبب، حتى لا يكثر أعداؤه، ويزيد عدد

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٥٧.

مبغضيه، وهو يعلل ما يأتي على أَلْسِنَة الناس، بأنه طفح ما في صدورهم، ينفسون به عما كرهوا، ولا يرى في هذا بأساً، مادام يجد الحانق في القول متنفساً، ومادامت الكلمة تساعده على ما قد يكون تأجج في صدره من بغض، وتفيده في إطفاء هذا الحريق؛ ومعاوية يصم أذنه عن سماع هذه الكلمات، ويدوس عليها بقدمه، فلا يعطيها أي اعتبار، وكأنها لم تكن.

والحاكم، الذي لا يفعل هذا، يتعب نفسه، ويملأ سجونه، ويسفك دماء تصرخ في ضميره، لأنه لا شرع يبررها، ولا دين يجيزها، وتكون عليه غصة عند حشرجة الروح في الصدر، وقد أنقذ عالم جليل خليفة من الخلفاء كاد يقع في هذا الإثم، إذ ركبه الغضب، وطمس عقله، فلم يسلك الطريق العدل، ولم يَرَ وَجْه الحق، ولم ينظر إلا إلى كرامته الوهمية، وأخذته العزة بالإثم، فاستدعى أقصى سلطته ليجعلها أداة نقمته، ومعول تنفيذ أجيج غضبه؛

ولكن هذا العالم، بهدوء المؤمن، ونية من يرعى جانب الله، ويخلص لولي أمرهِ، وما يوجبه الدين من النصيحة، استطاع بعون الله وتوفيقه، أن يهدئ ثائرة الخليفة، وأن يثنيه عن سلوك طريق الخطل، ويمهد له السير في جادة الصواب؛ أقفل أمامه باباً يؤدي إلى ضيق مظلم، وفتح أمامه باباً يوصل إلى سعة منيرة، رأى في هذا بهجة في الذهن والنفس، وأبعد عن أمر كاد أن يثقل ضميره، كان سوف يتذكره دائماً وإن أظهر جاهداً عدم اكتراث. والقصة جرت هكذا:

تغيظ عبدالملك على رجل فقال:

والله لئن أمكنني الله منه، لأفعلن.

فلما صار بين يديه، قال رجاء بن حيوة:

يا أمير المؤمنين، قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله.

فعفا عنه». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٥٩.

والحكام يشعرون بامتنان لمن يقف منهم هذا الموقف، فيساعدهم على أنفسهم، وقد عاتب حاكم في العصور الماضية جلساءه، ولعله المأمون، إذْ لم يتدخلوا، فيشفعوا للجاني، فيجد في شفاعتهم عذراً يوقف فيه العقوبة، متظاهراً بأنه لم يفعل هذا إلا من أجلهم، وقد أصبحوا شبه ضامنين لهذا الجاني، في حسن سلوكه في المستقبل.

والحاكم، يقدم عدداً ممن تقرر قتلهم، فإذا قتل الأول، شعر الحاكم أنه أوجد الهيبة المطلوبة، وشَفَى غيظه، فيسمع كلمة من أحد الجناة، فيأخذها عذراً مقبولاً، فيوقف القتل؛ وقد روي أن الحجاج، وهو يطارد الخارجين على الدولة، كان هذا ديدنه.

ويقف جليس للسفاح موقفاً مظلماً، يخالف الموقف الذي وقفه رجاء ابن حيوة مع عبدالملك، ويتقرب إليه بإثم، ويزين له خطأً، ولكن عقل السفاح رجح على عقل الناصح الغَاش؛ فلم يغره هذا بما لمع في ذهنه من شر، وكان السفاح محصناً تحصينا قوياً،

وليس غريباً على السفاح، الذي قاد الدولة العباسية في إزاحتها الدولة الأموية، أن يكون راجح العقل، سليم الرأي، والقصة هكذا:

«لما قام السفاح، قال له أحمد بن يوسف:

لو أمرت بلعن معاوية على المنابر، كما سنّ اللعن على علي، عليه السلام؟

فأبى، وتمثل بقول لبيد:

فَلَمَّـا دَعَـانِـيْ عَـامِـرٌ لأَسُبَّهُـمْ
أَبَيْتُ وَإِنْ كَانَ ابنُ عَيْسَاءَ ظَالِمَا»(١)

لقد اختار السفاح قولاً مضيئًا من التاريخ، فجعله مثله في معاملة أعدائه، وهم أموات، وكأنه يقول داخل نفسه: «وَلَيْسَ رَئِيْسَ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا».

وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، فإن كانت في تصرفها قد اكتسبت إثماً، بخطأ ارتكبته، فإن السفاح لا يريد أن يسير في

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨١.

جادتها، ويتبع خطوها. وقد أراح دولته بهذا، وليس نفسه فقط، من أمر مهين.

ويشمخ العقل درجات التميز، ويعتلي في مستواه، عندما يحاول صاحبه أن يكون خيرّاً، أمام من يريد منه ألا يكون كذلك، ولكن العقل يقف بجانبه، ويشد عضده، ويوحي إليه بما هو أصلح، وبما يبرئ ذمته، ويكسبه أجراً بدلاً من الإثم، والقصة كما يلي:

أراد رجل تطليق امرأته، فقيل له:

ما عيبها؟

فقال: هل يتكلم أحد بعيب امرأته؟!

فلما طلقها قيل له:

ما كان عيبها؟

قال: هي امرأة غيري، ما لي وما لها؟![1]

لقد كان العقل يسير بجانبه، يضيء له الطريق، ويمهد له حسن السير فيه، فهداه في أول الأمر إلى

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٧.

الإدراك النبيل، في أن الرجل لا يليق أن يعلن للناس عيوب زوجته، لأن الصلة التي بينهما تمنع ذلك، وشرف الارتباط لا يبيح مثل هذا. ثم لما خرجت الزوجة من ذمته، هداه عقله، بتوفيق من الله، إلى أن المسلم لا يجوز له أن يتكلم في امرأة رجل آخر، فهذه غيبة. وبهذا نجا من حفرة الإثم التي وضعت في طريقه، فاختار الطريق دون أن يقع فيها.

ويزن عقل رجلٍ عالمٍ جَبَلَ أُحُد، بل يرجح عليه، فيعمد إلى طريقة تنجيه من الإثم، وتنجي غيره؛ وهذا العقل الرزين الذي استفاد منه العالِم، نمى ورجح من العلم الذي تعلمه، وأغرقَ في بحاره، فتقدم أقرانه في زمنه، ولمع نجمه، لتقواه وحرصه على فائدة أفراد مجتمعه، وقصته مع رجل ركب جادة الخطأ كانت كمايلي:

«بُلِّغ الحسن البصري أن فلاناً قد اغتابك، فأهدى إليه طبقًا من رطب، فأتاه الرجل، وقال:

اغتبتك، فأهديت إليّ؟

فقال الحسن: قد أهديت إليّ حسناتك، فأردت أن أكافئك» .[1]

لقد كانت هذه موعظة مبتدعة، لم يُسبق إليها الحسن البصري، ولعلها آتت أكلها، إذا كانت الأرض التي بذرت فيها خصبة.

لم يقابل الحسن الأساءة بمثلها، ولا عاتب الرجل على عمله الشائن، ولا شكاه على أحد، وإنما فتح له أبواب الخير، ليلج منها، إلى روض الخير، وعفة اللسان، لقد أفزعه بطريقة هادئة، عندما نبهه إلى أنه بعمله يفقد الحسنات، والإنسان أحياناً ينسيه الشيطان أوضح المسالك، ويذكره بأقرب الأمور للخطأ، ويزينها له، ويدفعه في طريقها، وإذا لم يتداركه الله بمن يذكره، فقد يوغل في الخطأ، إلى حيث لا رجعة. إن المتدبر في كلام الحسن يفزع من الصورة الهادئة التي رسمها: حسنات تتطاير في الهواء، منتقلة من كفة إلى كفة، كفة تخسر، وكفة

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٧.

تكسب، والخسارة بسبب لم يكن هناك داع له أن يكون؛ ولكن حب نهش لحم الناس فيه لذة عند بعضهم، يجدون فيه متعة، حتى يصبح عادة.

ولنقارن ما فعله الحسن، وما قاله، بما قاله ابن سيرين، في موقف مع من اغتابه، إلا أن مجرى الأمر مختلف بعض الشيء، ولكن التصرف في كلا الحالتين من ذوب العقل، ونتاجه:

«قال رجل لابن سيرين: إني شتمتك، فاجعلني في حل. قال: ما كنت لأحل لك ما حرم الله» .[1]

لقد صدق ابن سيرين في جوابه، وأحسن في رده، إنه فقيه تكلم بلسان مهنته، وعالم استوحى هدي علمه، فالغيبة محرمة بشرع الله، والذي يحل ويحرم هو الله، سبحانه وتعالى، لا ابن سيرين؛ وابن سيرين هنا لم يتنازل عن حقه الذي أعطاه الله إياه، وسيقف مع هذا الرجل، يوم الدين، فيقتص لنفسه، ولو سامحه على ألا يعود، لكان ـ إن قبل الله ذلك ـ من العافين عن

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٦.

الناس. ولكن ابن سيرين فضل أن يعطي الرجل درساً قاسياً، فلعل هَمَّ عدم المسامحة يوقظ ضميره، فيقلع عن شتم الناس، ولولا أن الرجل قد بدأ يحس بالندم، لما جاء يعتذر، ويطلب من ابن سيرين أن يحله من نهش لحمه.

وعلى هذا النسق، وفي هذا الاتجاه، وبمعالجة مختلفة، يعمد عاقل إلى بذل جهد، لإنقاذ شخص مغتاب، من براثن الإثم، وبؤرة العقاب، ويختار العتب المباشر، ولكنه يلبسه ثوب الاستعارة، لتأتي الصورة واضحة بينة، في فداحتها، وبشاعة صورتها، ليكون وقعها على النفس أشد، والأمل في أثرها أكثر، والقصة هكذا:

«كان أبو الطيب الطاهري يهجو بني سامان، فقال له نصر بن أحمد يوماً:

يا أبا الطيب، إلى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟

فخجل، ولم يعد». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٧.

إنه استوحى هذه الجملة من قول الله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .(١)

ولعل الطاهري تصور نفسه قاعداً يغمس خبزه في لحم الناس، فارتعش بدنه من هذه الصورة، وأخذه الرعب لهذا المنظر، فأقلع عن هذه العادة المتدنية.

وهناك قصة عن الغيبة، تصرف عالم عاقل نحوها تصرفاً حسناً، ورد تجاهها رداً جميلاً، وقطع دابر القول الذي ربما أدى إلى إثم، وقاد إلى رذيلة:

«قال رجل لعمرو بن عبيد:

إن الأسواري لم يزل يذكرك، ويقول: الضال.

فقال عمرو: والله يا هذا ما رعيت حق مجالسته حين نقلت إلينا حديثه، ولا رعيت حقي، حين أبلغتني عن أخي ما أكرهه. إعلم إن الموت يعمنا، والبعث يحشرنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا» .(٢)

هذا عالم جليل، قطع الشر من أساسه، وأوقف

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) ربيع الأبرار: ٣/ ٣٨٣.

مَدَّهُ، وبتر دابره؛ وبيّن الأساسين اللذين بَنَى عليهما نصحه: الأول ما هو حق للمغتاب على ناقل الغيبة، والثاني ما لعمرو بن عبيد من حق على ناقل الكلام.

ثم ذكر بيوم التقاضي الأكبر، أمام القاضي العادل، قاضي القضاة، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والعقل ملكة صائبة تغذيها التجربة، ويسددها التبصر، «ولهذا قال عبيدالله بن سعد:

سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: سئل بعض العرب عن العقل؟

فقال: لُبٌّ، أَعَنْتَه بتجريب». (١)

هذا عن كماله وتمامه، ولهم قول من أقوال في تعريف العقل هكذا:

«روي عن إبراهيم بن إسحاق، قال:

قلت لورد بن محمد نصرويه ـ وكان قد بلغ عشرين

(١) العقل وفضله: ٥٠.

ومئة سنة:

ما العقل؟

فقال: أن يغلب حلمك جهلك وهواك» .[1]

ويحكم عاقل على العقل حكماً صائباً، ويعطي قولاً عدلاً، هكذا:

«قال محمد بن يحيى: قلنا للضحاك بن مُزاحم:

يا أبا القاسم، ما أعبد فلانا، وأوْرَعَهُ، وأَقْرَأه!

قال: كيف عقله؟

قال: قلنا: نذكر لك عبادته، وورعه، وقراءته، وتقول: عقله؟!

قال: ويحك، إن الأحمق يصيب بحمقه ما لا يصيب الفاجر بفجوره» .[2]

والضحاك يريد أن تكون العبادة، والورع، والقراءة، عن بصيرة، واقتناع، وأن يكون الحبل الموصول بين العبد وربّه عن إيمان، وفهم، وتدبر،

---

(١) العقل وفضله: ٥١ .

(٢) العقل وفضله: ٥٥ .

حتى تكمل جوانب التقوى. فقد يأتي النقص في الأجر للعبادة والورع والقراءة من جانب لم يعرض على العقل، ولم يفطن له صاحبه، ولا تنبه له المتعبد، وقول عيسى عليه السلام يبين هذا:

«قال عيسى لرجل ما تصنع؟

قال: أتعبد.

قال: فمن يعود عليك؟

قال: أخي.

قال: أخوك أعبد منك». [1]

والشيوخ، الذين تقدموا في السن، هم أقرب إلى رزانة العقل، لما مرّ بهم من تجارب، ما لم يكن في عقلهم نقص من الأساس، وشيوخ الأعراب أقرب إلى صفاء الذهن، ورزانة العقل، وصواب النظرة، لما يجدونه من الوقت للتبصر والتدبر، ووزن الأمور، وتقليبها في الذهن، حتى يتبين لهم إطارها، ولبّها، وما يحكمها، وتبقى نتيجة التبصر في ذهنهم، محفوظة

---

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ١٧٠.

في ذاكرتهم، حتى يأتي يوم يحتاجون إلى إبدائها، والانتفاع بها، أو نفع غيرهم، وهذا ما حدث لأعرابي، رأى متخاصمين يصطلحان، ويتعاتبان، وكان له رأي في المعاتبة، وما تجر إليه، وما تفسده مما يبرم في الصلح، والقول كمايلي:

«قال إياس بن معاوية:

خرجت في سفر، ومعي رجل من الأعراب، فلما كان ببعض المنازل لقيه ابن عم له، فتعانقا، وتعاتبا؛ وإلى جانبهما شيخ من الحي يفن (كبير)، فقال لهما:

أنعما عيشا؛ إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة». [1]

لقد صدق هذا الشيخ، ولقد أحسن تسلسل

---

(١) زاد إياس: فقلت للشيخ من أنت؟ قال: ابن تجربة الدهر، ومن بلا تلوّنه، فقلت له: ما أفادك الدهر؟ قال: العلم به. قلت: فماذا رأيت أحمد؟ قال أن يبقى المرء أحدوثة حسنة بعده. عيون الأخبار ٣/ ٣٧. ربيع الأبرار: ٢/ ٨٤٧.

الفكرة حتى وصل إلى ثمرة العتاب، فأرى أنها مرة، ولم يصل إلى هذه الفكرة إلا بالتجربة الطويلة، التي احترقت من ملمسها الأصابع، وعانت من لذعها الأجسام.

والنجاح في الأمور، في غالب الأحوال، يكمن وراءه العقل، لأنه خير مدبر، يدل على الطريق الموصل، وينبه على الطريق المضل، إن سلكت الطريق الحق شجعك، وإن حدت عنه عدّلك، وأقامك.

والقصة الآتية عن أبي مسلم، وقد تكون موضوعة، لكثرة ما يوضع عنه من مدح، لعله أريد به رفع شأن أمته الفرس، أمام ما فعله به المنصور؛ وهذا القول، إن صح عنه، فلعله حاد عنه في موقفه مع المنصور، إذ أن المنصور هو الذي نجح، وأخفق أبو مسلم إخفاقاً ذريعاً، انتهى بقتله، لما زرعه من سوء سيرة بينه وبين المنصور، مما أحنق المنصور عليه، وشكك في نية أبي مسلم، وقصده تجاه الحكم. والقول المنير الذي قيل أن أبا مسلم قاله، مما يدل على عقل،

ومعرفة عميقة بالأمور هو قوله:

«قيل لأبي مسلم:

بِمَ أصبت ما أصبت؟

قال: ارتديت الصبر، واتزرت بالكتمان، وحالفت الحزم، ولم أجعل العدو صديقاً، ولا الصديق عدواً». [1]

والعقل عند المفكرين درجات، يكمل أحياناً، وينقص أحيانا أخرى، فإذا نقص فقد يأتي منه نتيجة لا تختلف عن نتيجة تأتي من فعل من لا عقل له، والقول الآتي يبين الصورة هذه:

«قال سفيان بن عيينة:

ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه»[2] .

وهذا هو العمل بما عُلِم، وإلا فما فائدة العلم إذا لم يفد صاحبه في حياة العمل، وما فائدة العقل،

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٥٢٥.

(٢) العقل وفضله: ٥٩.

ومعرفة كنه الأمور إذا لم يكن التصرف مبنياً على ما بينه العقل، وهدى إليه، وما فائدة النظرية إذا لم يستفد منها في التطبيق. إذا علمت أن مقدمات أمر تؤدي، بإذن الله، إلى المرض أو الهلاك، ولم تجتنب سبيلها، فعقلك لم يفدك.

وعلى هذا النسق يأتي النص التالي:

«ليس الرجل الذي إذا وقع في الأمر تخلص منه، ولكن الرجل يتوقى الأمور، حتى لا يقع فيها». [1]

وهناك قصة رمزية تقال على لسان الغراب وابنه، ومعروف أن الغراب حذر، ويقال إن غرابا كان يعلم ابنه ما يفيده في حياته وقال له من جملة ما قاله:

إذا رأيت إنساناً منحنياً يلتقط شيئاً من الأرض، فَطِرْ فقد يكون يلتقط حجراً، ليرميك به.

فقال: الابن: أو لا أطير بمجرد أن أرى الرجل، فقد يكون قد لقط الحجر قبل أن أراه، وأعده في

(١) العقل وفضله: ٦٠.

يده، ليرميني به.

فقال الأب: إذهب فلا أخشى عليك بعد هذا.

والحِكَمُ هي خلاصة العقول، لصدقها، لأنها بنيت على حقائق لحوادث شوهدت، وتَبَصَّرَ فيها الراؤون لها، واستقرؤوها، ورأوا تواترها، وصدق نتائجها، لتماثل مقدماتها، وتشابه حوادثها، وعدم اختلافها في سيرها، فهي عصارة ناضجة لكل هذا، ومن الأمثلة القول الحكيم الآتي:

«قال زياد: تأخير جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء دناءة؛ والتثبت في العقوبة ربما أدى إلى السلامة منها، وتأخير الإحسان ربما أدّى إلى ندم، لا يمكن صاحبه أن يتلافاه».[1]

وليس من الصعب على الإنسان، إذا ما ألقى باله إلى ما حوله، أن يرى مرامي هذا القول، وصحة مؤداه، فليس من اللائق بالمحسن أن يؤخر إحسانه، إذا لم يعقه عائق فوق طاقته؛ لأن المحسن إليه يكون

---

(١) تمام المتون: ٩٤.

في شوق إلى نيل ما وعد به، وربما يكون قد التزم لآخرين ببعض ما وُعد به؛ وناحية النفس لها دخل كبير في اطمئنانه، وفي قلقه إذا تأخر الإحسان.

والعقوبة إذا تحققت على شخص، فتأجيلها خير من تعجيلها، لأن في التأجيل عقوبة نفس، تلعب دوراً في تقويم المسيء، ربما في بعض الأحيان، أكثر من عقوبة البدن؛ والتعجيل ربما صاحبه عدم التأكد من الذنب، وتناسُبِ عقابه معه، نتيجة الغضب، من عدم دقة الإخبار عن الذنب، وعن مرتكبه، فإذا وقع الخطأ، فلا مجال لرده، وكما يقول العامة:

«إذ قطعت رأساً بالجهل فكيف تركبه».

لقد سبق السيف العذل، ولا راد لما فات، وقد يكون الخطأ جسيماً، تتوقف عليه حياة فرد، وحياة أسرة، وقد يأتي بأذى يصاحب المعاقِب طوال الحياة.

والتثبت في العقاب، وتأجيله، ليس فيه ندم، بل إن فيه السلامة، فيما لو تبين أن الإخبار عن الأمر كان على غير وجهة، والتهمة فيها لبس، فلا أجمل

من نتيجة التأني والتثبت .

ومن الحِكَم الصائبة، التي جاءت حصيلة عقل، ونتيجة تدبر لمشاهدة كثير من الحوادث المتماثلة، التي جاءت بنتيجة صادقة منتظمة، الحكمةُ الآتية :

«قالت الحكماء :

أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام .

وقالوا :

المعروف إلى اللئيم أضيع من الرسم على بساط الماء، والخط على بُسُط الهواء» .[1]

فمن وضع بذرة المعروف لدى لئيم، فإنما بذرها في أرض سبخة، لا تغل أرضها، ولا يثمر شجرها، الماء فيها مهدر، والجهد ضائع؛ والسبب أن المعروف وضع في غير أهله، فأنت ألبست ثوب الشتاء للصيف، وثوب الصيف للشتاء، وهذا يجعل الأمر يختل .

واللئيم لا يرى المعروف منة، ولا يرى مساعدته فضلاً أو رأفة ورحمة، وإنما قد يراه حقاً له، استطاع

---

(١) تمام المتون : ٣٧٨ .

أن يستقطعه من الواهب بمقدرته هو وجدارته، وذكائه وعقله؛ وأنه استغفل الواهب، بأن جعله يظن أنه مانّ عليه. ثم يرى أنه يؤكد هذا فيما بعد إما بالعداوة الصريحة، أو بالكيد الخفي، أو بإنكار الفضل وتقليله. وقد قالت العامة وغير العامة: اتق شر من أحسنت إليه، لأنه يشعر في قرارة نفسه، أن طوقاً من الفضل قد احكم وضعه على عنقه، فهو يشعر باختناق منه، يريد أن يتخلص منه، ولو بالوهم، وإقناع نفسه، فيأتي بما يأتي به من إنكار المعروف، وقلب الصداقة إلى عداوة. وبهذا يشعر أنه ترك أرضاً إلى أرض، وأنه في أرضه الجديدة بعيد عما كان مستعبداً به، وله الحق في أن يقول ما يقول، ويفعل ما يفعل، ويبعد في عداوته، ويوغل في أقوال الباطل، وتهم البهتان.

ولقد أحسن القائل عندما صور الأمر بصورة حِسٍّ ملموس مشاهد، عندما شبه ضياع المعروف من اللئيم بالكتابة على صفحة الماء، والخط على

بساط الهواء، تذهب الكتابة والخط والرسم هباء، لا يرى لها أثر.

والنصح من العاقل إلى العاقل يأتي مقنعاً، لأنه يحمل فكرة مضيئة، من عقل به نور، إلى عقل به مثله، فيلتقي الخيران، فيحدث التلاحم والتوافق، وتأتي النتيجة سليمة، بذرة خير زرعت في حقل مخصب، فجاءت بالثمرة المرجوة، ناضجة قد آتت أكلها. وعمر بن عبدالعزيز رحمه الله، خليفة أعطاه الله عقلاً وتقوى، فرجي له الخير، مما أظهره من حسن النية، والعمل على السير بالخلافة بالطريق الذي يرضي الله، ويريح عباد الله، وقضى على كثير من الأخطاء التي كانت قائمة، والتي تعود الناس عليها، إلى حد ظنوا أنه لا شيء، أحسن منها، وأنها باقية إلى يوم الدين، فأيقظهم من غفلتهم، وحاول، ونجح في حدود المدة التي عاشها خليفةً، أن يعدل بعض الأمور المائلة، ويقيم العادات المعوجة، ودل الناس، كل في مجاله، إلى ما فيه نفعهم وفلاحهم.

وعمر عمل ما عمل لأن الله وفقه إلى الاستفادة من عقله، ومن جملة ما دلّه عليه عقله، اختيار الجلساء، والاستماع للناصحين المخلصين، وبين هؤلاء من عصر عقله ليعطي عمر بن عبدالعزيز نتيجة تفكيره، وتجربته، في اختيار الوزير والمعضد للخليفة، وهو يده التي يعمل بها، وعينه التي يبصر بها، لاختلاطه بالناس، وسماعه لهم، فجاءت النصيحة هكذا:

«قال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبدالعزيز:

لا تتخذن وزيراً إلا عالما، ولا أمينا إلا بالجميل معروفاً، وبالمعروف موصوفاً؛ فإنهم شركاؤك في أمانتك، وأعوانك على أمورك، فإن صلحوا أصلحوا، وإن فسدوا أفسدوا». [1]

ونعود إلى الحكمة وصدقها، وهي ابنة العقل، وطرح دوحته؛ فهناك قول لأحد الحكماء يبين فيه ما يأتي من العقل، إذا تغلب على الهوى، فصار هو المسيطر، وهو سيد الموقف، يصول في ميدانه، ويجول، يأمر

(١) الذهب المسبوك: ١٧٨.

وينهى، يرتب ويدبر، لا يقف في طريقه أحد، ولا يعترضه عائق، إذا وجد الخير ثبته، وإذا رأى الشر انتزعه، لا يني ولا يتأخر، عمله دائب، وحركته لا تقف، فالوقت ثمين، والحياة قصيرة، وما يأتي من العقل ينزل فيه الله سبحانه وتعالى البركة، وينميه ويزيد فيه، والقول يعبر عن نفسه تعبيراً بليغاً، فيقول:

«قال بعض الحكماء:

إذا غلب العقلُ الهوى، صرف المساوئ إلى المحاسن، فجعل البلادة حلمًا، والحدة ذكاءًا، والمكر فطنة، والهذر بلاغة، والعيّ صمتاً، والعقوبة أدباً، والجبن حذراً، والإسراف جوداً». (١)

وكنا تكلمنا عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ وعن صبره وحلمه، وتحمله، وسعة صدره، وقلنا أن هذا جاء من رزانة عقله، وبه استطاع ـ بتوفيق الله ـ التغلب على الصعاب التي واجهته، والعقبات التي اعترضت طريقه؛ وعن طريق العقل حلّ كثيراً من معضلات

(١) نهاية الأرب: ٣/ ٢٣٥.

الخلافة، ما كان منها جامعاً، وما كان منها يخص أفراداً، وإن بعض ما يأتي من الناس، وهم أفراد، يصل إلى درجة الهم الكبير، ويقتضي من الحاكم أن يوليه من الالتفات، والعناية، ما قد يوليه تجهيز جيش، لأن بعض هذه المشاكل الفردية قد تؤدي إلى فتنة كبرى، يشب أوارها، وتستعر نارها، ومعاوية من عقلاء الحكام، الذي ينظرون إلى الأمر الصغير، نظرتهم إلى الأمر الكبير، ويعطون هذا من وقتهم، وجهدهم، والتفاتتهم، ما يعطونه لذاك، والقصة الآتية تُري نضج عقل معاوية، ومدى ما وصل إليه:

«قال نافع:

ذكر بشر بن أرطأة عليا، فنال منه، فضربه زيد بن عمر ـ وأمه ابنة علي بن أبي طالب ـ على رأسه بعصا، فشجه، فبلغ ذلك معاوية، فبعث إلى زيد بن عمر. [وقال له:]

أتدري ما صنعت؟ وثبت على بشر بن أرطأة، وهو شيخ أهل الشام، فضربت رأسه بعصا. لقد

أتيت عظيماً .

ثم بعث إلى بشر ، فقال :

أتدري ما صنعت؟ وثبت على ابن الفاروق ، وابن علي بن أبي طالب ، تسبّه وسط الناس ، وتزدريه ، لقد أتيت عظيماً .

ثم بعث إلى هذا بشيء ، وإلى هذا بشيء» . (١)

لقد عالج معاوية هذه المعضلة بحكمة ، وقضى عليها بعقل وبصيرة ، وأوهم كل واحد منهما بأنه عليه لخطئه ، وأنه مع الآخر لفضله وأهميته ، فكسر أنف هذا ، وأنف هذا ، وأنزل من كبريائهما ، ثم عاد فدمل الجرح بعطاء بَرَدَ حرّ التأنيب .

لقد عرف معاوية كيف يصب الماء على نار متأججة بين اثنين توشك ـ لو تركت ـ أن تجر عائلتين ، وقد تجر قبيلتين ، وقد يتسع الخرق على الراتق ، فبادر معاوية ، بالتفاتة مهتمة ، إلى وقف لهب هذه النار ، وعزلها عما جاورها من هشيم كان يمكن أن يستعر .

---

(١) عيون الأخبار : ١/ ٢٩٨ .

والمبادرة، والحزم، مقرون بهما النجاح في مثل هذه المعضلات، والتراخي، والأمل في أن يحل الزمن العقد قد ينفع في بعض الأمور، بل قد يكون هو الدواء الناجع، ولكن بعض الأمور تحتاج إلى المبادرة، والعاقل هو الذي يعرف كيف يفرق بين هذا وهذا، وقد لا يكون ذلك سهلاً حتى على العاقل، لأن الحدود ليست واضحة، بين ما يجب أن يبادر، وما يحتاج إلى التأني؛ وهذا من أدق الأمور، ومصدر همٍّ كبير للحاكم، ولكنه إذا حسنت نيته، واتجه إلى الله يطلب منه العون أعانه، لأن الأمر لا يعني الحاكم وحده، ولكنه أيضاً يعني من يحكمهم، وهم مجتمع كبير، فيهم من هو عند الله وجيه، فيعين الله الحاكم بحسن صلة بعض رعاياه بالله، وإخلاصهم عملهم لوجهه تعالى.

ومعاوية يأتي الأمور، عن تفكير وتبصر، وسياسة مرسومة، يضعها نبراساً أمامه، يسبقه إلى العمل، ومعالجة أموره، وأفكاره الثابتة بَنَى أساسها قوياً،

فجاء مفيداً، وهي تدور في حلقة صلته بالناس، وتغاضيه عن ما يبدر منهم مُغْضِبًا، وتسامحه فيما هو جارح، ومن أقواله المأثورة قوله:

«إني لأكره البَكَاءة (قلة الكلام) في السيد، وأحب أن يكون عاقلاً متغافلاً».

وقال شاعر في هذا المعنى:

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِيْ قَوْمِهِ
لكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمتَغَابِيْ[1]

وينفع العقل صاحبه في معاشه، وفي سيره في دنياه، بأن يدلّه على أمر إذ اتبعه، وداوم على متابعته، جاءه بخير عميم، وقد جاء لرجل اختار هذا النهج، بناء على هدي من العقل، بتوفيق من الله، بخير، عندما اتخذ أمراً درب نفسه عليه، ليصل عن طريقه إلى بغيته النهائية:

«أغلظ عبد لسيده، فقال: إني أصبر لهذا الغلام

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٢٧.

على ما ترون، لأروض نفسي بذلك، فإذا صبرت للمملوك على المكروه، كانت لغير المملوك أصبر» .[1]

لم يعد هذا الرجل أن سَعَى ليصل إلى ما وصل إليه معاوية في صبره على الناس، واتساع صدره لما يأتي منهم، وقد هداه عقله إلى هذا النهج، رغم ما يبدو فيه من ذلة، في نظر بعض الناس، ولكنها ذلة تؤدي في نهاية الأمر، إلى عز وشرف، قد جعل عينه عليهما فيما يأتي من الزمان، والحياة طويلة بما يأتي فيها من أمور لا يرضاها الإنسان، ولا يختارها.

ومصانعة الناس، والصبر على ما يأتي منهم محمودان من العاقل في عين العاقل، لما يأتي من ذلك من النفع، وهناك نص يَحْمَدُ هذا.

قال الحسن البصري:

«حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة» .[2]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠٣.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٨.

ويتبين نضج العقل وعدم نضجه في واقعة، دار فيها جدل بين والد وولده، الوالد عمد إلى المداراة، وعدم توسيع الخرق، وإبقاء النار خامدة، وهذا أدهش الابن، وكان يتوقع غير ذلك، وعلى الأقل أن يقف الوالد من الخصم موقفاً سالباً، ولكن الوالد اختار أن يخطو خطوة إيجابية، وأن يمد يده إلى عدوه، وهو شاعر سبق أن هجاه أو قومه، والقصة كمايلي:

«قال عقال بن شبه:

كنت رديف أبي، فلقيه جرير على بغل، فحياه أبي، وألطفه، فلما مضى، قلت:

أبعد ما قال لنا ما قال؟!

قال: يا بني، أفوسع جرحي؟»[1].

وهذا الموقف سهل بجانب موقف صعب، وقفه رجل أمام خليفة سبق أن قتل أخاه، فماذا يتصور أن عقله يسعفه به، عندما سأله الخليفة عما إذا كان هو قاتل أخيه، لقد ساعده العقل على رد محكم، فيه

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٨.

عزاء للخليفة، وفيه إخراج للقاتل من حلقة الاحراج، وفيه صدق متناه، والعقل كان وراءه توفيق الله، في الخروج من المأزق، والإتيان بجميل القول:

«دخل لبيد العجليّ على عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال عمر:

أقتلت زيداً؟

فقال: يا أمير المؤمنين، قد قتلت رجلاً يمسى زيداً، فإن يكن أخاك، فهو الذي أكرمه الله بيدي، ولم يهنِّي به.

ثم لم ير من عمر، بعد ذلك، ما يكره». [1]

لقد عَزَّى عمرَ بهذه الكلمات، إذ ذكره بأن القتيل شهيد، ولو كان القتيل لبيداً لكان من أهل النار، وهذا ما عناه لبيد بالإهانة، واقتنع عمر بأن ترضى نفسه بهذا القول الحق، الذي أملاه العقل، وإن كان عمر من المتوقع ألا يمسه بسوء، سواء قال هذا القول أو لم يقله، لعقل عمر ودينه، وصحابته.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٧.

وأقوال العقلاء كثيرة، وأفعالهم التي سارت في ضوء العقل، وما يوحي به، تكاد لا تحصر، وسوف نختم بقول يمجد العقل، بصورة مبتكرة بارعة، تريه في تفوقه على فضائل أخرى:

«في الحديث أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى آدم ـ عليه السلام ـ فقال له: إني أتيتك بثلاث، فاختر واحدة.

قال: وما هي، يا جبريل؟

قال: العقل، والحياء، والدين.

قال: قد اخترت العقل.

فخرج جبريل إلى الحياء والدين، فقال:

ارجعا، فقد اختار العقل عليكما.

فقالا: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان». [1]

فإن كان حديثا صحيحا، فيكفيه إعجاباً به صدقه، وإن كان رمزاً فالنور الحق يشع من ثناياه، فالدين والحياء والعقل عصبة واحدة.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٩٦.

الفهارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤٣٠

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٤٣١

(٣) فهرس الأسماء ٤٣٢

(٤) فهرس الأماكن ٤٣٩

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٤٠

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٤٤

***

(١)

فهرس المواضيع حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥

* الشـــحاذون ١١

* المعايبة والمعايير ٣١

* الصاع صاعان ٥١

* غش مستور ٨٧

* إقدام وإحجام ١١٦

* اللغة أداة رسم ١٦٤

* بلاغـة الوصف ٢١٤

* نظرة إلى الأعراب ٢٤٨

* شـعر يشـــد ٣١٩

* نعمـة العقــل ٣٦٨

***

(٢)

فهرس المواضيع
حسب حروف الهجاء

* المقـــدمـة ٥

* إقدام وإحجام ١١٦

* بلاغـة الوصف ٢١٤

* الشـــحاذون ١١

* شـــعر يشـــد ٣١٩

* الصـاع صاعان ٥١

* غش مستور ٨٧

* اللغة أداة رسم ١٦٤

* المعايبة والمعايير ٣١

* نظرة إلى الأعراب ٢٤٨

* نعمـة العقـل ٣٦٨

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبراهيم الحافظ (أبو الآذان): ٤٤

إبراهيم الحربي: ٢٥

إبراهيم بن سبابة: ٥٩، ٦٠، ٣٨٧

إبراهيم بن إسحاق: ٤٠٧

أحمد بن يحيى النحوي: ٢١١

أحمد بن يوسف: ٤٠٠

أبو بحر الأحنف بن قيس: ١٠٦، ١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ٢٣٤، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٩٤

الأخطل: ٦٥، ٦٦، ٨٠، ١٩٤

آدم (عليه السلام): ٤٢٨

أبو إسحاق: ٩٢، ٩٣

إسحاق الموصلي: ٢٥٣

بنو إسرائيل: ٨٥

الإسكندر: ٦٣، ٧٢، ٣٩٤، ٣٩٥

إسماعيل القاضي: ٤٦

الأسواري: ٤٠٦

أسيلم بن الأحنف: ٣٠٢، ٣٠٣

الأصمعي: ٢٠، ٢١، ٢٧

ابن الأعرابي: ١٧٤

الألحي: ٤٣

ابن الأمة: ٧٢

الأمويون: ١٧، ٤٢، ٧٧، ١٤٢

إياس بن معاوية: ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٠

(ب)

الببغاء: ٤٣

بديع الزمان الهمداني: ١٦، ١٧

البزار: ٤٣

بزرجمهر: ٣٩٠

بشامة بن حزن النهشلي: ١٧٦

بشر بن أرطأة: ٤٢١، ٤٢٢

البصلاني: ٤٣

أبو بكر الصديق: ٧٨، ١٦٠، ١٦٢

بلال بن أبي بردة: ٧٣، ٧٦

(ت)

التستري: ٤٤

تغلب: ٦٦

بنو تميم: ١٥٤

التنوخي: ٤١

(ث)

أبو العباس أحمد بن يحي: ثعلب: ٦٤، ٢٠٥

(ج)

الجاحظ: ١٠٤، ١٠٥، ٢٣٠، ٢٣١

جبريل: ٤٢٨
جرير: ٤٢٦
جمين: ١٧٦
أبو جهل: ٢٢٧
الجوهري: ٤٦

(ح)

حاجب بن زراري: ٢٦٢
بنو الحارث: ١٥٢
حافظ إبراهيم: ١٩٢، ١٩٤
الحجاج بن حنتمة: ٨٥
الحجاج بن يوسف: ٤٦، ٣٩٩
ابن الحجامة: ٧٢
الحذاء: ٤٣
حذيفة بن بدر: ٢٢٧
الحريري: ١٥، ١٦، ١٧
الحسن البصري: ٣٨٣، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٢٥
الحسن بن حبيب النيسابوري: ٣٧١
الحسن بن علي: ٣٨٦
الحسين بن علي: ٣٨٦
حفصة بنت سيرين: ٣٨١، ٣٨٢
الشريف أبو حفص بن العياضي: ٤٩
أم حماده الهمدانية: ١٩١، ١٩٢
أبو حمزة الضبي: ٣٦٢

(خ)

خالد بن زيد الشفيري: ٤٤
خالد بن صفوان: ١٠١، ١٠٣، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١
خالد بن علي القسري: ١٠١، ١٠٣
خالد عينين: ٤٠
خالد بن الوليد: ١٦٠
الخرس: ٤١، ٤٢
خزاعة: ١٠٢
الخطيب الإسكافي: ١٠٨
الخطيب البغدادي: ٤٣
الخنساء: ١٦٠

(د)

أبو دقة: ٢٢٢
ابن الدلو: ٤٤
ابن أبي الدنيا: ٤٤
دويلة: ١٤٣

(ر)

رجاء بن حيوة: ٣٩٨، ٣٩٩
الرسول (ﷺ): ٤٢، ٧٨، ١٠٦، ١٠٧، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٤١
الرشيد: ٢٢٤، ٢٨٤، ٢٨٥
الشريف الرضي: ١٨٥
ذو الرمة: ٣٤٧، ٣٤٨
ابن الرومي: ٤٣

(ز)

زبرا: ١١٢، ١١٣، ١١٤

الزبير بن العوام: ١٥٩
زرعة بن ضمرة: ٣٨٨، ٣٨٩
الزعفراني: ٤٤
الزمخشري: ١٦٣
ابن أبي الزناد: ٣٧٧
الزهرة: ٣٧٧، ٣٧٨
زوج الحرة: ٤٣
زياد بن أبيه: ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٣١٨، ٣٤٧، ٤١٤
أبو زيد البلخي: ٢٢٧
زيد بن الخطاب: ٤٢٧
أبو زيد السروجي: ٢٠
زيد بن عمر: ٤٢١

(س)

سحيم الفقعسي: ٢٣٥
سعد: ١٦٧
السفاح: ٤١، ٣٩٩، ٤٠٠
أبو سفيان بن حرب: ٢٢٧، ٣٤٠، ٣٣٩
سفيان بن عيينة: ٤١٢
سلم بن قتيبة: ١٤٦، ١٤٧
سليمان بن علي بن صالح: ٤٣
بنو سليم: ١٢٦
سوار: ٥٦
سويد بن أبي كاهل: ٣٥٢
محمد بن سيرين: ١٤٠، ٤٠٤، ٤٠٥

(ش)

ابن شبرمة: ٥٨، ٥٩
شبل بن معبد: ٢٢٧
شبيب بن واج: ٤١، ٤٢
ابن شق القصباني: ٤٤
الشماخ: ٢٨٤
ابن شهيد: ١٨٦
أبو الشيص محمد بن عبدالله بن رزين: ١٩٤

(ص)

الصابوني: ٤٤
صالح بن عبدالقدوس: ٣٤٤
أبو صالح عبدالله بن خازن السلمي: ١٢٢، ١٢٣
أبو صالح الفزاري: ٢١٦
أبو صخر الهذلي: ٢٠٢
صربعر: ٤٨
صردر: ٤٨
صعصعة بن صوحان: ٦٢، ٦٣
الصولي: ٤٦

(ض)

الضايع: ٤٤
ضبه: ٤٤

(ط)

طاهر: ٣٠
ابن أبي طاهر: ٢٩
ابن الطباع: ٤٤

الطحان: ٤٤
الطرماح بن حكيم الطائي: ١٧٧
الطسقي: ٤٣
الطيالسي (رغاث): ٤٤
أبو الطيب الطاهري: ٤٠٥

(ع)

ابن عائشة: ٣٥١
أبو علي عامر بن الطفيل: ٢٢٧، ٢٦٦، ٢٦٨
عبادة: ٧٨
ابن عباد: ١٥٥، ١٥٦
العباسيون: ١٧، ١٥٦
عبدالرحمن: ٣٩
عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني: ٣٥٧
عبدالعزيز بن زرارة الكلابي: ٣٣٧
عبدالعزيز بن زياد: ١٢٢
عبدالله بن خازم، ٨٥، ١٤٢، ١٤٣
عبدالله بن الزبير: ١٤٧، ١٤٨
عبدالله بن سعد: ٤٠٧
عبدالله بن شبرمة: ٩٥، ٩٩، ١٠٤، ٣٤٠
أبو عبدالله شداد الحارثي: ٥٣، ٥٤
عبدالله بن طاهر: ٧٠
عبدالله بن علي: ٢١
عبدالله بن عمر: ٢٩٩
عبدالله بن مصعب الزبيري: ٣٢٧
عبدالله بن يزيد الهلالي: ٨٠
عبدالملك بن مروان: ٤٦، ٦٥، ٣٠١، ٣٩٨، ٣٩٩
ابن عبدالملك المروزي: ٤٤
بنو عبس: ١٤٩، ١٥٠
عبيدالله المرزباني: ٤٦
عبيدة بن هلال: ٣٦١
أبو العتاهية: ٢٤٠، ٣٤٥
عتبة بن ربيعة: ٢٧٧
العتبي: ٢٨٠، ٢٨١
عثمان بن عبدالله المغيرة: ١٥٩
عثمان بن عفان: ٧٨، ٣٣٩
عرام بن شتير: ٦٨
عقال بن شبة: ٤٢٦
علي الجارم: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠
علي بن الجهم: ٢٥، ٢٦
أبو علي بن الحسن بن علي بن الفضل: ٤٧، ٤٨
علي بن صالح بن جعفر: ٤٣
علي بن الصباح (ابن عمارة): ٤٣
علي بن أبي طالب: ٨٦، ١٥٧، ١٥٨، ٣٨٦، ٤٢١، ٤٢٢
علي بن عبيدة: ٣٧٧، ٣٧٨
علي بن الهيثم: ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣
أم عمرو: ٢٣٤
عمرو بن حريث: ٣٦٦
أبو عمرو الصفار: ١٣٦
عمرو بن العاص: ٧٦، ٨٥، ١٣٢
عمرو بن عبيد: ٤٠٦، ٤٠٧
عمرو بن العلاء: ٢٧٧
عمرو بن معد يكرب: ١٥٠

عمرو بن واقد الدمشقي: ١٠٩
عمر بن الخطاب: ٦٧، ٧٨، ١٤٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ٣٧٢، ٣٧٣، ٤٢٧
عمر الدسوقي: ٣٢١
عمر بن عبدالعزيز: ٢٨٨، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٨، ٤١٩
عمر بن هبيرة: ٦٨، ٦٩، ١٤٢، ١٤٣
عمير بن شييم التغلبي: ١٩٤
عنترة بن شداد: ١٤٩، ١٥٨
عوف بن محلم الخزاعي: ٧٠
ابن عياش: ١٤٦، ١٤٧
ابن عيسى: ٤٧
عيينة بن حصن: ٢٢٧
عيسى بن مريم (عليه السلام): ٤٠٩
أبو العيناء: ٢٢٧

(غ)

غزوان: ١٠٠، ٣٤١
غيلان بن خرشة: ٢٦٣، ٢٦٨، ٣٠٨

(ف)

الملك فاروق: ١٧٩
ابن الفحام: ٤٤
ابو فراس المجنون: ٧٤، ٧٥
الفرزدق: ١٦٧، ١٨٥
فرعون: ٨٥، ٨٦
فزارة: ٦٨
الفضل بن الربيع: ١٥٥، ١٥٦
الفضل الرقاشي: ٤٧
الفضل بن مروان: ١٧٠، ١٧١

(ق)

أبو القاسم الضحاك بن مزاحم: ٤٠٨
القبط: ٣٨٧
قتادة: ٣٧٤
ابن قتيبة: ١٦١، ١٦٣
ابن قثم: ٢٤
قريش: ٢٢٧
القشيري: ٨٠
القطامي: ١٩٣
قطري بن الفجاءة: ١٣٩، ١٦١
قيس بن الخطيم: ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣

(ك)

الكاغدي: ٤٤
كثير: ٦٥
كسرى: ٢٥١، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢
ابن كعب الأنصاري: ١٥٥
كليب وائل: ٢٢٧

(ل)

اللؤلئ: ٤٣
لبيد: ٤٠٠، ٤٢٧
لقمان (عليه السلام): ٣٩٢
بنو ليث: ١٢٦

(م)

المأمون: ٤٣

ماني الموسوي محمد بن القاسم المصري: ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٧
مبارك بن فضالة: ١٠٦
أبو العباس المبرد: ٤٦، ٦٤، ٩٨
المتلمس: ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢
المتوكل: ٢٥، ٢٦، ٨٧
مجنون بني عامر: ١٩٨
قبيلة محارب: ٨٠
محرق غسان: ١٥٤
أبو الفرج محمد بن جعفر بن الحسن ابن سليمان بن علي بن صالح: ٤١، ٤٢
محمد بن حازم: ١١٢، ٢١١
محمد بن الحنفية: ٣٨٦
محمد بن سيرين: ٣٨١
محمد بن يحيى: ٤٠٨
محمد بن يسير: ١٦٨
ابن المخبزي: ٤٣٠
المدائني (اترجة): ٤٤، ٦٨، ١٠٦، ٢٦٩، ٣٤٠
المروزي (الطهماني): ٤٤
مزبد: ٥٥
مزرر: ٢٨٤
المستعطف: ٤٤
مسروق: ٣٧٢
أبو مسلم الخراساني: ٢١، ٤٢
أبو مسلم: ٤١١، ٤١٢
مسلمة: ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨
أبو سعيد مسلمة بن عبدالملك: ١٤٤، ١٤٥
مصعب بن الزبير: ١١٢، ١١٣
مضر: ٤٢، ١٤٣
معاوية بن أبي سفيان: ٦٢، ٦٣، ٧٦، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٧٢، ١٧٣، ٢٨٦، ٣٣٨، ٣٨٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥
ابن المعتز: ١٨٤، ٢٣١
المعتصم: ٤٣، ٢٢٤
المعلى بن أيوب: ٢٩
أبو معمر يحيى بن نوفل: ٩٩، ١٠٠، ٣٤٠، ٣٤١
المغيرة بن عبدالله الثقفي: ٢٦٩
المقبري: ٤٣
ابن مكعبر: ٦٨
أبو جعفر المنصور: ٤١، ٤٢، ١٤٦، ١٤٧، ٤١١
أبو منصور بن الفضل: ٤٨، ٤٩
منصور الكاتب: ٤٧
أبو موسى الأشعري: ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ٨٥
موسى بن قيس المازني: ٧٤

(ن)

نافع: ٤٢١
ابن النجار: ٤٨

نصر بن أحمد: ٤٠٥
نظام الملك: ٤٨، ٤٩
النعالي: ٤٤
بنو نمير: ٧٣

(هـ)

هامان: ٨٥، ٨٦
هشام بن عبدالملك: ١٠١، ١٠٣، ١٤٤، ٣٠٥، ٣٠٦
أبو هفان: ٢٩، ٨٤
همام بن يحيى: ٣٧٤
أبو العريان الهيثم بن الأسود النخعي: ٣٦٦

(و)

واصل الحداد: ٤٣
وافد بن عبدالله: ٢٩٩
ورد بن محمد نصرويه: ٤٠٧
وكيع بن الدرقة: ١٤٣
أم الوليد: ١٠٠، ٣٤١
الوليد بن عبدالملك: ٣٠٢
وهب: ١٧٤

(ي)

يحيى بن خالد: ٢٣٦، ٢٣٧
يحيى بن طالب: ٤٦
يزيد بن معاوية: ١٠٦
يزيد بن هارون: ٤٦
يقطين بن موسى: ٤١
اليونان: ٧٢
أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب: ٦٩، ٧٠

❊ ❊ ❊

(٤) فهرس الأماكن

الأبلة: ١٤٦
جبل أحد: ٤٠٢
أصبهان: ٢٦٥
الأهواز: ٢٦٥
البصرة: ١٠٢، ١١٣، ١٤٦
بغداد: ٢٥، ٤٣
بلخ: ٤١
تستر: ٢٦٥
الجبيل: ٤٠
جده: ٢٢٢، ٢٢٣
جرجان: ٤٣
الجزيرة العربية: ٦٢
الجعفري: ٢٦
جلولا: ٧٨
الحجاز: ١٢٣
خراسان: ٤١، ١٤٠
الخزيمية: ٩٦، ٢٧٦
الخلد: ٢٦
يوم الخندق: ١٥٩
دجلة: ٤٧
رشيد: ١٧٩، ١٨١
الشام: ٦٢، ١٧٤، ٤٢١
العراق: ٤٣، ٢٤٢
عنيزة: ١٢٣
أبو عينين: ٤٠
فارس: ٢٦٥
القصيم: ١٢٣
الكوفة: ٢٦٩
المدينة: ٣٨٥
مرو الروذ: ١١٢، ١٤١
مصر: ١٧٩، ٣٨٧
مكة المكرمة: ٦٢، ٩٦، ١٢٣، ٢٢٢، ٢٢٣، ٣٨٥
مهرجان: ٢٦٥
الندوة: ٢٢٧
نهاوند: ١١٢

***

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - **كتاب الأمالي**

لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي

دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٤٠٠/ ١٩٨٠م

٢ - **البصائر والذخائر**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: الدكتورة وداد القاضي

دار صادر ـ بيروت

٣ - **بهجة المجالس وشحذ الذهن والهاجس**

لأبي عمر يوسف بن عبدالله القرطبي

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية ـ بيروت

٤ - **البيـان والتبـيين**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى

٥ - **تـاريخ بغـداد**

لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب

دار الكتب العلمية ـ بيروت

٦ - **تحفة العروس، ونزهة النّفوس**

لعبدالله محمد بن أحمد بن أبي القاسم التجاني

تحقيق: محمد إبراهيم الدسوقي

مكتبة ابن سيناء

٧ - **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**

لخليل بن أيبك الصّفدي

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية ت صيدا

٨ - **شـرح ديوان الحماسـة**

لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي

تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد

مطبعة حجازي ـ القاهرة : ١٣٥٧هـ

٩ - **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**

لأبي الحسن علي بن بسام الشنتري

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٣٥٨/١٩٣٩هـ

١٠- **الذهب المسبوك في وعظ الملوك**

لأبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي

تحقيق: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري والدكتور عبدالحليم عويس

عالم الكتب ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٢/١٩٨٢م

١١- **ذيل تاريخ بغداد**

لمحب الدين محمد بن محمود (ابن النجار)

دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٢- **ربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار**

للإمام محمد بن عمر الزمخشري

تحقيق: الدكتور سليم البعيمي

١٣- **كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة**

لأبي الحسين ابن محمد (ابن الفراء)

تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ الطبعة الثانية : ١٩٧٢م

١٤- من كتاب الزهـرة

لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني
أختار النصوص: خالد محيى الدين البرادعي
منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق : ١٩٩٢م

١٥- عقـلاء المجـانين

لأبي القاسم الحسن محمد بن حبيب النيسابوري
(من كتب الملح والسامر : ٢)
دار البصائر ـ الطبعة الثانية : ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

١٦- العقـل وفضـله

لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
حققه وعلق عليه : لطفي محمد الصغير

١٧- عيـون الأخبـار

لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
تحقيق : الدكتور يوسف علي الطويل
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

١٨- الكشـكول

لبهاء الدين العاملي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٩ - اللطائف والظرائف

لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي
دار المناهل ، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٢٠- كتاب لطف التدبير

لمحمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي
دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية : ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٢١- **المحاسن والمساوئ**

لإبراهيم بن محمد البيهقي

دار صادر - بيروت - ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

٢٢- **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء**

للراغب الأصفهاني

أختصار : إبراهيم زيدان

دار الآثار - بيروت

٢٣- **نهاية الأرب في فنون الأدب**

لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري

دار الكتب المصرية - القاهرة : ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م

❊ ❊ ❊

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

ظننت الدمع يسعد بالعزاء	فهل أجدى بكاؤك أو بكائي	١٧٨
يسقط الطير حيث يلتقط الحب	وتغشى منازل الكرماء	٣٤٢

(ب)

سروا يخبطون الريح وهي تلفهم	إلى شعب الأكوار ذات الحقائب	١٨٦
ارتكضنا حتى مضى الليل يسعى	وأتى الصبح قاطع الأسباب	١٨٧
أغدق عليها سحابا	وأملأ مداها شبابا	١٧٩
ولما أبت عيناي أن تستر الهوى	وأن تقفا فيض الدموع السواكب	٢٠٩
ليس الغبي بسيد في قومه	لكن سيد قومه المتغابي	٤٢٤
نسب ابن آدم فعله	انظر لنفسك في النسب	٣٧٣
لا أكتم الأسرار لكن أذيعها	ولا أدع الأسرار تغلي على قلبي	٢٣٥
قدرت على نفسي فأزمعت قتلها	على غير جد منك والنفس تذهب	٢٠٦

(ت)

قعد الشيب بي عن اللذات	ورماني بجفوة الفتيات	٢١١

(ج)

إن الأمور إذا اسْتدت مسالكها	فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا	١٦٨

(ح)

لا طار لي حظ إلى غاية	إن لم أكن منك مريش الجناح	١٨٩

(د)

وفي الخدود غمامات برقن لنا حتى تصيدننا من كل مصطاد ١٩٤
فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا ٣٠٧
خليلي إني للثريا لحاسد وإني على ريب الزمان لواجد ٣٥٢
وقف الخلق جميعا ينظرون كيف أبني قواعد المجد وحدي ١٩٢
إن الهوان حمار البيت يألفه والحر ينكره والفيل والأسد ٣٣٠
وللموت خير من زيارة باخل يلاحظ أطراف الأكيل على عمد ٢٨٦
وإن قوما سودوك لفاقة إلى سيد لو يظفرون بسيد ٧٥
فقالت قد بكيت فقلت كلا وهل يبكي من الشوق الجليد ٢٠٨

(ر)

لعمرك ما رماح بني نمير بطائشة الصدور ولا قصار ٧٣
يهوي وترفعه الرماح كأنه شلو تنشب في مخالب ضار ٣٦١
ماء المدامع نار الشوق تحدره فهل سمعت بماء فاض من نار ٢٠٦
ولا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار ٦٨
يا رب قد حلف الأقوام واجتهدوا أيمانهم إنني من ساكني النار ٣٤٩
تنق بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبري ٨٠
وإني لآتيها وفي النفس هجرها بياتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر ٢٠٣
مكتئب ذو كبد حرّى تبكي عليه مقلة عبرى ١٩٦
إذا مرضنا أتيناكم نعودكموا وتذنبون فنأتيكم فنعتذر ٣٢٦
دنوت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وشدوا دونه الأزرا ٣٤٦
فاسمع أنبئك بآيات الكبر تقارب الخطو وضعف بالبصر ٣٦٦
لئن أبرز الناس قدما أباك فسموه من شحه صرّبعرا ٤٩
هل من فتى عنده خفان يحملني عليهما، إنني شيخ على سفري ١٩
ما لي مرضت فلم يعدني عائد منكم، ويمرض كلبكم فأعود ٣٣٧

(س)

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي ٦٧

أيوحشني الزمان وأنت أنسي	ويظلم لي النهار وأنت شمسي	١٩١

(ض)

شاتمني عبد بني مسمع	فصنت عنه النفس والعرضا	٦٤

(ظ)

ما يعلم الله إني مذ هويتكموا	أطيق إظهار ما ألقاه باللفظ	٢٠٤

(ع)

لكل امرئ أم عمرو طبيعة	وتفضيل ما بين الرجال الطبائع	٢٣٤
وقولي كلما جشأت وجاشت	من الأبطال ويحك لا تراع	١٦١
أحببت قلبي لما أحبكموا	وصار رأيي لرأيه تبعا	١٩٩
إذا الليل ألبسني ثوبه	تقلب فيه فتى موجع	٧٤
كأنهم سرب قطا عطش	صادفن من ورد الرَّدَى مشرعا	١٨٢
كيف ترجون سقوطي بعدما	عمم الرأسَ بياض وصلع	٣٥٣
لكل هلالي من اللؤم جبة	ولابن يزيد جبة وبراقع	٨٠
ولما غدت أمي تمير بناتها	أغرت على العكم الذي كان يمنع	٢٨٤

(ف)

تمنيت من أهوى فلما لقيته	بهت فلم أُعمل لساناً ولا طرفا	٢٠٠
دار الهوى بعباد الله كلهموا	حتى إذا مرّ بي من بينهم وقفا	١٩٢

(ق)

إن على كل رئيس حقا	أن يخضب الصعدة أو يندقا	١٤١
لقد زرقت يابن مكعبر	لما كان كل ضبي من اللؤم أزرق	٦٨

(ل)

يا عمار بسوق الموت مجلوبة	ما هقينا على الدنيا لنا تالي	١٧٧

أفكر ما أقول إذا التقينا	وأحكم دائبا حجج المقال	٢٠٤
لا تطلبن خؤولة في تغلب	فالكلب أكرم منهموا أخوالا	٦٦
ألا فتى أروع ذا جمال	من عرب الناس أو الموالي	٢١
ما علتي وأنا جلد نابل	والقوس من نبع لها بلابل	١٢٦
ملأت الأرض حتى كأنها	من الضيق في عينيه كفة حابل	١٧٨
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد	إليه بوجه آخر الدهر تقبل	١٠٢
ودعوا نزال فكنت أول نازل	وعلام أركبه إذا لم أنزل	٣٦٢
تبدل كلّ آونة لبوساً	خيال العبقري به يضل	٣٢١
لما أضاءت بالمشيب مفارقي	صدت صدود مجانب متحمل	٢١٢
وشغلت عن فهم الحديث سوى	ما كان فيك وحبكم شغلي	١٩٨
ولما أبى إلا جماحا فؤاده	ولم يسل عن ليلي بمال ولا أهل	٢٠١
دخلت على معاوية بن صخر	على حين يئست من الدخول	٣٣٨
لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا	وأخو الحرب من أطاق النزولا	٣٦١
لئن قهر الناس فيك الأمل	وحال تجنيك دون الحيل	١٩٠

(م)

يزدحم الناس على بابه	والمشرب العذب كثير الزحام	٣٤٣
تأخرت استبقي الحياة فلم أجد	لنفسي حياة مثل أن أتقدما	١٦١
وقف الهوى حيث أنت فليس لي	متأخر عنه ولا متقدم	١٩٥
ولا أكتم الأسرار لكن أبثها	ولا أدع الأسرار تقتلني غما	٢٣٤
ولا أكتم الأسرار لكن أبثها	ولا أدع الأسرار تقتلني غما	٢٤٣
فلما دعاني عامر لأسبهم	أبيت وإن كان ابن عيساء ظالما	٤٠٠
تركت عبادتي ونسيت ربي	وقدما كنت بي براً رحيما	٤٧
وأمست الريح كالغيري تجاذبنا	على الكثيب فضول الريط واللمم	١٨٥
وطائرة تهوي كأن جناحها	ضمير خفي لا يحدده وهم	١٨٨
أما تريني ناحل الجسم	أصير من هم إلى هم	٢٠٧
أما والله إن الظلم لؤم	وما زال المسيء هو الظلوم	٣٤٥
وإن جئت الأمير فقل: سلام	عليك ورحمة الله الرحيم	٢٢

(ن)

يا ابنة السابقين من قحطان	وتراث الأمجاد من عدنان	١٨٢
يا ابن الذي دان له المشرقا	ن وأحرز الأمن به المغربان	٧٠
تزوجت اثنتين لفرط جهلي	بما يشقى به زوج اثنتين	٣٦٤
أصلي فما أدري، إذا ما ذكرتها	أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا	٢٠٠
بكت عيني غداة البين حزنا	والأخرى بالبكاء بخلت علينا	٣٢٧
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا	ولو نسام بها في الأمن أغلينا	١٧٦
ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل في البيت الذي يلينا	٣٦٣
أجود بمضمون التلاد وإنني	بسرك عمن سالني لضنين	٢٤٢
تنادوا يال بهثة يوم صبر	فقلنا: أحسني ضربا جهينا	٣٥٧

(هـ)

الصمت يكسب أهله	صدق المودة والمحبة	٢٣٢
إني وسعد كالحوار وأمه	إذا وطئته لم يضره اعتمادها	١٦٧
إذا كنت في حاجة مرسلا	فأرسل حكيما ولا توصه	٣٤٤
نهين النفوس وهون النفو	س يوم الكريهة أوقى لها	١٦٠
إذا المال لم يوجب عليك عطاءه	ضيعة قربي أو صديق توامقه	١٠٢
إن السعيد من يموت جمله	يشبع لحما، ويقل عمله	٢٧٨
مثل السفاة دائم طنينها	ركب في خرطومها سكينها	١٧٠
أقول غداة أتانا الخبير	ودس أحاديثه هينمةْ	٩٩
أقول غداة أتانا الخبير	ودس أحاديثه هينمةْ	٣٤٠
أهين لهم نفسي لأكرمها بهم	ولن يكرم النفس الذي لا يهينها	٣٣٢

(ي)

وإني لأخشى أن أموت فجاءة	وفي النفس حاجات إليك كما هي	٢٠٥
قيل لي قد هجاك مولى زياد	فأجبه، فقلت: ليس بكفوي	٣٤٧

***

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عينِّ في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عينِّ وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السرّية ، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف عام ١٤١٤ هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء العشرة وبين يديك الجزء الحادي عشر .

التوزيع

تطلب الأجزاء الأحد عشر من كتاب «إطلالة على التراث» ، والأجزاء الخمس من كتاب «أي بني»

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠ (مج ١١)